منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

د. مازن مرسول محمد

# حفريات في الجسد المقموع

## مقاربة سوسيولوجية ثقافية



مسائل فلسفية



# حفريات في الجسد المقموع

## مقاربة سوسيولوجية ثقافية



طبع في لبنان



# حفريات في الجسد المقموع

## مقاربة سوسيولوجية ثقافية

د. مازن مرسول محمد












الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1144-5





4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com







# إهداء

إلى الجسد الإنساني المقموع حتى نُبصره بشكلٍ أفضل، ولنُغيّر المخيال القابع في العقل الذي يظن أنه صامتٌ ولا نشعر به، ويمثل آخر لنا، إلى فهمٍ أعمق يرى أن أجسادنا نحن، ونحن أجسادنا.







# المحـتويَاتْ









# مُقـَـدِّمـَـة

لم يحظ الجسد الإنساني بالاهتمام الكافي الذي يعرضه كمحرّك اجتماعي أساس، وليس الاقتصار على النظر إليه من الناحية البايوطبية، فقد دعت الحاجة لإدامة الحياة بتكثيف الجهود، ولتطبيب الجسد ومحاولات ترميمه وترقيعه، إلا أن الاهتمام بالجسد ككيان له تمظهرات ينحتها عليه المجتمع ويظهره بصورٍ متعددة، لم يأت إلا في الفترات الأخيرة الماضية.

فالجسد ذلك الكيان الذي نُظر إليه على أنه جامد، لم يعد ولم يكن كذلك يومًا؛ فجميع تمحورات الحياة وصورها يؤديها الجسد، ويقوم بها بكل دقة وفق سلوكيات وأفعال الأفراد؛ فهو سر وجود الحياة بواقعها المادي، وهو مترجم لكل الأفكار والطموحات والمشاعر التي يمتلكها الإنسان، لتخرج بتصرف الجسد الذي يقوم بها وفق ما يريد ذلك الجسد.

إن المجتمع الذي يحيا فيه الإنسان يسطّر وينحت ما يريده على ذلك الجسد، فالإنسان يتعلم قيم مجتمعه الذي يعيش فيه وعاداته وتقاليده، وعلى أساس ذلك يكيّف جسده ويظهر به بصورٍ تلائم ذلك السقف الثقافي الذي يسود في المجتمع. وتمر الفترات الزمنية والجسد يتلقى كل أنواع الأزمات والتقلبات والتطورات؛ الأمر الذي يجعل منه خارطة لكل هذه الأشياء التي مرَّت عليه.

ويتعرض الجسد فضلاً عن ذلك لتمظهرات السلطة عليه؛ إذ تُمارس عليه من قبل الفرد نفسه أو من أسرته أو من أفراد المجتمع عدة سلطات، إما لتقويمه وبالتالي تطوير وبناء الجسد، أو عقابه وإلحاق الضرر به، وهو في كل هذه الأحوال يظهر بوضعيات تلائم كل ما أجبر أو أريد منه القيام به.

ولعل هذا الكيان الذي يمثل الواسطة لترجمة تفكيرنا وإدراكنا قد تُفرض عليه





سلطة أخرى، تحط منه وتعيقه بعض الشيء أو تنهيه قطعًا، ألا وهي سلطة المرض، التي تجعل منه جسدًا باليًا قد يخضع إلى الترميم والترقيع إن نفع ذلك.

ومن ضمن ما يخضع له جسد الإنسان أيضًا من سلطات سلطة الطب والصحة، اللتان تفرضان عليه تناول ما يعيد له نضارته، ويديم بقاءه لفترةٍ من الزمن في الحياة. ومن بين ذلك كله أيضًا يتحمل الجسد كل ما تمارسه المجتمعات بابتكاراتها وتطوراتها عليه من تجارب ونقوش، وتغيير المظاهر بعمليات التجميل وغيرها.

إلا أن ما يشكّل حدثًا مهمًّا في حياة الفرد والجسد هو تعرّض الجسد إلى صدمة الموت، التي تقطّع أوصال علاقته بالحياة، ليذهب الجسد بعد ذلك إلى مكان التحلّل والفناء. وبموت الجسد تموت حياة ذلك الإنسان، وتنقطع صلات وتفاعلات وممارسات كانت موجودة بوجود الجسد المادي له. ولا ينفك الجسد من أنه دائمًا بكل هذه الممارسات يخضع ويُقمع اجتماعيًّا؛ فهو الذي يتحمّل كل السلطات عليه التي تبنيه والتي تعيقه، وهو الذي يمرض، وهو الذي يموت أو يتعرض لتقلبات وصدمات عديدة.

وفي خضم كلامنا هذا نحاول التعرف على كيان الجسد بذاته وأهميته، والذي من خلاله يريد المجتمع نحت ما يريده عليه، والصور التي يظهر بها الجسد من خلال خضوعه لعدة سلطات، ثم الكلام عن الجسد البالي والمرمم، وكيف يموت الجسد ويُقمع اجتماعيًّا؛ لذا فهي قراءة لكيان الجسد وهو يبحر في الحياة البشرية، وموقعه من ظروف وتغيرات الحياة، لرصد الصور التي يكون عليها، والتي أجبرته الحياة المُعاشة على أن يظهر بها أو يتكيف وفقًا لها.





## الفصل الأول

# ملامح الانتباه لأهمية الجسد







رغم بلوغ النوع الإنساني إلى ما يسمى طور العصرية ومراحل الارتقاء ودخوله إلى الألفية الثالثة، ما زال موضوع وكيان الجسد يشكل علامة استفهام وجملة مشفَّرة، لا يمكن دخول تابوهاتها إلا من اهتم بشكلٍ كبير بهذا الشيء الملاصق لذواتنا وشخصياتنا. ولنا معرفة ربما كبيرة بظاهره، لكننا لا نعرف دواخله بشكلٍ منطقي؛ لأننا لسنا أطباء، وحتى الأطباء ليسوا جميعهم جرَّاحين أو متخصصين بكل أنحاء الجسد الذي عندما يُنظر إليه وفق الصورة الطبية يسمى جسمًا.

**فمتى بدأ الاهتمام بالجسد إن كان هناك اهتمام؟**

**وكيف تبلورت هذه الأهمية؟ وعلى ماذا تم التركيز في إظهار صورةٍ حقيقية لأجسادنا؟**

في ضوء ما هو متوافر من معلومات، يظهر لنا أن الاهتمام بالجسد ليس ضاربًا في القدم بشكلٍ كبير جدًّا، حتى وإن تم الاهتمام به قديمًا طبيًّا، لكنه لم يشمل تمظهرات وأهمية العناية في إبراز صور تأثير الجسد على الفرد، والعلاقة الترابطية بينه وبين المجتمع الذي يأخذ ويضيف للجسد، إلا في بعض الإشارات التي جاءت بصورة الاهتمام الثانوي والخلط بين الجسد والجسم.

لقد بدأت ملامح الاهتمام بالجسد من خلال اليونانيين، حيث من الممكن أن نلمس إجلالهم وتقديرهم للجسد من خلال ما أبدعوه من فنون متعددة، تُبيّن كيف كان الجسد مثار إعجاب وتقييم مثالي آنذاك. بعد ذلك جاءت المسيحية التي قدَّست الروح على حساب الجسد، الأمر الذي حصر الأمور والاهتمام بالجسد في بعض العلوم التي اكتفت بالنظر إليه وفق بعده البيولوجي أو التشريحي الصرف، إلا أن تلك المقاربة الدينية التي سادت في القرون الوسطى لم تنف الاهتمام بالجسد في بعده الإيروسي، الذي ظل مختفيًا إلى أن جاء عصر النهضة ليعلن عن وجوده من خلال عدة فنون تمثلت بالنحت والشعر والرسم[1].

---

(1) خلود السباعي، **الجسد الأنثوي وهوية الجندر**، بيروت، جداول للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 24.





أي بدأت محاولات للإشارة إلى الجسد من خلال الاهتمام بإظهارِهِ وفق ما تقتضيه الأوضاع آنذاك لغاياتٍ ومقاصد. على أن هذا الاهتمام لم يكن من خلال العناية فكريًّا بضرورة الاهتمام به، وإنما الإشارة له بشكلٍ بديهي، يتمثل بما يحققه لهم الجسد من مكانة وقيمة في المجتمع، إلى أن انتبهت بعض العلوم لتعالج التفكير بالجسد ليس ككيان يحمل في طياته الكثير من الأمور التي ترتبط بالإنسان، وإنما كآلة تحتاج إلى إدامة وتصليح بعض الأعطاب التي قد تصيبها، دون النظر إلى ما يخفيه الجسد في بواطنه من قيمٍ رمزية تمثل أساس وجود الإنسان.

لقد كان المصريون القدماء أول من اقترب من الجسد ولامسه وساءل هذا الغلاف الإنساني، وذلك من خلال عمليات التحنيط التي كانوا يقومون بها في تحنيط الجسد (الجثة) السوما (Soma) بحسب فرنان، والقصد منه تمجيد للمظهر ومحاولة للاحتفاظ بالجسد بمادته التي تتلف بتحنيطها، وذلك للاستعاضة عن هروب الروح منها[1].

ومن ضمن صور الاهتمام بالجسد تبرز السوسيولوجيا كعلم حاول الغور في الجسد في عدة محاولات انبرى لها رجالاتها من المفكرين، حيث تعد سوسيولوجيا الجسد من الميادين الحديثة نسبيًّا في السوسيولوجيا والعلوم الاجتماعية؛ إذ يحاول هذا الميدان معرفة العلاقة بين الجسد ومؤثرات المجتمع وعوامله المختلفة[2].

ولا يمكن عد هذا الاهتمام بالجسد قديمًا جدًّا، وإنما انبرت أطروحات فكرية تحاول الإشارة للجسد ككيان غامض على بني البشر أنفسهم، يحتاج لكثير من الغور العميق في دواخله ومعرفة أطر هذا الجسد الذي يحوي الإنسان بعلاقاته وتفاعلاته وخبراته، وتناغماته مع الآخرين وكل ما يحيط به في الحياة الإنسانية.

ويمكن القول إن اهتمام علم الاجتماع الكلاسيكي بالجسد ظل ضمنيًّا بدلاً من أن يكون صريحًا، إذ إنه قد ركز على جوانب منتقاة من الجسدية البشرية دون

(1) منى فياض، **فخ الجسد: تجليات نزوات وأسرار**، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، 2000، ص 22.

(2) أنتوني غدنز، **علم الاجتماع** (مع مدخلات عربية)، ترجمة وتقديم: فايز الصياغ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، ط4، 2005، ص 225.





أخرى، من قبيل مثلاً تركيزه على قضايا اللغة والوعي دون الربط بينهما وبين الجسد بحد ذاته[1].

أي إن علم الاجتماع قد نزع أو لم يلحظ أن هذه الجوانب فضلاً عن جوانب كثيرة أخرى هي تخص الجسد الإنساني وذات علاقة مباشرة به، إذ إن عملية الفصل في التركيز على جوانب تتعلق بالجسد دون إرجاعها له، تكون منقوصة وتساهم بتغييب الأصل الذي انطلقت منه تلك الأجزاء والمتمثلة بهذه الجوانب، إذ لا يمكن أن يكون هناك وجود حاضر لهذه الجوانب دون الوحدة الكلية المتمثلة بالجسد والذي أهمل بواقعه هذا.

"لقد كان الجسد غائبًا، بمعنى أن علم الاجتماع نادرًا ما ركز بطريقة ثابتة على الكائن البشري الجسدي، على اعتبار أنه يحوز أهمية بذاته. ولا غرو في ذلك، فقد عُد الجسد عادةً ملكية طبيعية وفردية تقع خارج نطاق اهتمامات ذلك الفرع الاجتماعي المشروعة. والحال إن المنظّرين لم يفهموا الجسد على اعتبار أنه أساسي للفاعل البشري والمشروع السوسيولوجي، إلا حين شرع علم الاجتماع في التشكيك في التمييز بين الطبيعي والاجتماعي، على ذلك يمكن أن نجادل أيضًا بأن الجسد كان حاضرًا في صميم الخيال السوسيولوجي"[2].

إن الاهتمام والنظر إلى الجسد لدراسته لم يحظ بدافعية كثير من العلوم، إلا في بعض الإشارات التي تمس الجسد دون الاعتبار بأنه الأصل في وجود الكثير من الفروع التي تقوم العلوم بتناولها، دون إرجاعها بشكلٍ منطقي للحاضن الأساس وهو الجسد؛ فجاء الاهتمام به مُغيبًا نوعًا ما، إلى أن تم تحديد وضع الجسد ببدايات وإن كانت قاصرة نوعًا ما.

لقد مثل الجسد تقليديًّا حضورًا هامشيًّا في علم الاجتماع؛ وذلك بسبب الثنائيات الديكارتية التي انغرست بشكل عميق في هذا التخصص، بحيث تتضافر كل المقابلات الأساسية عن الرجل/المرأة، العام/الخاص،

---

(1) كرس شلنج، **الجسد والنظرية الاجتماعية**، ترجمة: د. منى البحر ونجيب الحصادي، القاهرة، دار العين للنشر، ط1، 2009، ص 29.

(2) المصدر نفسه، ص 41-42.





والطبيعة/الثقافة، لوضع الجسد بموضعٍ متعارض مع العقلانية التي يحملها العقل[1].

ولما كان علم الاجتماع الكلاسيكي قد تعامل بطريقةٍ غير ملائمة مع كل مترتبات الجسدية البشرية، فإن هذا لا يبرر القول والحكم بأن علم الاجتماع قد تبنى مقاربة لا جسدية كلية في تناول موضوعه، فقد عني كارل ماركس بمسألة استيعاب الجسد في التقنية الرأسمالية، فضلاً عن ذلك كتب جورج سيمل عن الميول الجسدية التي تدفع الناس نحو بعضهم البعض، والعواطف الاجتماعية التي ساهمت في الحفاظ على العلاقات الاجتماعية، مع تقصي آثار اقتصاد المال الضارة على تلك العواطف، وأعمال ماكس فيبر التي أبدت اهتمامًا بعقلنة الجسد، بينما اعتبر إميل دوركهايم الجسد موضع ومصدر الظواهر الدينية التي أسهمت في تماسك الأفراد، وأعمال بورديو التي برزت في هذا المجال[2].

ورغم هذه الإشارات إلى الأهمية التي حظي بها الجسد من قبل المفكرين والعلماء، إلا أنه يمكن القول إن هذه الاهتمامات لم تكن بحتة تخص الجسد بصورة خاصة وما ينتج ويتآلف حوله، وإنما جاءت ربما الإشارة له في خضم التعرض لموضوعات أخرى، وهي في الحقيقة تتطابق كليًّا مع الكيان الأهم وهو الجسد، إلا أن اهتمامهم قد جاء بتناول بعض جوانب هذا الكيان، والبعض الآخر لم يتنبه إلى ترابطها العميق بالجسد الإنساني.

وتطابقًا مع ذلك، فقد "حدد براين ترنر أربعة أسباب لإخفاق علم الاجتماع الكلاسيكي في إنتاج علم اجتماع صريح في الجسد، وهي أسباب قد تتعلق جميعها بمشروع هذا الفرع المعرفي الذي اضطلع به "الآباء المؤسسون":

أولاً: لم يكن بعض علماء الاجتماع من أمثال دوركهايم، وفيبر، وسيمل، ومانهايم، منشغلين بوجه عام بتطور الكائنات البشرية التاريخي، بل بأوجه الشبه بين المجتمعات الرأسمالية الصناعية وبكيفية اختلافها عن المجتمعات التقليدية.

---

(1) هيلين توماس وجميلة أحمد، **الأجساد الثقافية الإثنوغرافيا والنظرية**، ترجمة: أسامة الغزولي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2010، ص 26.

(2) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 29-30.





ثانيًا: نزع علم الاجتماع إلى التركيز على الظروف التي يشترطها النظام أو الضبط أو التغير الاجتماعي في المجتمع. لقد أثارت درجة تركيب الرأسمالية الصناعية اهتمامًا واسعًا بتحقيقها وظائفها التي ركزت على المجتمع بوصفه نظامًا اجتماعيًّا، وكما تبين أعمال سيميل وفيبر، فإن هذا لا يستبعد الانشغال بالأفراد"[1].

ثالثًا: "تمت مماهاة القدرات المشترطة للفعل الإنساني بالوعي والعقل بدلاً من ترويض الجسد ككل، يتضح هذا في طبولوجيا فيبر للفعل الاجتماعي، التي ربطت الفعل الإنساني بالفعل العقلاني المعالج ذهنيًّا.

رابعًا: ثمة نتيجة نظرية لهذه الالتزامات الابستمولوجية والأنطولوجية تعينت في أن علم الاجتماع لم يبد اهتمامًا كبيرًا بالرؤية الأنثروبولوجية في الجسد كنظام تصنيفي. لقد اعتبر العقل عوضًا عن الجسد مستقبل ومنظم تصورات تتعلق وتركن إلى الطبقات الاجتماعية، وكما يلحظ ترنر تتضح هذه المقاربة في صورها الثابتة في التركيز الماركسي على الإيديولوجيا والوعي الزائف والتشيؤ"[2].

إلا أن ذلك لا يعني بقاء الوضع على حاله في الاهتمام بالجسد، وإنما بدأت ملامح الانتباه تبرز بشكلٍ جدي وإن كان بشكلٍ محدود، فتنبه علم الاجتماع بشكل أكثر أهمية لما يعنيه الجسد في حياة الإنسان والجسد الاجتماعي، ودور المجتمع في قولبة ذلك الجسد وجعله مكتسبًا لكثير من الأشياء والأمور التي يفرضها عليه.

وعلى الرغم من أن تلك الإشارات لم تكن بمستوى الطموح وعدت محاولات منقوصة جدًّا، إلا أنها تمثل بدايات مهمة على الأقل في هذا المجال، حيث إنه وإلى حدود الستينيات من القرن العشرين، لم يحظ الجسد باهتمام كبير أو عدّه موضوعًا للمعرفة السوسيولوجية، وله مكانة "الموضوع المحوري الأساسي"، بل على العكس من ذلك كان موضوعًا غامضًا لا يتجاوز مستوى الحضور المضمر الافتراضي في عدة محاور، أو كما يقول جون ميشيل برتلو بأنه "مادة سوسيولوجية ذات خسوفات"[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص 48-49.

(2) المصدر نفسه، ص 49.

(3) د. زينب المعادي، **الجسد الأنثوي وحلم التنمية: قراءة في التصورات عن الجسد الأنثوي بمنطقة الشاوية**، 2004، ص 19.





الأمر الذي يؤكد أن الإشارات للجسد وإن كانت حاضرة سابقًا، لكنها لا تتجاوز التلميح لبعض الخصائص التي انبثقت عنه أو هو من ساهم بوجودها، دون العناية بشكلٍ أكبر لموضوع الجسد ككيان له أبعاد ومختلف الأنماط التي تكوّن حياة الفرد في الحياة البشرية، وذلك ما يظهر لنا حداثة التنبه لضرورة الاهتمام بالجسد كموضوع يحتاج إلى رصد الوقائع المنطقية عنه، وربطها بالعلاقات التبادلية بينه وبين كيان المجتمع، وكيف تتشكل صور الجسد المتنوعة.

وفي ثمانينيات القرن العشرين، بدأت دراسات الجسد تشكل مكانة مهمة ومتميزة في علم الاجتماع أو السوسيولوجيا وفي غيرها من العلوم الاجتماعية والإنسانيات، الأمر الذي أدى إلى تأسيس منطقة بيئية زاهرة لدراسات الجسد وتسريع عملية إعادة بناء النظم المعرفية - الأساسية والفرعية، التي تعمل على تحليل أكثر ملاءمة للطبيعة الجسدية والنتائج المتعلقة بها؛ مما ساهم بشكلٍ أكبر في تعرض النظرية الاجتماعية إلى تحولات كبرى في الاهتمام[1].

فبعد أن كان علم الاجتماع يميل إلى التركيز على الأفكار والعقل وأسباب السلوكيات، أصبح يهتم بالجسد ذاته وما يفرزه ويكون عليه بتأثير المجتمع[2].

ورغم بدايات الاهتمام هذه إلا أنه من غير المنطق عد هذه البدايات هي نوعية في أصالتها، وإنما كانت محاولات لكشف الغموض عن هذا الكيان بما يحويه، والدليل على ذلك أنه مازال الجسد حتى الآن يحتاج إلى دراسات أعمق، من الممكن أن تميط اللثام عن متاهات كثيرة يعتريها هذا الكيان، إذا بدأت بالاهتمام بالجسد كوحدة أو كيان خاص، وليس الإشارة له من ضمن جوانب أخرى قد تعد فرعية من الجسد. لكن على الرغم من هذه البوادر البسيطة تبقى هذه الدراسات

---

(1) حسني إبراهيم عبد العظيم، "الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو"، مجلة **إضافات**، العدد الخامس عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، ص 67.

(2) Steve Bruce and Steven Yearley, The Sage Dictionary Of Sociology, Sage publications Ltd, London, 2006. p. 22.





هي الأساس المعرفي الأول لانطلاق البحث في شؤون الجسد وعلاقاتها الجدلية مع المجتمع.

ولعل قدر الاهتمام الأكاديمي بالجسد قد تنامى في الفترات الأخيرة، إذ برز علم اجتماع الجسد مجالاً متميزًا للدراسة، في حين صدرت مجلة جديدة عام 1995 تسمى *(Body & Society)*، حيث اقترح أن يوظف الجسد مبدأً منظمًا لعلم الاجتماع، الأمر الذي دعا براين ترنر إلى استحداث مصطلح "المجتمع الجسدي"، ليصف كيف أن الجسد قد أصبح المجال الرئيس للنشاط السياسي والاجتماعي في الأنظمة الاجتماعية[1]، من خلال الانتباه إلى أهمية الجسد كمحرّك في الحياة البشرية، وما هي الصورة التي يظهر بها من خلال كونه الباعث الرئيس لإدامة الحياة وجميع نشاطاتها وأعمالها الرئيسة، التي يقوم بها الجسد الإنساني وتعتمد بشكل كبير جدًّا عليه.

لذلك يمكن أن نعتبر القرن العشرين بمثابة "قرن الجسد" أو "زمن البيولوجيا"، على اعتبار أن أهم الاكتشافات والتحولات التي ظهرت فيه تعلقت بالجسد، إلى الحد الذي بلغت تغيير في مجالات وأطر الطبيعة الجسدية[2].

ويمكن أن نرى النظرة إلى الجسد في عموم البيولوجيا دون سلخ هذا الكيان، والنظرة له كمحرّك فعّال له أساساته الخاصة، وهذه هي الصورة التي بدأ بها القرن العشرون بنظرةٍ عامة للبيولوجيا وبضمنها الجسد في بعض الإشارات له.

ومن المؤكد أن الغور في شؤون الجسم طبيًّا وبيولوجيًّا لابد أن يفتح المجال واسعًا، ويشحذ الإدراك للانتباه إلى ضرورة عزل الجسد ككيان عن الجسم ومعالجته اجتماعيًّا، ومعرفة كيف يظهر الجسد في خضم تغييرات وتحولات المجتمع.

"ومن أهم دراسات هذه المرحلة عن سوسيولوجيا الجسد أعمال "أرفنج جوفمان" و"ماري دوجلاس" التي شغلت حقبة الستينيات، وأيضًا أعمال "ميرلوبونتي" التي ترجمت في تلك الفترة، ثم إسهامات "ميشيل فوكو" التي امتدت

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 19-20.

(2) د. يوسف تبس، "تطور مفهوم الجسد: من التأمل الفلسفي إلى التصور العلمي"، مجلة **عالم الفكر**، العدد 4، المجلد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009، ص 36.





حتى منتصف الثمانينيات تقريبًا، و"بيير بورديو" التي امتدت حتى بداية القرن الحادي والعشرين"[1].

ويمكن أن تكون الفترة الممتدة بين الستينيات إلى الثمانينيات من القرن العشرين وما تلاها، هي اللبنات الأولى للاهتمام بالجسد كموضوع بمعزل عن موضوعات الطب والبيولوجيا، من خلال تناوله في ضوء مؤثرات المجتمع في الجسد وانعكاسات الجسد في صوغ الحياة البشرية.

مع ذلك يمكن القول إن الجسد ظل حاضرًا وغائبًا في علم الاجتماع، حيث يتمثل حضوره من خلال أن ذات موضوع علم الاجتماع متجسد ومُشكَّل من قبل فرص وقيود لكوننا أجسادًا. ومع أن علم الاجتماع ظل إلى وقت متأخر لا يركز إلا نادرًا على الجسد، إلا أنه قد تقصى جوانب من الجسدية ومترتباته، من قبيل مثلاً أن علم اجتماع الصحة معني بإعداد تقويمات تتعلق بالجسد، وأيضًا شأنها في ذلك شأن دراسات تعرضت للوعي والمعرفة والإيديولوجيا، إذ إن كل هذه الموضوعات المتعلقة بالجسد نادرًا ما تعرضت للفحص[2].

الأمر الذي يوضح ضبابية وعدم وضوح الإشارات إلى الجسد بشكل يميزه عن كثير من الموضوعات، فإن تم التعرض للجسد فقد يكون بدمجه ضمن جوانب أخرى، لا يتم إرجاعها بشكلٍ مباشر إلى أهمية وجود الجسد وما يقوم عليه.

ولعل من بين الذين ساهموا في الإشارة لمفهوم الجسد وطرحه كمادة خصبة تستحق البحث "ميشيل فوكو"، الذي يُعد أحد مؤسسي سوسيولوجيا الجسد. وتبرز أهمية "فوكو" في أنه أعاد الجسد مرة أخرى إلى قلب علم الاجتماع، بعد أن تمت الإطاحة به من قبل ديكارت منذ القرن السابع عشر خارج دائرة العلوم الإنسانية والفلسفية واهتماماتها[3].

---

(1) حسني إبراهيم عبد العظيم، "تطور الانشغال السوسيولوجي بالجسد"، ج3، مقال منشور في موقع **الحوار المتمدن** على شبكة الإنترنت:

www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=256629.

(2) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 46.

(3) حسني إبراهيم عبد العظيم، "ميشيل فوكو وتأسيس سوسيولوجيا الجسد"، مقال منشور في موقع **الحوار المتمدن**، على شبكة الإنترنت:

*www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=257661*





ورغم ذلك لم يحظ الجسد بأهمية كبيرة في السوسيولوجيا، فما زال إلى الآن ذلك الكيان الذي تُثار حوله كثير من الطروحات والأسئلة السوسيولوجية الغامضة، التي تحاول أن تؤسس لسوسيولوجيا الجسد بصورةٍ أكثر ارتكازًا على معطيات مهدت لظهورها أفكار وتعليلات كثير من المفكرين.

وعدّت أعمال فوكو المقاربة البنائية الأكثر تأثيرًا وتطرّفًا، وهي تتجاوز كثيرًا اعتبار الجسد مستقبلاً للدلالات الاجتماعية؛ فالجسد عند فوكو لا يحصل على دلالات عبر الخطاب، وإنما هو مُشكّل كليةً عبر هذا الخطاب، وعمليًّا يتلاشى الجسد ككيان بيولوجي، ويصبح نتاجًا مشكلاً اجتماعيًّا طيعًا بدرجة غير محدودة أو مستقر بدقةٍ عالية[1].

أما تأريخ الفلسفة حسب "نيتشه" (Neitche)، فقد بات تأريخ اختبار للجسد وعدم الاكتراث بما يحيل عليه، الأمر الذي جعل الخطاب الجينالوجي يحاول الوصول إلى الجسد والغور في دواخله، والعمل على إيجاد صور التحليل التي تعمل على الحد من نشاطه وتطوراته[2].

"أما أرسطو فقد اعتبر الجسد موضوعًا فيزيائيًّا يمكن تعقّله، ومن ثم فهو قابل للدراسة العلمية، لذا حاول تصنيفه وفق وظائفه وأجزائه معتمدًا النظرية الذرية لديموقريطس. إن الجسد وفق أرسطو جوهر محسوس له صوره، تتجذر فيه الحركة التي تمثل الانتقال من الضد إلى الضد، كالانتقال من البارد إلى الحار أو العكس، وهذه الخصائص لا تسري على الجسم الحي وحده، بل تتعداه إلى كل الأجسام سواء السماوية أو الأرضية، سواء كانت حية أو جامدة، هذا وإن اختلفت أنواع حركتها"[3].

ولنا أن نرى اختلاف التصورات والطروحات حول رؤية الجسد من قبل أهل الفكر والعلم، فكل مدرسة أو اتجاه يفسر كينونة وصورة الجسد وفق تأملاتها

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 109 -110.

(2) بحاج عسو، الجسد بين اللغة وآليات الضبط والاخضاع، مقال منشور على شبكة الإنترنت: *www.aljabriabed.net/n83_03assou.(1).htm.*

(3) د. يوسف تيبس، مصدر سابق، ص 41.





وتحليلاتها الخاصة بها، فمنهم من يدمج بينه وبين الجسم كوحدة متلازمة لا يمكن انفصالها، والآخر يميزه عن الجسم ويبين خصائص ملازمة له قد تختلف عن غيرها.

وحقيقة الأمر فذلك أمر صحي، إذا دل على شيء فهو محاولات لتأسيس رؤية واضحة نحو سوسيولوجيا الجسد العميقة، وليست الرؤية التي تخلط فيما بين الأمور ويظل الجسد كمفهوم وكيان غامض.

وبذلك تتراوح التصورات الفلسفية للجسد بين النزعات العقلانية والظاهراتية والمادية بجميع مشاربها، مثلاً التصورات حول العلاقة الثنائية بين الفكر والجسد (ديكارت)، أو النظر إلى ما يقدر أن يفعله الجسد أو ما لا يقدر عليه من جهة (سبينوزا، شوبنهاور، نيتشه، فرويد)، أو العبور على ثنائية الجسد والفكر من جهة (ادموند هوسرل، وميرلوبونتي، وميشال هنري)، في حين أن التصور العلمي يركز على الجانب الفيزيائي والكيميائي والبيولوجي كأساس يستند عليه في تصوراته[1].

ونحن ننتظر تطورات الدراسات حول الجسد التي قد تفصح لنا عن تصورات فلسفية وسوسيولوجية وحتى أنثروبولوجية أخرى، تتنامى حول سبر غور هذا الكيان الذي بات يشكل لدينا خوفًا ورعبًا من أسرارِه، وكيفية تناغم تحولاته في المجتمع وتحولات ذلك المجتمع على آثاره.

ومن ضمن اهتمامات أفلاطون الجسد، فهو يتكون عنده من ثلاث مناطق: تمثل الأولى الرأس الذي هو محل الروح والعقل، والثانية هي الصدر محل الشجاعة (القلب والتنفس)، والثالثة المعدة التي تمثل محل الرغبات والاندفاع (النفس العاقلة والنفس الغائية والنفس الغضبية)[2].

ويكاد "بيير بورديو" أن يُعد استثناءً لقاعدة "تيرنر" التي جادل فيها بأن علماء الاجتماع لم يهتموا كثيرًا بالجسد بوصفه نسقًا تنظيميًّا، فـ "بورديو" عد الجسد حاملاً لقيمة رمزية تدمج في تحليلٍ للجسد كظاهرة مادية تتشكل وتُشكل من قبل المجتمع، وبرزت لديه مقاربات نظرية مهمة في الجسد والتصورات حوله[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص 34.

(2) المصدر نفسه، ص 40.

(3) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 107-108.





ولعل علم الاجتماع هو ما ينبغي عليه أن يخوض في رموز الجسد وتأويلاتها على المجتمع، وعلى ذات الفرد صاحب الجسد نفسه، وعلى عقليته وكيفية تمحور الجسد في خضم قواعد الحياة وتشكّله وأسس هذا التشكّل وصوره. ويمكن أن تترك السوسيولوجيا مجالات من قبيل مثلاً الطب والبيولوجيا لحقول أخرى، وتركز على النحت الاجتماعي للجسد من خلال ما يصوغه المجتمع من صور تحتمها طبيعة وعادات وثقافات المجتمعات على الجسد أن يتقمصها ويتمثل بها.

لقد بات الجسد الإنساني يُنظر له على أنه مُنتَج من قبل المجتمع، وذلك قد ساهم بشكلٍ كبير في اقتصاد الحياة الحديث والجديد، إذ دخلت تغييرات في كيان الجسد من صحة وتعليم وإعادة صياغة من جديد[1].

ومن ضمن ما قدمه "بيير بورديو" في سياق تحليلاته للمفاهيم الجديدة لعلم الاجتماع، مثل الممارسة (practice) والهابيتوس (Habitas) والأشكال المختلفة لرأس المال (كرأس المال الرمزي والاجتماعي والثقافي)؛ أسهم إسهامًا فعالاً في ظهور علم اجتماع الجسد[2]، في سياق كلامه عن ما يعتري الجسد من تغييرات من خلال الغور في أعماق الأنساق الثقافية والاجتماعية، والتي تختلف الأجساد على غرارها وفق طبيعة وسياقات المجتمعات المختلفة، ولعل هذا الكيان الصامت الذي بدأ الانشغال به يحتاج إلى انشغالٍ أكبر لكسر حدة الجمود الذي يعتريه ويكاد يقضي عليه.

"لقد أعلن "جون بودريار" أن الجسد أجمل مواضيع استهلاكنا، ولهذا ارتبط الاقتصاد المعاصر بالجسد (مثلاً الموضة)، بقدر ما يشيع الطابع الديمقراطي في المجتمع بقدر ما يصبح الجسد موضوع استهلاك للعامة"[3].

ولنا في ما يحرّكه الجسد في شؤون المجتمع مجالات أخرى، إذ استُخدم الجسد في سياقات المركز والنفوذ والقوة والسلطة والسياسة والاقتصاد والرياضة والفنون، حيث يبرز الجسد كحضور مادي، ومن ثم يتبعه الحضور المعنوي لذات الشخص.

---

(1) Bryan S. Turner, The Cambridge Dictionary Of Sociology, Cambridge University Press, USA, 1ed, 2006, p. 42 .

(2) حسني إبراهيم، "تطور الانشغال السوسيولوجي بالجسد"، ج3، مصدر سابق.

(3) د. يوسف تيبس، مصدر سابق، ص 37.





لقد بات الجسد بعد انتهاء القرن العشرين مفتاحًا مهمًّا يتخلل الكثير من العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وفي الطب والعمل والاستهلاك والعمل الأدبي[1].

وفي الحديث عن الاستهلاك فالجسد في مجال الموضة هو المحرّك الأساس من خلال ارتباطه بموديلات الملابس، وما يحتاجه الجسد من كماليات وصنوف الاستهلاكات الأخرى، وهنا قد نستهلك إما لمجال بيولوجي لأغراض تلبية احتياجات الإنسان من مأكل ومشرب، أو نستهلك لمجال اجتماعي لنسير وفق سياقات المجتمع وعاداته من ملابس واقتناء بيوت وركوب سيارات، وتزيين الجسد، أو لمجال صحي كتطبيب الجسد وشراء عقاقيره، أو لعرض مفاتن الجسد رياضيًّا، الأمر الذي جعل الجسد هو الشغل الشاغل لدينا في كل حياتنا، دون أن نشعر بدقة بأهمية ما يعكسه هذا الكيان من مؤثرات وعلاقات تبادلية بين الفرد ذاته صاحب الجسد والآخرين في المجتمع.

حتى إن "سيجموند فرويد" رغم أنه لم يكن عالمًا أو متخصصًا في السوسيولوجيا، إلا أنه أشار إلى ضرورة الاهتمام بالجسد كمادة تصنّعها وتنتجها العلاقات الاجتماعية، ويساهم تاريخ وثقافة الفرد في تشكيلها[2]. فاليوم يتشكل الجسد وفق بناء علاقاتي وثقافي يُحتّم عليه السير وفق هذه القياسات الموضوعة من قبل المجتمع، وكل جسد يُصب قالبًا وفق البيئة التي ينشأ فيها ويتأقلم وفق عاداتها.

وعلى الرغم من كل ذلك، ما زال الجسد إلى اليوم ذا طابع ملتبس وإشكالي، وإن تحرر بعض الشيء من قوانين وأسر التشريع، خصوصًا في ميادين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتحليل النفسي والفلسفة، والتي لم تنغرس بعد في التربة العربية الإسلامية[3]، وإن كانت موجودة بعض الشيء فالجسد يأخذ درجة واهتمامًا ثانويًّا مدمجًا مع العناية بجسم الإنسان، ووفق تصورات بيولوجية بحتة، الأمر الذي يضع

---

(1) Philip Hancock and others, The Body, culture and Society: An Introduction, Open University Press, Bidd / es Ltd, British, 2000, p. 1.

(2) د. زينب المعادي، مصدر سابق، ص 20.

(3) فضيل ناصري، "قراءة في كتاب: الجسد والصورة والمقدس في الإسلام"، مجلة **إضافات**، العدد السادس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 164.





الجسد في صورة إشكالية غير مفهومة بعض الشيء، وتحتاج إلى فرزٍ دقيق يكون الغرض منه معرفة ما يعتري الجسد من تغييرات، وما يُلحقه ذلك الجسد من تحولات في هيكلية وصور المجتمع المتعددة.

ولما كان هناك اهتمام قد بدأ جديًّا نوعًا ما بالجسد ومفاهيمه، إلا أن الكثير من المفكرين يرون أن الاهتمام المعاصر بالجسد بات موضوعًا تافهًا، وهو عبارة عن فراغ ومظهر أجوف، متناسين أن الجسد كان دائمًا نقطة التقاء الشخص بالعالم وبالآخر[1]. ولا يمكن أن يكون الجسد بهذه الصورة من التفاهة، فلولا الجسد لما تمكنا من نقل مشاعرنا وأحاسيسنا عبر أدواته المختلفة والمتمثلة بأعضائهِ إلى الآخرين الذين يملكون نفس الشيء، ولولاه لأصبحنا عالـمًا تحوم فيه فقط الأرواح المعنوية دون الأجساد التي تمثل واقعًا موضوعيًّا ماديًّا، فالجسد هو مرآة الذات البشرية للإطلالة على العالم بما فيه من تحولات وتغييرات وكائنات.

ولعل قصور الوعي هو ما جعل الاهتمام بكيان الجسد ذا منزلة متأخرة إلى الآن، والذي بالتأكيد يحتاج إلى انطلاقة حقيقية لتوسيع قاعدة الوعي بالجسد كحاجة ملحة للفرد للبقاء في مادية الحياة، والسير وفق تعاملاتها وقواعدها المختلفة.

"لقد دعا العديد من الفلاسفة والمفكرين وعلماء التشريح الطبي إلى العمل على تحرير الجسد الآدمي، وتجريده من عوالق القواعد المثالية التي تحجب الطاقة الانثيالية فيه، وكان أشد المغالين في الدفاع عن ملكة الجسد ورفعته وتحرره "فردريك نيتشه" في قوله: "إنني بأسري جسد لا غير، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد"[2].

ومن ضمن كل هذه الأهمية والعناية والتي وإن لم تكن بمستوى الطموح في مجال الجسد، إلا أنه يمكن القول إنها بدايات جيدة قادرة على النزول عمقًا لمعرفة أسرار هذا الكيان، وما يفعله في المجتمع وللفرد، عندها سيجد الإنسان أنه قد أهمل شيئًا

---

(1) د. يوسف تبس، مصدر سابق، ص 34.

(2) منير الحافظ، **الوعي الجسدي: الإشارات الجمالية في طقوس الخلاص الجسدي**، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2012، ص 62.





خطرًا جدًّا في معانيه على الرغم من ملاصقته بل هو الجسد ذاته، واستبعده عن تحليله وتفسيره.

فعلم اجتماع الجسد بات يجمع ويستقطب عددًا كبيرًا من المجالات من بينها مثلاً آثار التغيير الاجتماعي على الجسد البشري، إذ إن ما يحدث في الحياة من تغيرات وتحولات تترك آثارها الكبيرة في الجسد والصحة[1]، وعلى أساسها يتشكل الجسد. وقد يظهر بعدة صور من حالةٍ إلى أخرى وفق تقلبات ومراحل الحياة، فالذات البشرية لا تتعرض معنويًّا للمرض، وإنما ما يحوي هذه الذات في قالب بشري ألا وهو الجسد، وعلى أثر المرض والحوادث والتغيرات والتطورات الجسدية يتحول الجسد من صورةٍ إلى أخرى، وبدوره يساهم الجسد أيضًا في تغيير الحياة الاجتماعية من خلال ما يدفعه ويعمله في التغيير والبناء والحروب وغيرها.

لذا فموضوع الجسد بات اليوم من الضرورات الملحة التي ينبغي أن لا يقتصر الاهتمام فيها في مجال الصحة والبيولوجيا، وإنما قراءتها سوسيولوجيًّا وأنثروبولوجيًّا ووفق الكثير من العلوم، لمعرفة أصول وقواعد القوالب الجسدية التي تنشأ في المجتمعات، وطبيعة العلاقة بين تغيرات الجسد وتغيرات المجتمع.

ورغم كل هذه الاهتمامات في حقل الجسد ورؤيته، وخصوصًا في مجال سوسيولوجيا الجسد، إلا أنه يمكن الإشارة إلى أن هذه الاهتمامات تحتاج إلى صياغة أفضل بعناوين أكثر دقة وتتبعًا، دون الاعتماد على سطحية بعض الأفكار التي طرحت في الجسد، فاليوم يعني الجسد الوجود الفعلي والمادي على سطح الكرة الأرضية، وبدونه ينعدم ذلك الوجود ويدخل في عالم اللا مرئيات أو الغيبيات واللا محسوس.

إننا بحاجة إلى أن نولي اهتمامًا يختلف عن الاهتمام الذي يتعلق بمظهرية الجسد وتطبيبه وتزيينه فقط، وإنما النظر له ككيان يحمل في طياته الكثير من التأويلات والمعاني، لذا فنحن بحاجة إلى وعيٍ جديد بالجسد، ينقلنا من النظرة القاصرة له إلى النظرة التي تؤسس لبناء كيان ربما قد تم التعامل معه على أنه آخر منسي ومبهم وغير معتد به.

---

(1) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص 225.





وقد لا يغرّنا ما وصل إليه العالم اليوم من تطورٍ وتقنية قد حوَّلت الحياة إلى أنماط وأشكال مختلفة عن سابقتها، وبالتالي قد نال الجسد الجزء الأكبر من هذا التحوّل، إلا أنه لا يمكن قياس التطور الذي يحدث بتطور القيمة الخاصة بالجسد، بل ربما قد ارتبط التطور في الكثير من حالاته بجوانب استغلال الجسد وسوقهِ إلى ما يبتغي التقدم وهذه التقنية، الأمر الذي قد رفع من شأن الجسد من جهةٍ وأحط منه من جهةٍ أخرى.

ونحن نعلم أن التكنولوجيا بأنواعها ساهمت بشكلٍ نوعي في تحسين صورة الجسد وتطبيبه، لكنها من جهة أخرى ساهمت في مسخ هوية الجسد، والتصرف معه كأنه آلة يتم صوغها وفق ما يشاء العالم، وذلك بحد ذاته لا يُعد اهتمامًا بالجسد بقدر ما هو تهميش له وإلغاء لوجوده.

ولما كان الجسد فينا ونحن فيه وهو وسيلتنا لمعرفة العالم، لذا ينبغي أن نوليه اهتمامًا من كافة النواحي، ليس فقط طبيًّا وصحيًّا وهو أمر مفروغ منه، وإنما إشباعه بحثًا علميًّا دقيقًا وسوسيولوجيًّا، فما أجسادنا اليوم إلا عبارة عن قوالب قد نحتها المجتمع الذي نعيش فيه بعاداته وتقاليده وقوانينه وتغيراته وتقلباته وأزماته. ورغم كون هذا القالب هو كيان أصم، إلا أنه يتشكّل ويتكلم صوريًّا ومظهريًّا من خلال تفاعلاتنا الذاتية التي نحركها بإراداتنا وحواسنا، ونجعل الجسد أداة لترجمة كل هذه الأشياء، **وبذلك هل يبقى مبرر واحد ممكن أن يذهب إلى ضرورة عدم الاهتمام بالجسد، والتنقيب عن كل خفاياه وما يغور في بواطنه؟**







# الفَصْـل الثـَاني

# ما هو الجسد؟







وبما أننا لا نزال دون مستوى الاهتمام الذي بدأ يتزايد بمفهوم وصور الجسد، لذا بات لزامًا أن نتعرف على هذا الكيان الصامت الذي يمثلنا بما ندرك ونشعر ونريد، ونزيح الستار عنه ونتعرف على غوامضهِ وأسراره، ودينامياته وانعكاساته على الذات بتأثير تغييرات الحياة والمجتمع.

## فما هو الجسد؟ وما هي الصور التي يُنظر بها؟

يمكن القول: "إن مفاهيمنا الحالية حول الجسد ترتبط بصعود الفردية كبنية اجتماعية، وبانبثاق فكر عقلاني ووضعي وعلماني حول الطبقة، وبتراجع تدريجي في التقاليد الشعبية المحلية. كما ترتبط أيضًا بتأريخ الطب الذي يجسد في مجتمعاتنا معرفة رسمية بشكلٍ ما حول الجسد. إن أوضاعًا اجتماعية وثقافية خاصة هي التي سمحت بولادته. لقد سعينا لوضع تأريخ للحاضر من خلال غرس الأوتاد التي بدت لنا أنها الأكثر دلالة في بلورة مفهوم الجسد ووضعه الحالي. إنه نوع من علم سلالة الجسد الحديث مع الأزمنة القوية لفيسال (vesale) والفلسفة الميكانيكية"[1]، ومن ذلك لابد من تحديد الخانة التي يظهر فيها الجسد ككيان مستقل لمعرفة حدوده وتميزه عن الكيانات الأخرى.

فالجسد البشري لا يمثل كيانًا فيزيقيًا ماديًا يعيش في فراغ أو خارج مؤثرات الحياة، وعلاقات وتفاعلات الإنسان مع السياق الاجتماعي، ومنظومة التجارب والبيئات النفسية والروحية والاجتماعية، بل هو رقم مهم في معادلة الحياة، وركن أساس في ديمومتها. من ذلك بدأ علماء الاجتماع يتنبهون إلى أهمية العلاقة بين الجسد والحياة الاجتماعية القائمة[2]، لدور الجسد الكبير في إثبات وجود الحياة

(1) دافيد لوبروتون، **أنثروبولوجيا الجسد والحداثة**، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1993، ص 6.

(2) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص 225.





بشكلٍ مادي، فاليوم لا يُنظر للجسد على أنه بمثابة آلة يحركها الإنسان بذاته وإراداته وتفكيره، أو قالب أو سجن يحبس الروح في داخله، وإنما هو الحيز المهم لإطلالتنا على العالم، والذي بدونه لا يمكن مواصلة رؤية العالم بمنظار الإنسان وحياته المادية.

لقد اعتبرت السوسيولوجيا الجسد البشري علامة داخل نسق رمزي معين، يشير إلى انتمائه لوضع أو نموذج اجتماعي معين، مؤدية بذلك إلى تسليط الضوء على جوانب متعددة من الجسد، تبرز انبهاره بالتنظيم الاجتماعي وخضوعه للإيديولوجيا المهيمنة الهادفة للإنتاج وإعادة الإنتاج، فضلاً عن ذلك اهتمت السوسيولوجيا بأوضاع تتعلق بالجسد، من قبيل مثلاً أشكال الخطاب والطقوس وطرق الأكل والشرب والاغتسال والجلوس والتحية، وغيرها من الحركات التي تميز انتماءنا الاجتماعي والإثني، الأمر الذي جعل الجسد في ظل السوسيولوجيا مزيجًا من العلاقات والرموز والتنظيمات والأساطير وغيرها[1].

أي بدأت وجهات أخرى في تعريف الجسد والاهتمام به من قبل السوسيولوجيا، والتي من المفترض أن تشير إلى أبرز الجوانب المتعلقة بالجسد، والتي ترتبط ارتباطًا كبيرًا جدًّا بمجمل حياة ووجود ذلك الجسد في الحياة، وما هي التحولات والتطورات التي يمر بها في ظل الحياة وبصبغة سوسيولوجية.

"وتنبهنا الدراسات الأنثروبولوجية إلى أن الجسد قد مثَّل منذ القدم ذلك الشيء المُزيَّن والمقنَّع، والمتغير بتغير المجتمعات والثقافات، فهو الرمز الذي يستعمله كل مجتمع على حدة لكي يتحدث عن استيهاماته، عبر سيرورة يعلن من خلالها مختلف الوسائل التي يستثمرها فيه، ولعل ذلك ما أدى بالبعض إلى اعتبار الجسد بمنزلة ترميز متميز، يتحول فيه الإنسان من مجرد كائن حي ذي غرائز عنيفة إلى كائن قادر على أن يتكلم على العالم وعلى ذاته"[2]. حيث يشير هذا الوصف إلى اتجاهات العلوم في النظر إلى الجسد، وكيفية نضوج الجسد في ظل المجتمع الذي يعيش فيه وسط عدة ثقافات، والتي على أساسها يتشكل الجسد وفق تلك الثقافات، ويساهم في بلورة أشكال جديدة تبقى كمخزون قيمي وإرثي في المجتمع.

---

(1) خلود السباعي، مصدر سابق، ص 29.

(2) المصدر نفسه، ص 12.





لقد عمدت "ماري دوجلاس" في كتابها *(Natural Symbol)* إلى تطوير مفهوم في الجسد ترى فيه مُستقبلاً للدلالات الاجتماعية ورمزًا للمجتمع، حيث تجادل بأن الجسد البشري هو الصورة الأكثر جاهزية للنظام الاجتماعي، وتقترح عدة أفكار حول الجسد وأفكار المجتمع[1].

لعل الجسد كان يُعد إلى الأمس القريب مصدرًا للشر وسجنًا للنفس، ولاسيما في سياق سقراط وأفلاطون، الأمر الذي أدى إلى سيادة هذا المفهوم للجسد في الفكر الغربي بتأثير الفكر الأفلاطوني الكبير الذي خلَّفه في الفكر المسيحي[2]، أي ظهر الجسد بالمفهوم الذي يشير إلى أنه من يجلب الشر علاوة على تمثيله كسجن للنفس، وذلك ما أثَّر بشكلٍ كبير في الإيديولوجية السائدة آنذاك وفق المعطيات المطروحة حول الجسد بهذه الصورة.

أيضًا "هل الجسد عبارة عن ذلك "الجسم" الديكارتي، أو الجثة الخاضعة للتجارب العلمية مع كلود برنار، والذي لا يُفهم فيه الجسد إلا باعتباره جسمًا "آلة" مثل الأجسام المحيطة به، لذلك لن يكون هذا التعريف الأول مجديًا لمفهوم الجسد؛ لأنه مقتصر على "الجسد-الموضوع"، غاضًّا الطرف عن "الجسد-الذات"، وهو ما يمكن أن نحدده مع الفينومينولوجيا المرلوبونتية التي رفعت الحصار عن الجسد، وأنهت الخطاب المهمش له. فالجسد هو الوحدة بين الروح والجسم بين "الجسد-الموضوع" و"الجسد-الذات"، وهو وحدة النفسي بالجسدي"[3]. وفي ذلك تحديد وتمييز لوجهات النظر التي طُرحت حول الجسد بين تشبيهه بالآلة، بالاعتماد على الموضوع واللجوء إلى الذات، التي يمكن أن تكون قد ميزت الجسد بصورةٍ أوضح، وأعطته دلالات خاصة.

إننا موجودون بالجسد ونوجد بالعالم عن طريقه، وهو له بعد تكويني نختبره من

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 106.

(2) جوزيف معلوف، مفهوم الجسد في فكر موريس ميرلوبونتي، مجلة **المحجة**، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011، ص 97.

(3) سمية بيدوع، **فلسفة الجسد**، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص 5.





خلال احتكاكه بالعالم، وبعد أداتي نختبر العالم بواسطته، فهو الكيان الذي تظهر فيه كل رغباتنا وأحاسيسنا وتنوجد فيه[1].

لقد أكدت الظاهراتية في القرن العشرين حقيقة، وهي أننا نمثل أجسادنا، ونحن موضوعات مُجسَّدة، ولا نستطيع الهروب من منظور العالم الذي يكون موجودًا فقط من خلال أجسادنا (وإعلان أحاسيسها). وهذا المنظور هو مهم للتذكير؛ لأنه كما يُستخدم الجسد في الاتصال (وكما أن التطورات التقنية والتكنولوجية ترتبط معه)، لذلك فنحن نميل أكثر وأكثر لفهمه كأداة بسيطة في إرادة الوعي / الروح والأنا[2].

وحقيقة الأمر أننا لا نبصر الحياة ولا نسير فيها بتنظيم أمورنا، وخلق هذه التكوينات الخاصة بنا كبشر، ولا نُعبّر عن آرائنا ورغباتنا وامتعاضنا وطموحاتنا ونظرتنا إلى كيفية الاستفادة من الماضي، واللحاق بالمستقبل بصورةٍ مزدهرة وغير ضبابية وغيرها، حيث إن كل هذ الأمور لا نستطيع أن نشعر بها أو نعي وجودها إلا من خلال الجسد الذي جعلنا نشعر بما حولنا، وخلق لنا انطباعات لما تؤول له الأمور. وكذلك لا يستطيع العالم أن يسبغ علينا أي مؤثرات دون وجود مُستقبِل لتلك المؤثرات والمتمثلة بالجسد، فتصبح العملية تبادلية بين الجسد والمحيط الذي يعيش فيه.

وفي نظر "فوكو" يمثل مفهوم الجسد قطب الرحى؛ إذ إنه يحمل دلالة كيفية العيش وأسلوب الحياة وفق جهتين: الأولى ترتبط بوظائفه الأساسية باعتباره آلة أو محرِّكًا أو حركة. ومن الجهة الثانية باعتباره يمثل الوظائف العضوية الخاصة بالإنسان[3]. لا، بل إن جسد الإنسان يمثل كل شيء له، وهو مكمل للوجود الذاتي

---

(1) وجيه قانصو، الجسد في الفلسفة الوجودية، مجلة **المحجة**، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011، ص 89.

(2) Alina Maria Hrişcă, "The Silent Language" of an Artificial Body, Acta Universitatis Danubius. Communicatio, Vol 6, No 1 (2012): .journals.univ-danubius.ro/index.php/.../article/.../1366

(3) معزوز عبد العالي، فوكو وميكروفيزياء السلطة، مقال منشور في مجلة **مدارات فلسفية**، العدد 13، على شبكة الإنترنت:

www.alfalsafa.com/**foucault**%20wa%20microfizia%20assoulta.html.





للفرد، إذ بدون الجسد ينتفي الوجود المادي الخاص بالحياة، وهو محرّك ودافع قوي لتسيير أمور ذلك الفرد، ودون هذه الحركة والقوة يفشل الفرد في مسايرة الحياة، ويصبح مُعاقًا في جسدهِ الذي يمثل بالنسبة له بمثابة الوسيط الفعَّال جدًّا لإدراك الحياة والعيش فيها.

ولعل جسد الإنسان هو الحيز الذي تتقاطع فيه وحوله ممارساته ومعارفه وحلوله وعلومه. وتتبع تأريخ الجسد من الممكن أن يفصح عن علم مادي أركيولوجي النشأة للمعرفة والسلطة وتمفصلاتها المعقدة والمختلفة[1]، من حيث إن كل هذه الأحداث قد لاقت الجسد البشري واحتفظ بذاكرته لمنسوب هائل من المعلومات، حول ما جرى ودار في الحياة وما تعرض له، فالجسد عبارة عن حفريات السنين بمؤثراتها وتفاعلاتها وعلاقاتها وتمظهرات الثقافات وسوقها للجسد للانصياع والخضوع لها.

"إن الجسد ساحة لتسجيل الحوادث (أما اللغة والعلامات والأفكار فتذيب الحوادث وتبددها). إنه المكان الذي تفكك فيه الأنا (الأنا التي تحاول أن تمنحه شعورًا زائفًا بوحدةٍ جوهرية). إنه حجم يخضع أبدًا لتفتيت مستديم والجينالوجيا باعتبارها تحليلاً للمصدر تجد نفسها في حال تلاحم مع الجسد والتاريخ، عليها أن تبين أن الجسد ينقشه التاريخ ويخربه التاريخ"[2].

لعل الجغرافيا أوجدت الجسد بصورٍ مختلفة، كل صورة تشكَّلت وفق بيئة ومحيط ذلك الجسد الذي يُعبأ بمكونات ثقافة تعارفت عليها الأجناس البشرية، وتاريخ الجسد هو سيرة حياة ذلك الجسد أو ميراث وسنين حياته، إذ يظهر ما نحته المجتمع بقيمهِ وعاداتهِ وتقاليدهِ وأزماتهِ وتقلباتهِ وتغييراتهِ في الجسد، وهو كما يقال سجن للنفس أو حبس لها، فلربما هو مسجون أيضًا في قوانين وجبرية الحياة وتقلباتها، ومعاقب بسوط الملازمة للنفس وقهر الزمان له.

---

(1) ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن**، ترجمة: د. علي مقلد، بيروت، مركز الانماء القومي، 1990، ص 34.

(2) ميشيل فوكو، **المعرفة والسلطة**، ترجمة: عبد العزيز العيادي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1994، ص 90.





ولعل ما نشعر به ونعيشه لا يتوقف على الإدراك والوعي، وإنما على شرط الوجود الرئيس ألا وهو الجسد، الذي بات يضفي المعنى على الموجودات مما يجعله عقلاً في حالة نشاط بيولوجي، فهو أصبح قوام الوجود ضمن مقولة جديدة وهي: "أنا جسد إذن أنا موجود"[1].

فلا وجود لوعي وإدراك وإحساس وعاطفة وتفاعل وأخذ وعطاء دون واسطة تترجم كل هذه التجارب الإنسانية، فانبرى الجسد حاضنًا وناقلاً لها جميعًا، وبذلك تجلّت قدرة (الخالق عز وجل) بجعل الإنسان ذا شقين على الأقل في وجوده:

الأول: يتمثل بالشق المعنوي اللا مرئي، المتمثل بعقل الإنسان وفكره وتصرفاته وممارساته.

والثاني: الشق المادي الذي يحوّل هذه اللا ماديات إلى أشياء محسوسة، تتناغم مع سنن الحياة التي تتطلب وجودًا ماديًّا حيًّا يتمثل بجسد الإنسان، وإن دخلنا في عالم الأرواح فلا يصبح الجسد ذا أهمية بالغة في عالم لا يكون من ضمن حيز الوجود المرئي المحسوس.

وتأتي متماشية مع الفكرة السابقة نظرة "هوسرل" للجسد الذي يعني لديه الهيئة والتشكل المكاني العضوي، وهو محل الأحاسيس والمشاعر والممارسات، وعلى ذلك يمكن فهمه من وجهين:

الأول: الوجه الفيزيائي، والثاني: الداخلي بما يحويه[2].

فعلى المستوى الفينومينولوجي، فلا يمكن الفصل بين الإنسان وجسده؛ إذ إنه بدون الجسد لا يمكن للشخصية وعي ذاتها، لكون الجسد هو القالب المغلق لهذه الشخصية والمميز لحدودها، لذلك لا يمكن أن يمثل شيئًا عابرًا أو مؤقتًا، وإنما الشيء الأكثر تميزًا للتحقق من وجود الفرد[3]، وهو لازمة ضرورية تفصح عن الهوية الخاصة بالإنسان، إذ بدونه لا يمكن إحراز وجود مادي، والذي عن طريقه يتم تنظيم الحياة وتحديد هوية الفرد.

---

(1) د. يوسف تبس، مصدر سابق، ص 65.
(2) المصدر نفسه، ص 62-63.
(3) خلود السباعي، مصدر سابق، ص 23.





أما "ميرلوبونتي" فقد وصف الجسد بأنه شيء مُعاش وليس سجنًا تسكنه النفس كما يذكر "أفلاطون"، أو وحدة وظيفية كما ذكر "أرسطو"، أو آلة يتم التحكم بها وتسييرها كما يشاء الإنسان وفق "ديكارت"، بل إنه يعاش من خلال توتر قصدي[1].

إن النفس في بعض تقلباتها قد تفكّر في وسيلة للتخلص بها من الجسد، لكن تلك الأمنية صعبة وبعيدة المنال؛ لأنها لو تحققت سيحكم على الجسد والنفس بالموت، فوجود النفس متلازم بوجود الجسد في الحياة. وكذا الحال لو كان الجسد يعي ما يحدث له لاختار الفكاك من ملازمته للنفس، ولتجنب التعرض لتصدعات الحياة وآثار تاريخها عليه.

أيضًا يقول موريس ميرلوبونتي: "إن الجسد كائن في العالم كالقلب في الجهاز العضوي". ويقول أيضًا: "لسنا فكرًا وجسدًا، لسنا وعيًا قبالة العالم، بل نحن فكر متجسد وكيان في العالم"، بمعنى أن الجسد ليس موضوعًا قائمًا بذاته منفصلاً عن الشخص صاحب الجسد[2].

ووفق معارضة ميرلوبونتي لآراء وأفكار غيره حول الجسد، ينظر هو للجسد على أنه المنظومة الرمزية للعالم، الذي من خلاله نتعرف على العالم ونقرأه جيدًا، إذ يمثل مثابة الشاشة التي تترجم أفعالها وتصرفاتها للآخرين، وتعكس كل ما موجود حولنا[3]، فعن طريقه نعيش الحياة ونشعر بكل ما موجود فيها وحولنا، ونتلمَّس آثارها ونتعاطى مع الآخرين بكافة أشكال التعاطي، فهو (أي الجسد) الموصّل الأهم لإمدادنا بالعين التي تنظر ذواتنا والعالم معًا.

يقول ميرلوبونتي: "إذا كان الجسم يلمس ويرى فليس ذلك لأنه حاصل على المرئيات أمامه كموضوعات أنها حوله، بل هي تدخل في باطنه وتقوم فيه وتفرش

---

(1) حسني إبراهيم عبد العظيم، "تطور الانشغال السوسيولوجي بالجسد"، ج2، مقال منشور في موقع **الحوار المتمدن** على شبكة الإنترنت:

*www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=256632*

(2) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 19.

(3) د. عبد الرحمن التليلي، "عنف على الجسد"، مجلة **عالم الفكر**، العدد 4، المجلد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009، ص 157.





نظراته ويديه من الخارج ومن الداخل، فإذا كان يلمسها ويراها فذلك يعود فقط إلى أنه لكونه من عائلة الأشياء ويمكن رؤيته ولمسه هو ذاته، يستخدم وجوده كوسيلة ليشارك في وجودها، وإلى أن كل واحد من الموجودين هو أنموذج للآخر، وإلى أن الجسم يعود إلى نوع الأشياء كما أن العالم هو جسد كلي"[1]، حيث إن إحساس الجسد بما موجود حوله ورؤيته للعالم ونظراته له، وصوره التي يصورها لذاته وللعالم، ما هي إلا تلاق مشترك بين ما يحمله الجسد وما يعطيه العالم لذلك الجسد.

لقد مر الجسد الإنساني بتحولاتٍ عميقة في تاريخه، جعلت منه واسطة مهمة في الحياة، فاليوم بات الجسد ليس موضوعًا طبيًّا فحسب، وإنما يشوبه الركود ونتعامل معه على أنه تلك الآلة الواجب مراعاتها طبيًّا عند تعرضها للعطب أو تعطيل أحد مكوناتها، ونسيانها عند إصلاح ذلك العطل، فالجسد أصبح ينظر إليه بمثابة الأنا ذاتها وليس الآخر المفصول عن النفس وإدراكاتها. ولعل الجسد هو الكيان الذي يتكلم بنا ويتحرك وفقنا ووفق أهدافنا ومعطياتنا، وليس هو الحيز المعزول أو الواسطة الناقلة لما نرغب ونريد.

"إن الجسد كما يرى "بورديو" يمكن اعتباره حاملاً للتمايزات الطبقية ومن المهم أن يكون واضحًا. إن "بورديو" لا يتجاهل الجسد العضوي، وإنما يؤكد أن هذا الجسد العضوي الذي يسميه "المادة الخام"(Raw Material) تقوم القوى الطبقية بتشكيله وإعادة صياغته، بحيث يصبح الجسد جزءًا من رأس المال الثقافي للفرد، ويصبح من ثم مصدرًا للقوة أيضًا"[2].

ولما كان الجسد مملوكًا للأنا، فلا يمكن النظر إلى هذه الملكية على أنها قابلة للتصرف بها وكأنها منسلخة عن الأنا، بل إن الجسد هو الأنا ولا تمايز بينهما، وشرط وجود الأنا هو وجود الجكسد المادي في الحياة، فلا يوجد هناك التقاء للنفوس دون التقاء للأجساد. ولعل الملاحظ بعمق لصيرورات الحياة يجدها في الشكل الظاهر عبارة عن تفاعل أجساد مع بعضها البعض، لبناء وإدامة وترصين أسس المجتمعات

---

(1) د. حبيب الشاروني، **فكرة الجسم في الفلسفة الوجودية**، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص 125.

(2) حسني إبراهيم عبد العظيم، "الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي"، مصدر سابق، ص 68.





وحتى فنائها وخرابها، وهذا هو الشكل المادي للتفاعل لكنه في دواخله يحوي إرادات وإدراكات هي من حرّكت هذه الأجساد، والتي بدونها لا يمكن ترجمتها للأشكال التي نراها نحن.

يشير مفهوم بورديو للجسد بوصفه نوعًا من رأس المال المادي إلى شيوع عملية تسليع الجسد، وهو الموقف الذي يربط البشر بسبب حجم وشكل ومظهر أجسادهم بالقيم الاجتماعية التي يحصلون عليها[1]، أي من خلال ما تأتي به صورهم الجسدية من قيمة اجتماعية تُمنح للجسد من خلال المظهر، الذي ظهر به عن طريق مواءمة ما يناسب الجسد وما يريده تجار الجسد، الذين يمنحونه الشكل الذي يريدونه لغرض الاستفادة من مظهره وصوره الجديدة. لقد أصبح الجسد بمثابة سلعة يُتاجر بها، وتتشكل صورة الجسد وفق ما يريده صاحب الجسد أو المتاجرين به.

لقد عُد الجسد قيمة اعتبارية ذات فرادة كونية من خلال أخذه أفهومًا جديدًا في البحوث الجمالية المعاصرة، وراح الحفر متواترًا في أركيولوجيا الجسد (Archeologie)، ليعبر عن إنجازات قد تحققت في الجسد[2]، بحيث تكسب الجسد مظهرًا جماليًّا جديدًا يعكس المفهوم الجديد المتكوّن حوله، والصورة التي بات الجسد يُنظر إليه من خلالها.

لعل الجسد هو الظاهر الوحيدة التي تبقى تعيش معنا في ضعفها وقوتها وغناها وفقرها وتنوعاتها، بخلاف الأشياء الأخرى التي تحيط بنا، فمن خلاله ندرك العالم ونختبره[3].

إن الجسد هو الأنا التي لا غنى لي عنها، وما نشعر به يمر عبر ذلك الجسد أو تلك الأنا، وما يحيطنا يحيط به وما يختلف علينا يدركه ويشارك به، ويُظهر استجابات وتفاعلات مع المحيط الذي نعيش به، فلا يمكن فصله ككيان مستقل وإنما الجسد هو متداخل معنا، ويشكّل قوة ذا فاعلية كبرى في إمداد حياتنا والمساهمة في العيش فيها.

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 35.
(2) منير الحافظ، مصدر سابق، ص 172-173.
(3) جوزيف معلوف، مصدر سابق، ص 99.





ولما كان الجسد في الوقت نفسه وسيلة وأداة أي شيء نمتلكه لتحقيق وجودنا في العالم، لذلك فنحن بحسب مارسيل نعيش توترًا، إذ إننا مشدودون إلى جسدنا وفي الوقت نفسه مبتعدون عنه[1].

"ذهبت التعريفات اللغوية الإنكليزية الفرنسية إلى تسمية الجسد على التوالي (Body) و(Corps)، وهي تشير إلى مطلق الجسم، لذلك تلجأ إلى الإضافة إذا أرادت التعريف بالجسد فتقول (Human Body) (Corps Humain)؛ مما يعني أن السياق المنتج للمفهوم في العقل الغربي لا يرى تمايزًا للإنسان على مستوى الجسد عن باقي الحيوانات، ولعل هذا يرجع إلى بنية المنظومة التي أنتجت هذه المفاهيم، والتي تجعل الإنسان من إنتاج الطبيعة"[2].

إن الجسد هو وسيط تفاهمي يتلقى من الموجّه الرموز والإشارات، ويبثها نسخة متطابقة مع تصورات العقل الموجِّه، وتخضع هذه الرموز والإشارات إلى التأويل من قبل المتلقي، ويفهمها بحسب ما يتلقاها من المصدر[3].

أي إننا نستقبل كل الرموز والإشارات من المحيط الذي نعيش فيه، وتتلقاها حواسنا وبنية الجسد الذي نعيش فيه، ونُطلق هذه المستقبلات إلى الآخرين ويتلقفونها وفق الرؤى العقلية الخاصة بهم، ويتعاملون معها على أساس ما نقلته لهم أجسادهم.

فنحن لا نستطيع تقبل وتلقي أي شيء من المحيط دون أن تكون لنا أجساد تقوم بهذه المهمة، وهي التلقي والترجمة وفق تصورات العقل ومنطقيته، وعلى أساس هذا التلقي المرهون بوجود الجسد نتعامل مع الآخرين المتواجدين معنا، بنقل ما نستقبله لهم عن طريق لغة الجسد التي نستخدمها لتسيير حياتنا وفقًا لها.

لقد بات الجسد جزءًا دائم الحضور بدرجة تزيد أو تقل في كل تفاعل، وهو أيضًا بؤرة كل المحرَّمات والتحيزات والأحكام، وتتقرر الكثير من شؤون حياتنا وفقًا للجسد الذي نملكه ونتعامل به مع الحياة[4].

---

(1) وجيه قانصو، مصدر سابق، ص 94.

(2) أحمد ماجد، "الأسطورة والجسد"، مجلة **المحجة**، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011، ص 78.

(3) منير الحافظ، مصدر سابق، ص 68.

(4) هيلين توماس وجميلة أحمد، مصدر سابق، ص 23.





"والمراد بالجسد هو ذلك الكائن الحي بما هو منبع الوعي والفكر والحركة، إنه أصل ينبع منه كل شكل غامض لأشكال الفكر وأشكال الوعي التي اتخذتها الفلسفات المحددة لها، بما أنها تمثل نهاية ما يسميه نيتشه على لسان زرادشت في قوله: "الجسد عقلك الكبير، وهذا العقل الصغير الذي تسميه وعيًا ليس سوى أداة صغيرة، ولعبة في يد عقلك الكبير يمكن خلق أفكارك وأحاسيسك، كائن أكثر نفوذًا، حكيم مجهول يسكنك، إنه جسدك""[1].

فالجسد حاوٍ لكل ما نتعامل به وننظر له على أنه كيان مستقل، فالعقل يحويه الجسد بكل أنشطته وتنوعاته، والوعي والإدراك وكل ما يعترينا وموجود في أعضائنا يضمه الكيان الأكبر المتمثل بهذا الجسد.

إن الجسد ينبغي النظر إليه كجزء من بنية تفاعلية في إطار مؤسسي وظيفي متوازن، تُصاغ فيه هذه الموازنة وفق رؤية شاملة آخذة بنظر الاعتبار جميع حيثيات الوجود الإنساني، فالجسد بات موضوعًا للإحياء والإماتة والرزق، إذ يتجاوز الجسد في النصوص الإسلامية البعد البيولوجي البحت، وبات يرقى إلى مستوى التمثيل الاجتماعي والثقافي الذي يميّزه[2]. ولا يمكن فصل الجسد عن كونه فاعلاً مؤثرًا وضروري الوجود في الحياة، إذ تستند عليه كل رؤانا وتطلعاتنا وعيشنا ووجودنا في هذه الحياة، والاستغناء عنه معناه لا وجود للحياة بدونه.

ويمكن القول أيضًا إن الجسد هو كيان مغلق ثابت الهوية قابل للنمو الخلوي والتطور الوعيوي، وهو بذلك يتشابه مع اللغة حيث إن له ظاهرًا وباطنًا كما للغة، وكلاً منهما لا يخضع لخاصية ثابتة، حيث يؤدي التغيير إلى تحول جوهري في الأصل، وإذا ما حدث هذا التغيير فاللغة لا تختلف عن الجسد بذلك فمآلهم الموت المحتوم[3].

---

(1) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 12.

(2) حسن بدران، "ازدراء الجسد في النصوص والتعاليم الإسلامية"، مجلة **المحجة**، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011، ص 45.

(3) منير الحافظ، مصدر سابق، ص 13.





ولعل رؤية فاحصة لهذا الكيان المغلق تظهر لنا الماهية المعقدة التي تركب منها، وكيفية إحاطة هذا الكيان بكل هذه الأجزاء التي يتكوَّن منها، والتي يكون لها دور كبير في إدامة عمل الجزء الأكبر المتمثل بالجسد صورةً واحدة.

واتساقًا مع كل ذلك، فالجسد مثَّل منذ القدم المظهر الخارجي للشخصية والواجهة التي يتم بواسطتها الإعلان عن الانتماءين الثقافي والاجتماعي. إنه يمثّل النموذج التوافقي الذي يعكس مدى مواءمة الإنسان للطقوس وممارسات السلوك من خلاله[1].

إنه قد يذهب بنا إلى أشياء قد لا نتصورها عن أهمية وجوده، فهو المفصل الرئيس بديمومة حياة كل إنسان ومواصلة هذه الحياة رهن بقائه، وشرط حضوره المادي الخالي من المعوقات التي تعيقه أو تمنعه من مواصلة الحياة، والوجود فيها على شكل كيان الجسد.

فلا ينظر للجسد على أنه كتلة واحدة مصنوعة من مادة واحدة، وإنما هو مجموعة من التصنيفات المتنوعة المعاني والدلائل، إذ يمثل لغة قائمة بذاتها، فالشعر والدم والأظافر وغيرها ليست رموزيا مادة جامدة، وإنما تحيط بها كثير من التأويلات بحسب المحيط الذي يعيش به الجسد[2].

إن هذه الكتلة التي تبدو لنا أنها واحدة في تكوينها تضم كثيرًا من الأجزاء المعقدة، والتي تشكّل تآلفًا يكوّن هذا الجسد. كما إن هذه الأجزاء لا تستطيع العمل بمفردها أو مع جزأين أو أكثر، وإنما العمل في ظل هذا التآلف الذي يكوّنه الكيان الظاهر أمامنا وهو الجسد، فهذا الكيان يحوي تعقيدات تتمثل بترابطات أجزائه الداخلية، وهو يمثل الجامع لها والمهيمن على ترابطها وشروط بقائها.

أيضًا إن الجسد "خطاب معرفي فضلاً عن أنه دال ثقافي ومرتسم جمالي، مثله مثل أي خطاب أدبي أو ديني أو فكري، يخضع إلى تحليل أو تفكيك لوحاته النسقية المعرفية الناظمة للبناء النصي، رغم خاصية شروط وحدته الداخلية، ويشكّل جملة

(1) خلود السباعي، مصدر سابق، ص 12.

(2) فؤاد إسحق الخوري، **إيديولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة**، بيروت، دار الساقي، ط1، 1997، ص 4.





تعبيرات وتركيبات متداخلة غير معزولة عن التوجهات الذهنية التي يتحكم بها جهاز العقل"[1].

لذلك يمكن القول إن الجسد ليس انكماشًا آنيًّا بمقدار ما هو ارتهان سياقي يرتهن فيه المستقبل إلى الماضي، فبنية الجسد الإنساني بنية تفاعلية تتعلق مكوناتها وكليتها بالشعور والحضور، ويميل الجسد بعد مغادرة روح الحياة له إلى التحلل[2].

كما إن الجسد ليس صورة حاضرة قد أغفلها الماضي وستتلاشى مستقبلاً، وإنما هو صورة تآلفت وتكونت بفعل ديمومة الجنس وبقائه، مع انتهاء مدة الحياة التي يعيشها كل جسد؛ فالجسد هو باقٍ منذ القدم ولم ينته وجوده إلى الآن، وإنما تموت الأجساد بين حين وآخر، لكن يبقى الجنس الجسدي أي بقاء الإنسان ولم تحن نهاية النوع البشري إلى الآن، لذلك فهو يمثل القديم الجديد الذي ما زلنا نجهل الكثير من خفاياه، والتي تقبع في دواخله، فإذا كنا لا نعلم ماذا كانت تعني أجساد الزمن القديم، أيضًا ليست لدينا الإحاطة الكاملة بالجسد الآن ككيان ومفهوم إلا بعض الإشارات التي ربما قد تطوَّرت نوعًا ما عن السابق، وأصبحت هناك استدخالات أفضل من القديم، إلا أنها غير كافية لمعرفة ماهية الجسد الإنساني.

وبالنسبة للدراسات الإنسانية على اختلافها، يبقى الجسد بنية تجمع الطبيعة بالثقافة، والداخل بالخارج، والموضوعية بالذاتية، والدال بالمدلول، والوعي باللاوعي، حيث تحرر الجسد في ظل هذه الدراسات من كل تلك الثنائيات الكلاسيكية التي كانت تحصره في الجسد/الوظيفة، أو الجسد/الصورة، أو الجسد/المعاش، حتى يتم تحويله للجسد الذي يمكن إنشاؤه وبناؤه أي الجسد المؤسس[3].

إن نظرة المفكرين والعلوم وإن اختلفت عن الجسد وإن تداخلت مع أفكار المتخصصين في البيولوجيا، إلا أنها في النهاية قد نقلت الاهتمام بالجسد من كونه فقط كيانًا هامدًا صامتًا إلى تحليل معانيه، بكونه حيزًا جوهريًّا ومتكلمًا برمزيته في الوجود، فلا يمكن أن نعد الجسد بمثابة عقاب النفس وحبسها فيه، فلا فرار للنفس

---

(1) منير الحافظ، مصدر سابق، ص 67.

(2) حسن بدران، مصدر سابق، ص 47.

(3) خلود السباعي، مصدر سابق، ص 29.





ولا وجود لها في عالم الوجود دون الجسد، كما لا وجود للجسد ويحكم عليه بالفناء بانتفاء النفس، فهما يشكلان كلاً واحدًا متكاملاً وليس كيانين منفصلين.

لذلك نلاحظ تبلور المعاني العديدة لمفهوم الجسد، والتي تعبر عن الطروحات الفكرية التي جاء بها الكثير من تعرض للجسد، إذ بات الجسد ليس ذلك الشيء الذي نصوّره على أنه مبهم، إذ تطرقنا وغرنا غورًا لا بأس به في ماهية الجسد، وذلك من خلال تطبيب الجسد ومعرفة بعض أجزائه، وعلى ماذا تحوي وكيفية التعامل معه، إلا أن ذلك لا يعني أننا عرفنا الجسد معرفة كاملة وتامة، فهو يبقى مبهمًا لنا في كثير من جوانبه، حيث إن الصورة التي نكوّنها عن أجسادنا قد لا تتشابه مع الصورة التي نكونها عن دواخل هذه الأجساد وماذا تحوي، فلم يعد الجسد الكيان غير المنتبه له؛ فهو الدعامة الرئيسة لوجود الفرد في الحياة، فنحن نعانق ونعيش ونتعامل مع أجسادنا وكأنها شيء واحد منا، بل مكمل لذواتنا وهيئاتنا.

ولعل صورة الجسد الإنساني هي صورة جسدنا الخاص التي نشكّلها في فكرنا كما يرى ذلك شيلدر، أي صورة أجسادنا كما تظهر لنا، فلدينا الإحساس ولدينا الشعور باللمس وبالحرارة والألم، ونشعر بأحاسيس أخرى تتأتى من أماكن أخرى من الجسد من العضلات والأعصاب، أي إن ذلك يمثل ترسيمة الجسد[1].

إن الجسد هو المعطى الذي يتآلف فيه كل الأجزاء التي تكوّن الصورة التي نحن عليها، وبدون شرط وحدة التآلف هذه ستُمحى هذه الأجزاء، ويمحى كيان الجسد بذاته، فالأجزاء لا تؤدي وظيفتها الوجودية دون الجامع الأصيل لها والمكوّن الأساس وهو الجسد، ولا يتواجد ويحقق تكوينه إلا بتآلف هذه الأجزاء التي تُظهره على شكل كتلة واحدة، أو كيان واحد يحمل في طياتهِ الكثير من الدلائل الرمزية، والتي سُبر غور أغلبها وما زال الآخر غير واضح ومعقَّد بتعقيد الجسد ووجوده.

لعل نظرتنا للجسد لا تتشابه عند كل البشر، فهناك من يعي الجسد بماهيته وكيانه الذي يستحق الولوج فيه، وهناك من لا يشعر بهذا الكيان رغم أنه في داخله والمكون الرئيس لحياته، وبذلك تتفاوت الرؤى حول الجسد وأهميته ككيان وسبب رئيس لوجودنا في الحياة.

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 67.





إننا يجب أن تكون نظرتنا للجسد توازي أهميته بالنظر إليه كمعطى من معطيات الحياة، وليس آلة تركن لها العديد من الواجبات، وإنما الكيان الذي يمثل المنعرج الحقيقي لدوافعنا واهتماماتنا ومشاعرنا، وبالتالي رغبتنا بالعيش والحياة؛ فهو الكيان الذي قد يقهره وعي الكثير من خلال عدم الشعور به والإشارة لأهميته، وضرورة التعاطي معه كذات وليس كآلة ممكن تعرضها للعطب. وفي هذه الحال قد لا يعار لها أي أهمية، وإنما التعامل معه على أنه المنظم القوي والدافع الحيوي الذي يدخل لعبة الحياة، وعدم وجوده يشكل خسارة كبيرة قد تنهي هذه اللعبة دون أن نعلم بأهميته، لذلك فالجسد هو المكوّن الرئيس لملكة الاستيعاب والاستقبال والإدراك، والتعامل مع الآخر بمعطيات تتعلق بالجسد ولا تخرج عنها، وإن كان الجسد يشق حياته في الإنسان بصمت، فذلك لا يعني عدم أهميته وإنما يشكّل رقمًا صعبًا في معادلة البقاء في الحياة والتأسيس لتنظيم منطقي لها.

فهو ليس ماهية منفصلة عن ذواتنا، وإنما تكوَّنت هذه الذوات من تكوّن الجسد وشروط وجوده، وهو متَّصل بل متداخل مع هذه الذوات إلى الحد الذي نعلن فيه أننا وأجسادنا لا نشكّل أشياء متقابلة مع بعضها كلاً على حدة، وإنما نحن هي أجسادنا نفسها.







# الفَصْلُ الثَّالِث

# المجتمع بوصفهِ ناحتًا للجسد







**هل حقيقة أن المجتمع ببناءاتهِ وممارساتهِ وعلاقاتهِ مسئول بصورةٍ رئيسة عن تشكيل الجسد الإنساني، بما يشتمل عليه ذلك الجسد من حركات وتمظهرات وسلوكيات؟**

**وهل يختلف هذا النحت الاجتماعي من بيئةٍ اجتماعية لأخرى؟**

ربما تبرز في الحياة صور كثيرة لأجساد إنسانية بأشكالٍ شتى، فنحن لا نتكلم عن تشابه النوع الإنساني بيولوجيًّا، فكل إنسان سواءً أكان في الشرق أم الغرب أم الشمال أم الجنوب، أم كان أبيض أم أسود، أم غنيًّا أم فقيرًا، جاهلاً أم متعلمًا، إنسانًا ذا دين معين أو ملحدًا، لا يختلف عن الإنسان الآخر من ناحية تركيبة الجسد التي خلقها الله تعالى له؛ فالكل يملك حواس وأعضاء وأعصابًا وغيرها من الأعضاء المكمّلة للجسد الإنساني، مع اختلافات الأعضاء بين الذكور والإناث، ولكن صورة ذلك الجسد تختلف من مكان لآخر، وبحسب طبيعة وبيئة ذلك المكان الذي يعيش ويقطن فيه الجسد.

إن لدساتيرِ الحياة دورًا كبيرًا في قولبة أجساد البشر على سجاياها وتمظهرها وفقًا لما تعتقده وتريده، فجسد الفرد الذي يعيش في بيئة متحضرة يختلف صوريًّا وحركاتيًّا عن جسدِ الفرد في المناطقِ المنغلقة والمنعزلة، والاختلاف ليس في التركيب الفيزيولوجي، وإنما بما يسبغه وضع الحياة على الجسد هناك، إذ أصبح الجسد هو ما يحدد هوية الفرد وتصنيفه.

لقد بات الجسد شيئًا أكثر غموضًا في نظر الإنسان، وقد حاولت كثير من المجتمعات بما تملكه ولفتراتٍ قريبة فك غموض هذا الكيان وإعطاء الإجابات الخاصة عنه[1].

فلم يعد الجسد ذلك الكيان المهمل الذي لا يعني شيئًا بسبب صمته وقربه منا كأفراد، فاليوم المحاولات الفكرية جارية لمعرفة ثنايا ما ينطوي عليه الجسد بكل

---

(1) دافيد لوبروتون، مصدر سابق، ص 65.





الجوانب، فالأمر لم يقتصر فقط على الطب وتشريح الجسد، وإنما صور الجسد حيال تأثيرات المجتمع وتنوعاته وإفرازاته المختلفة.

"إن وجود الإنسان وجود جسدي، والمعالجة الاجتماعية والثقافية التي يعد موضوعًا لها، والصور التي تتكلم عن عمقه المخبأ والقيم التي تميزه، تحدثنا أيضًا عن الشخص وعن المتغيرات التي يمر بها تعريفه وأنماط وجوده، من بنية اجتماعية لأخرى"[1].

فوجود الجسد لم يعد وجودًا نهائيًّا، إذ لم يُخلق الجسد وبقي على حاله كما وجد أول مرة، إذ تعرض هذا الجسد إلى عدة تغييرات بلورت كثيرًا من الصور حوله بفعل تغيرات وأحداث المجتمعات التي تعيش فيها أجساد البشر بشكلٍ كبير.

لقد برزت وجهات نظر عديدة ترى أن الجسد له بناء خاص به، وأصبح في المجتمعات الحديثة هدفًا لكثير من الغايات، إذ خضع الجسد للتجميل والتشريح والحمية والرياضة والأزياء، وهي بالفعل ضرورية لتلبية طموحات المجتمع[2].

كما إن الجسد لم يظهر بصورة الكيان المسلَّم به والمعروفة أبعاده، إلا أن معرفة ثناياه قد بدأت في علم التشريح الفيزيولوجي، ومنها انتقل الجسد إلى وجهة تشريحية أخرى، تتمثل في مقدرة المجتمع على بناء الجسد وفق قواعده وأنساقه[3].

ومن الغامض حقًّا أن تكون لدى الفرد معرفة واسعة عن أمور خارجية أخرى بعيدة عنه في الحياة، ولكن جسده هو أو كيانه الخاص لا يفقه أبسط الأمور الخاصة به، ولا يعرف كيف يتناغم جسده مع الحياة وتقلباتها، فالأمر لا يبدو واضحًا بشكل كبير، وإنما الفحص الدقيق قد يُنبّه الإنسان إلى العلاقة الجدلية بين جسده والمجتمع.

ولعل الإنسان منذ أن وعى اتخذ موقف ازدراء من جسده، واعتبره موضوع خجل وعار، واعتبر كل ما يصدر عنه مُدنَّسًا من قبيل مثلاً الدم والبول والغائط والحيض والمني، وتعامل مع كل ذلك بفضاضة، مُحيلاً إياه إلى عا لم البهائم[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص 5.

(2) Nicholas Abercrombie and others, The penguin Dictionary Of Sociology, Penguin Books Ltd, London, 5th ed, 2006. p. 34.

(3) دافيد لو بروتون، مصدر سابق، ص 12.

(4) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 163.





لقد بات علماء الاجتماع يؤكدون على اعتبار الجسد محلاً للحياة الاجتماعية، من خلال تركيزهم على أهم مجالات الدراسات الاجتماعية وعلاقاتها بالجسد، من قبيل مثلاً عمل الإنسان وهواياته وتفكيره وممارساته[1]، فجسم الإنسان يتمظهر وفق آليات معينة يفرضها أو يسوقها المجتمع له، إذ إن تركيبة حياة ذلك الإنسان تؤثر على صورة جسده، وتجعله مسايرًا لصور المجتمع وما يريده، فبالجسد نمارس عملنا وتفكيرنا وانفعالاتنا وعواطفنا، ويتشكَّل الجسد حسب ما يعطيه المجتمع له من أدوار. مثلاً عامل البناء يُحتم عليه أن يكون على الأقل قويًّا جسديًّا نوعًا ما لملاءمة ظروف عمل البناء. أيضًا يفتح له عمله علاقات أخرى مع أجساد تعمل في البناء، ويتطلب منه أن يتصرف بجسده وفق ما يلائم ذلك العمل ووجوده وصورته في المجتمع الذي يعيش فيه.

يقول بيير بورديو: "إن العالم الاجتماعي يبني الجسد واقعًا مُجنّسًا ومؤتمنًا على مبادئ رؤية مُجنَّسة، وينطبق هذا البرنامج الاجتماعي المستدمج للإدراك على كل الأشياء في العالم، وفي المقام الأول على الجسد نفسه في حقيقته البيولوجية"[2].

كما إن ماري دوغلاس قد طورت تحليلاً سعى إلى الإفلات من ارتباط الجسد مع القذارة والحيوانية، والذي يرتبط من خلال المغزى الاجتماعي الذي يفرضه الخطاب المهيمن على الجسد[3]، أي ما تقولبه الحياة الاجتماعية من صورٍ عديدة يظهر بها ويتقمصها الجسد.

## جسد الطفل ونحت المجتمع عليه

يمكن أن يكون جسد الطفل من أكثر الأجساد التي تتعرض للنحت من قبل المجتمع، على اعتبار أن الطفل بجسدهِ مُهيَّأ لاستقبال كل ما يضعه أو تعبئه له أسرته والمجتمع. ويختلف الأطفال وأجسادهم من فترةٍ زمنية لأخرى ومن مجتمعٍ لآخر في

---

(1) د. يوسف تيبس، مصدر سابق، ص 37.

(2) بيير بورديو، **الهيمنة الذكورية**، ترجمة: د. سلمان قعفراني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009، ص 28.

(3) هيلين توماس وجميلة أحمد، مصدر سابق، ص 26.





نفسِ الفترة، وما ذلك إلا دليل على سبغِ قيم وعادات كل مجتمع على أفرادها وأجسادهم، فالطفل في العصور القديمة بما يتمثل به جسده يختلف عن إنسان العصور الحديثة، وطفل العصر القديم ليس متشابهًا جميعًا في كل الشعوب القديمة، وإنما يختلف كل طفل في ثقافته وثقافة مجتمعه عن شعوب أخرى في نفس الفترة التي عاش فيها.

وكذا الحال لا يختلف طفل العصر الحديث عن القديم فحسب، وإنما عن أطفال شعوب وثقافات أخرى في الفترة الحديثة، وما إظهار جمال ورداءة جسد الطفل إلا ويعود على البيئة التي نشأ بها، وبالأخص أسرته التي تطوّع جسد الطفل لتعليمه وتربيته وتشرّبه لقيم وعادات المجتمع الذي يعيش فيه، وأيضًا فقيم وعادات وتصرفات ذلك الطفل تتبع قيم أهله ومجتمعه، من ذلك نلاحظ اختلاف البقع الجغرافية التي ينشأ بها الأطفال باختلاف ثقافاتهم التي تشرَّبوها وانغمسوا بها، فليس هناك صنف واحد للطفل، وليس هناك جسد واحد ذو سلوكيات وأطر واحدة، وإنما هناك عدة أصناف وعدة سلوكيات وتصرفات لتلك الأجساد الخاصة بالطفل، ولما كان جسد الطفل يخضع لرعاية أسرته، فهم المسؤولون عن بناء وتهيئة وتنشئة ذلك الجسد، وجعله يتوافق مع ما تريد البيئة التي يعيشون بها.

لقد قام عالم الاجتماع الفرنسي البارز "بيير بورديو" بمعاينة مترتبات التعليم الجسدية بوجهٍ عام، حيث قام بتحليل كيفية تجسيد تنمية رأس مال ثقافي في الأطفال، عبر اكتسابهم ميولاً وأذواقًا وقدرات بعينها[1].

فالطفل وتنمية ذهنه وذوقه وسلوكياته من خلال التعامل مع جسده بكل ما يؤدي إلى صقله، سيخلق منه ثروة تنفع ذاته وذات المجتمع، وتمثل هذه السياسة القناة الصحيحة في التعامل السوي مع الجسد الوليد أو جسد الطفل الناشئ، ومن المؤكد أن تنمية رأس مال ثقافي لدى الجسد الإنساني وبالأخص الأطفال، سيكون له الدور المحوري في بناء قاعدة إنسانية رصينة مكتسبة لكل المعارف، وقادرة على التصرف وفقها ووفق ما تتطلبه الحياة.

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 43-44.





وفي الكـلام عـن أجسـاد الأطفـال "فهـم يتعلمـون كيـف يـؤدون حركـات وإيماءات ووقفات جسدية وفقًا لترتيبات مفروضة، تتناسب مع الطبقات الاجتماعية الـتي ينتمـون اليهـا. إن عـادات الجسـد بهـذه الطريقـة تمثـل الجانـب الأدائـي (Performance Aspect) للهـابيتوس، باعتبـاره تنظيمًـا دائمًـا لجسـد الفـرد، ووفقًـا للجسـد فالحركـات والإيمـاءات والتعبيرات تعـد مرشـدًا لإدراك الفـرد لجسـده وأجسـاد الآخرين"[1].

ومن المؤكد أن الحال مع الأطفال الذين هـم عبارة عن صفحات بيضاء يملؤها المجتمع بعاداته وتقاليده لا يشذّون عن ذلك، فما يتصرفه الطفل بجسده وحركاته وحتى عباراته الخارجة من أحد أعضاء جسده ألا وهو الفم، يكون المناخ الاجتماعي هو المحدد لها والواضع لأساساتها، فالطفل في منطقة ما قد يختلف عن آخر في صورة جسده في منطقة أخرى، وعندما نرى اليوم تصرفات وحركات جسدية للأطفال يجب أن لا نعتقد أنها واحدة لمرحلة الطفولة، فهي تتعلق بأحوال البيئة التي يعيشها ذلك الطفل، والتي تفرض عليه عرض جسده والتصرف به استنادًا لها.

ونحن ممكن أن نرى أطفالاً يمارسون بأجسادهم أفعالاً وتصرفات لا تتماشى مع التربية الصحيحة والنهج السليم في الأسرة، وإنما قد تعلموا ذلك من بيئتهم التي اندمجوا بها وأصبحوا جزءًا منها. وهناك أطفال يتصرفون تصرفات لا تنم عن كونهم أطفالاً، من خلال استعمال إشارات وإيماءات وحركات قد تخص الكبار وحتى الشذوذ منهم، إلا أنهم قد تعلّموها وأصبحت أجسادهم مختبرًا لها.

وعالم الأطفال بما يحتويه من براءةٍ واستقبال سواء أكان صحيحًا أم خاطئًا، جميعه يكون للجسد فيه أهمية كبيرة، فجسد الطفل يتلقى كل ما يأتيه حتى وإن كان غير صالح ليتعلمه ويتقمّصه ومن ثم يمارسه، وذلك تبعًا للقناة التي تتولى رعاية ذلك الجسد وبالتالي الطفل ذاته، وعلى أساس هذا العالم الخاص بالأطفال فالبشر أصبحوا يحاكون أجساد الأطفال من خلال العناية بهم وبملابسهم وتعليمهم وإطعامهم وإظهارهم بالشكل الحسن المطلوب، وهذا العمل أقرب ما يكون هو مراعاة الظاهر،

---

(1) حسني إبراهيم عبد العظيم، "الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي"، مصدر سابق، ص 70.





وهو جسد الطفل الذي يضع الفرد أو الأسرة في حسبانها. إنها مسؤولة عن رعاية هذا الكيان بجسده لينمو ويكبر ويشتد عوده، مع تعبئتهِ بكل ما ينص عليه المجتمع من قيم وعادات وتقاليد وسنن، لذا فجسد الطفل أقرب ما يكون مادة طيّعة لينة بيد المسؤولين عنها، تنقاد بأي اتجاه يرغبون لها أن تسير به، علمًا أن جسد الطفل يمثل المراحل الأولى للجسد الإنساني بعامته.

ولعل الأطفال بأجسادهم لا يتشابهون في السلوكيات التي يسلكونها ويصبح الجسد هو المترجم لها؛ إذ نشاهد الطفل الضعيف البنية والحاد الطباع أو الممتلئ أو الخجول والشجاع والضعيف، وكل هذه تظهر على جسده وتنغمس بها، فالذي لديه صفات حب الاعتداء على الأطفال الآخرين من باب التغالب والهيمنة والقيادة نرى ذلك واضحًا في جسده، إذ قد يكون خشنًا وقد تعرض لعدة ضربات وغير مهتم بنفسه، لكن لا يعني ذلك أن كل من يملك هذه الصفات يكون بهذه الصورة الجسدية المظهرية، إذ قد يكون على العكس من ذلك، أي إنه نتيجة تنشئة وبيئة ذلك الطفل وما رسَّبه المجتمع من عادات وقيم في داخله، وجعله يظهر بهذه الصورة.

"لكن الطفل عندما يكبر يصبح إدراكه عن طريق اللمس موجزًا/مكثفًا، ويبدأ عالم اللمس عنده بالاتساع. إنه يبدأ بتعلم إنشاء تروس لجسده، ويبدأ بإدراك حاجاته الإقليمية حسب اعتبارات ثقافة مجتمعه، وهكذا يكتشف أن التقنّع قد يحافظ على ذاته من الأذى، حتى وإن كان القناع هذا مانعًا إياه من تجريبه مشاعره على نحوٍ مباشر، ليبدأ بالاعتقاد أن ما يخسره عند التعبير عن مشاعره سوف يكسبه من خلال حماية ذاته"(1).

فجسد الطفل عندما يكبر لا يصبح ذلك الجسد الصغير في مرحلة عمرية معينة كان معها مسلّمًا أموره لمن يعيله في تلقينه وتدريبه وتعليمه، وإنما يصبح ذا مساحات واسعة يحاول من خلالها الانتقال والتدرّج في صور الحياة، مانحًا لذاتهِ القدرة والحرية على التحرّك وفق ما يريده وكيفما يشاء في التصرف بجسده، الأمر الذي يجعل من هذا الجسد بعد اجتيازه لمرحلة الطفولة وقد دخل في خضم الحياة وما يمكن أن

---

(1) فؤاد إسحق الخوري، **لغة الجسد: أنا عنترة وهي تحبني**، بيروت، دار الساقي، ط1، 2000، ص 105.





تفرضه عليه، وكيف يستقبلها وفق إدراكه وما الذي ينبغي عليه التصرف وفقه لمواجهتها والعيش ضمنها.

ومن الأشياء التي يمكن الإشارة لها أن جسد الطفل ينشأ في رعاية أجساد أخرى، إذ إن هناك كيانًا أو كيانات جسدية أخرى ترعى الكيان الجسدي للطفل، حيث تشمل الرعاية كل شيء؛ لانعدام القدرة لكيان الطفل على التصرف بحياته وفق إدراك الإنسان الراشد، الأمر الذي يجعل من جسد الطفل رهن تصرف الأجساد الأكبر منه إلا وهي أجساد الآخرين من أهله أو من يعتني به.

ووفقًا لذلك بات الجسد بحركاتهِ وتصرفاته وصوره التي يظهر بها، والتي منحها أو فرضها عليه المجتمع، بات واسطة للتعامل مع الأجساد الأخرى، فنحن لنا صورة واضحة عن معنى الحياة التي نعيشها من خلال تفكيرنا الذي يضمّه الجسد، ونتعامل مع بعضنا الآخر عن طريق الجسد، وما صورة الحياة بمظهرها الذي نراه إلا عبارة عن منظومة تفكير ووعي فرضهما واقع حياة الإنسان، جعلت الأجساد بما تحويه تفكر في جعلها على الشكل الذي نعيشه.

لقد أصبح الجسد الذي نراه محددًا اجتماعيًا، فالشكل الظاهري للجسد من ناحية حجمه وقامته ووزنه وجهازه العضلي وغيره، هو نتاج اجتماعي ساهمت الشروط الاجتماعية بإظهارهِ هكذا، مثل ظروف العمل والأمراض والعادات الغذائية والسلوكيات[1].

## الظروف المعيشية وتشكيل الجسد

إن للظروف التي يعيشها الفرد بجسدهِ دورًا كبيرًا في تغيير وترقيع أو إدامة ذلك الجسد، فالذي يعمل أعمالاً شاقة يتطلب لجسده أن يكون ذا قدرة على العمل في مثل هكذا أعمال، فضلاً عن ذلك سيغير واقع عمل ذلك الفرد من جسده، إذ قد يصبح ذا قوة وخشونة أكبر ملاءمة لطبيعة عمله التي فرضت عليه ذلك.

وبطبيعة الحال إن هذه الأعمال التي تفرض على الجسد ملاءمةً لها قد تختلف عن الأعمال الأخرى التي يمارسها الفرد، فمن يمارس أعمالاً مكتبية إدارية قد لا

---

(1) بيير بورديو، مصدر سابق، ص 100.





يعطيه عمله قوة جسدية أكثر مما قد تكون فكرية، إلا أن صاحب الأعمال العضلية يحتاج إلى جسد مهيأ لتلك الأعمال، فضلاً عن قيام العمل ذاته بصياغة صورة أخرى للجسد تتناسب وإياه، كما إن الأحوال الصحية واختلافها تغير كثيرًا من مظهر وصورة الجسد، فالذي يعيش في ظروف صحية جيدة يتجوهر شكل جسده بصورة الجسد الصحيح الخالي من الأمراض، والذي يُبتلى بظروف صحية قاسية يظهر ذلك بأحوال جسده، الذي يصبح غير مقاوم لبيئتهِ ولعملهِ ولممارسة سلوكياتهِ، وعاداتهِ مع ذاتهِ وأبناء جنسهِ في المجتمع.

ومن ذلك يبرز أن للمعيشة التي يحيا فيها الجسد الإنساني دورًا كبيرًا في تشكيل الصورة المتطابقة مع ذلك الجو، فمظهرية الجسد وبروزه بأفضل حلة متأتية من تحسن الظروف المعيشية التي تنعكس على اللبس والكماليات والصحة، والعيش في أجواء خالية من التلوث، مع استخدام واقتناء كل ما من شأنه أن يمنح الجسد الراحة دون الاقتراب من المضار التي قد يتعرض لها.

فالسكن مثلاً في منازل ذوات ظروف معيشية رديئة ولا تملك أي مقوّم من مقوّمات العيش الصحي والمطابق لمواصفات السكن، من شأنه كل ذلك أن ينعكس سلبًا على الظروف الصحية الخاصة بالجسد داخليًّا وخارجيًّا، داخليًّا ما يعتري الإنسان من عقبات نفسية ممكن أن تؤدي إلى عدة أمراض أخرى، وخارجيًّا ما يظهر به الجسد نتيجة هذه الظروف غير الملائمة، من علامات تشير إلى ضيق الحال، وتعكر الحالة النفسية وعلامات مرضية ربما أخرى.

ولعل الكثير من الأجساد الإنسانية قد هلكت بسبب الأمراض الفتَّاكة التي تنتابها، وتلعب الظروف المالية وسعة العيش دورًا مهمًّا في ذلك، فالذي يعاني قصورًا ماليًّا لا يمكن له أن يعتني بجسده طبيًّا عند إصابته بأحد هذه الأمراض؛ لأن علاجها يتطلب أموالاً طائلة وليس كل شخص قادرًا على تلقي العلاج منها، ويكون عرضةً على الأغلب لشتى أنواع الأمراض بسبب عدم تلقيه العناية الطبية الدورية المناسبة، التي تحمي وتقي جسده من احتمال إصابته بالأمراض، ولنا أن نرى كثيرًا من المجتمعات الفقيرة التي أنهكتها الأمراض، والتي لا تجد طعامًا يسد جوعها حتى، فكيف لها أن توفر أموالاً لتطبيب أجسادها.





إن الفقر المالي قد يدفع بالجسد الإنساني إلى قبول كل ما من شأنه أن يوفر لقمة العيش ربما، أي بمعنى آخر وإن كان ذلك العمل أو الأمر خطرًا على الجسد، لذلك يعمل الكثير من الأفراد في الحرف الخطرة التي ممكن أن تؤذي أجسادهم بشكلٍ فظيع، وقد تؤدي إلى موتهم في الكثير من الحالات، وحتى الاضطرار إلى العمل في ظروف غير صحية، وكل ذلك يكون تأثيره كبيرًا على الجسد من خلال إنهاكه أو إصابة أحد أعضائه بضررٍ، أو تعرضه مستقبلاً لمضاعفات قد تخلّفها هذه الأعمال أو الظروف غير الملائمة للعمل.

## العادات الغذائية والجسد

وكذا الحال بالنسبة للمجتمعات وعاداتها الغذائية، إذ تختلف المجتمعات بعضها عن البعض الآخر في هذا الشأن، فليس جميعها يملك أفرادًا لديهم نفس العادات الغذائية، وعليه لا يملك العالم البشري عادات غذائية واحدة، وإنما تختلف وتتنوع بحسب ثقافة كل مجتمع، وأيضًا بحسب ثقافة كل منطقة في داخل المجتمع ذاته؛ فيميل البشر في بعضهم إلى الإسراف في الغذاء وتناوله، والإكثار من المواد الدهنية وذات السعرات الحرارية الكبيرة، الأمر الذي يغير ذلك من شكل أجساد هؤلاء البشر، كأن يتعرضوا إلى السمنة بعد أن كانوا بصورة النحافة، ومن خلال شكلهم الجديد هذا قد يتعرضون إلى عدة أمراض تلحق بهم بسبب التغيير المظهري الجسدي الجديد الذي جاءت به لهم العادات الغذائية السيئة، التي باتوا يمارسونها. وتختلف ممارسة هذه العادات بحسب منهاج وثقافة كل مجتمع أو منطقة معينة، فقد يولد الفرد في جماعة لا تعير أهمية إلى البذخ والإسراف، وبالتالي صرف الأموال الطائلة على الغذاء، والذي يجعل منهم أصحاب أجساد مملوءة وغير مقبولة جماليًّا ومريضة، وما ذلك إلا محاولة للاتساق ومسايرة أعراف وعادات ما نشأوا وتربوا عليه، إذ قد تكون عادات تلك الجماعات هي الإكثار من تناول الطعام وإكرام الضيف بالحد المبالغ فيه، لاعتبارات قد حسبوها هم من باب الكرم والشجاعة والأصالة، ومن يخالف هذه الأعراف يعاب وينعت بنعوتٍ تؤدي إلى ازدرائه والتقليل من مكانتهِ وكرامتهِ.





حتى إن هذه العادات الغذائية السيئة هي من تعجّل في هلاك الجسد، وتزيد من مخاطر إصابتهِ وتعرضه لشتى أنواع الأمراض. وعلى العكس من ذلك قد نشاهد مجتمعات لديها ثقافات لا تؤكد على العادات الغذائية السيئة ولا تُسرف في الطعام، بل تعد ذلك خسارة اقتصادية ومضيعة للأموال ومضرة للصحة والجسد، لذلك نراها تنفق مبالغ مناسبة لغذائها، وتراعي الدقة في اختيار الأنواع من الطعام التي تتناسب مع وزن وصحة الجسد، فيعمدون إلى تناول كل ما يجعل الجسد رشيقًا ذا نضارة خاليًا على الأقل من كثير من الأمراض، ولا يتناولون الأطعمة التي تزيد من الوزن والإكثار منها، أو التي تؤدي إلى ضررٍ كبير على الصحة والحياة، وما قيام هؤلاء بكل هذا الا انعكاس لقيم ومعتقدات وتقاليد مجتمعهم.

وهناك مجتمعات قد تزدري من ناحية جمالية الرشيق بجسدهِ وتوصمه على أنه ليس ابن خير وعز لأنه ضعيف، وإنما النموذج المطلوب لهم كصورة جسدية هو الممتلئ والذي يدل على أنه ابن عز وصاحب خيرات، ويمكن التعامل معه والتقرب منه، أما النحيف فيُتهم بأنه إما فقير ماديًا أو أنه بخيل لا يُسرف أو أنه مريض. وقد يكون ذلك صحيحًا في كثير من الأحيان، فالممتلئ قد يكون دلالة على إسرافه في الطعام، وما كثرة الطعام إلا بوجود سيولة مادية كبيرة، لكن ذلك لا يعني أنه حتى صاحب المردود المادي البسيط قد يسرف كل ما لديه إرضاءً لعاداته الغذائية السيئة هذه فيمتلئ جسده، وقد يكون الأمر أيضًا صحيحًا عند النحيف، فقد يكون ذلك نتيجة عدم وفرة الأموال لديه لذلك لا يأكل، أو أنه مريض ويمنع عليه كل أصناف الأكل التي تؤدي للسمنة، إلا أن ذلك لا يمنع إمكانية أن يكون ذلك النحيف هو بإرادته من خلال محاولته ترشيق جسده والابتعاد عن كل ما يؤدي لسمنته، إلا أنه لا يلاقي ترحابًا عند أصحاب العادات التي تحبذ المملوء وترفض الرشيق أو النحيف.

وعلى العكس من ذلك فهناك مجتمعات تكون على النقيض، فهي تضع المملوء وصاحب العادات الغذائية السيئة في دائرة الانتقاص والازدراء؛ لأن ما هو سائد في ثقافتهم هو الرشاقة المتأتية من نظام الطعام الدقيق، والذي لا يسبب أمراضًا، فهم يعدّون مملوء الجسد مُسرفًا ومريضًا وغير صاحب إرادة في ترك ملذات الأطعمة والتخلص منها، فهم يرسمون للجسد وهيئته صورة مشرقة يبتغي أن يكون





عليها، لذلك نشأت عند بعضهم وبخاصةٍ في المجتمعات المتقدمة والعصرية مؤسسات تحارب السمنة، وانبرى الإعلام يتحدث عن ذلك من زاويةٍ صحية، ولا يركنون إلى الآراء التي تقول إن الرشاقة عيب أو تدل على فقر وشحة أموال، وإنما يعملون بالحفاظ على الصحة والقدرة على العمل بأجساد ذات صورة بهية وجميلة قادرة على مقاومة كثير من الأمراض.

لكن ذلك لا يعني أن كل من وجد مجتمعه وهو مسرف في عاداته الغذائية السيئة، قد يبقى على هذه الشاكلة أو العكس من ذلك، فهناك شعوب تغير من أنماط عاداتها الغذائية في داخل المجتمع الواحد، فمن وجد آباءه وأجداده وقد تعودوا البذخ والإسراف وحب امتلاء الأجساد، فقد يغير من هذه العادات من خلال التوعية الفكرية والثقافية والصحية التي يتعرض لها، أو قد يستمر على ذلك مراعاة لما وجد نفسه عليه.

أيضًا إن هذه العادات الغذائية تختلف من مكان إلى آخر في داخل البيئة الاجتماعية والثقافية الواحدة، فليس المجتمع بأكمله يملك عادات غذائية سيئة، وإنما تختلف أماكن المجتمع بحسب ما تربى ووجد الأفراد أنفسهم عليه، وأيضًا بفضل التطورات العصرية الغذائية التي باتت تغير من صورة الجسد وبالشكل المطلوب من قبل الفرد، إذ أوجد الإنسان تبعًا لذلك أطعمة لا تؤدي إلى السمنة كأن تكون خالية من الدهون والكوليسترول، أو أطعمة الحمية والمشروبات الخاصة بذلك، وحتى إيجاد أصناف من العقاقير التي تعالج السمنة، وتؤدي إلى الرشاقة ومحاربة الإسراف في تناول الأطعمة.

"إن استهلاك الطعام مثال واضح على كيفية تأثير الذوق على الجسد وعلى تطور مواضع الأفراد الطبقية المؤسسة طبقيًّا. تاريخيًّا وفي الوقت المعاصر، تطور ذوق الناس للطعام في سياق ندرته أو وفرته، وتأثر بشكل كبير بجهود الطبقة المهيمنة في المجتمع على احتكار أنواع بعينها من الطعام، حتى يميزوا أنفسهم عمن يهيمنون عليهم من أفراد المجتمع. لقد كان لهذا التوزيع للمواد الغذائية نتائج مهمة للتطور الجسدي، فعلى سبيل المثال في المجتمعين الفرنسي والإنجليزي المعاصرين عادةً ما تستهلك الطبقة العاملة الطعام الرخيص الدسم، كما كان له الأثر ليس فقط على





أشكال أجسادهم، بل حتى على نسبة إصابتهم العالية بالأمراض الشريانية مقارنةً بالطبقات العليا"[1].

لذلك وبتوضيحٍ بسيط فإن المُسرف بعاداتهِ الغذائية ممكن أن يبرز ذلك بشكلٍ واضح على جسده، الذي قد يميل إلى الترهّل أو السمنة المفرطة، وما قد يرافق ذلك من تبعات مرضية قد تلحق ذلك المُسرف، وأيضًا كذا الحال في الذي يسير وفق منهاج غذائي صحي معين، يبرز في جسده الذي يكون على الأغلب سليمًا غير ميال للسمنة التي تشوّه الصورة الصحية للجسد. وكذلك تختلف العادات الغذائية بحسب منزلة ومكانة الفرد وظروف عيشه، فمن المؤكد أن الذي يعيش مرفهًا قد يكون غذائه مختلفًا عن الذي يكون كادحًا، ولا يحصل على الطعام إلا بشق الأنفس، فقد يتعلم الفقير أو صاحب الحال الضعيف ماليًّا على عادات غذائية قد تتناسب ومعيشته، وقد تكون من الأنواع الرخيصة التي لا ينتفع الجسد بها كثيرًا من خلال احتوائها على السعرات الحرارية والقيم الغذائية التي يتطلّبها، حتى يظهر بصورة صحية تشير إلى تغذيته الملائمة، وأيضًا في المقابل فالذي يعيش ظروفًا معيشية أفضل تكون عاداته الغذائية متوازنة، وتكثر فيها المواد المفيدة والمهمة للجسد، الأمر الذي يُظهر ذلك الجسد بصورة تختلف عنها في الحالة الفقيرة.

إلا أن الجسد سواء كان في حالة الفقر أو في حالة الظروف المعيشية الملائمة، قد يتعرض إلى مؤثرات تغير من صورته. ولا يقتصر الأمر على الفقر فقط، فليس كل صاحب ظروف مالية غير جيدة، من المؤكد أن يكون هزيلاً مثلاً أو متعرضًا لعدة أمراض، فقد يقوم ذلك الشخص بوضع نظام غذائي خاص لرعاية جسده، وإن لم يملك قيمًا غذائية مناسبة، لكنه لا يصل إلى حد الإضرار بالجسد مثلاً، وقد نشاهد أن هناك الكثير من الذين يتناولون الأطعمة الرخيصة، قد يكونون بأجسادٍ بدينة وذات ترهلات كبيرة، وقد يكون ذلك بسبب الدهون الموجودة في هذه الأغذية غير الصحية والرخيصة، ولكن قد يعود الأمر أيضًا إلى شراهة هؤلاء الأشخاص دون وضع نظام غذائي خاص لحماية أجسادهم من السمنة والترهل والأمراض المختلفة.

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 173.





لقد أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية أن الولائم من أكثر الممارسات الاجتماعية التي تجمع بين الأفراد، وتقوي الصلات الاجتماعية بينهم، حيث إن المشاركة في الطعام ممكن أن تقرب بين الناس، وتبعد العداوة والبغضاء فيما بينهم(1).

وتمثل الولائم أيضًا عادت غذائية موجودة عند بعض الثقافات الإنسانية، وقد يكون الغرض منها هو لم شمل الأفراد وإزالة الفوارق بينهم، وإدامة المحبة والتعاون. وأيضًا قد تكون تعبيرًا عن الكرم والضيافة وحسن المقاصد، إلا أن هذه العادة الغذائية ليست متواجدة عند كل البشر، وإنما باختلاف الثقافات وتنوعها، فيلاحظ أن الكثير من الذين يؤمنون بالولائم وضرورتها يسرفون في الكثير من الطعام، الذي يؤدي بالتالي إلى تغيير مورفولوجية الجسد، من خلال احتوائه على الأطعمة الغنية بالمواد المفيدة للجسد، وإن زادت هذه الولائم عن حدها تدفع إلى ترهلات الجسد، والابتلاء بالبدانة وأمراضها المختلفة.

على أن شكل هذه الولائم قد لا يركن إلى صورة الطعام البسيط أو القليل، فللولائم مبتغيات، فلا يجب أن يكون الطعام رديئًا أو قليلاً، وإنما هو جيد وكثير للظهور بمظهر الكرم والوجاهة وسعة ذات اليد. وهذه العادة الغذائية ممكن أن تؤدي إلى الابتعاد عن أي نظام غذائي معين، وبالتالي الابتعاد عن حمية الجسد التي قد تكون مهمة في كثير من الحالات لوقاية الجسد من الأمراض الكثيرة.

إن الكثير من الشعوب تقوم طقوسها على الطعام وتختمها بالولائم، وما ذلك إلا محاولة لإرضاء جسد الآخر للحصول على مبتغيات في ذات الذي يقوم بالوليمة.

وبعيدًا عن الفقر والغنى وأثرهما في العادات الغذائية، وكذلك الولائم وما تفعله بالجسد، فيمكن القول إن للعادات الغذائية التي يسلكها الإنسان دورًا كبيرًا في صياغة الجسد بشكلٍ يتلاءم وطبيعة تلك العادة الغذائية، من ناحية صياغة الجسد صياغة صحيحة إذا اتبعت عادات غذائية مناسبة للجسد، ولا تؤدي به إلى الإصابة بعدة أمراض، أو صياغته بصورةٍ مضرة تجعل من الجسد عرضة للأمراض، وذا مظهر غير لائق صحيًّا وشكليًّا.

---

(1) فؤاد إسحق الخوري، **لغة الجسد**، مصدر سابق، ص 20.





لذلك فإن نقص الغذاء أو زيادته ممكن أن يؤثر في صورة الجسد، وكذلك نوعية الغذاء تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل الجسد بصورة معينة سواء أكانت صحية أم مرضية، على أن لا يقتصر الغذاء فقط على ما يتناوله الإنسان كوجباتٍ رئيسة، وإنما أيضًا ما يتخلل ذلك من مشروبات وأطعمة أخرى، ممكن أن تدخل في إطار ما يتناوله الإنسان ويعتبره كعادة غذائية يسير عليها.

ولعل الحصول على أجساد صحية ورشيقة، ما هو إلا اتباع نظام غذائي قد يختلف عن ما هو متبع من عادات غذائية أخرى، ممكن أن يرتبط بها الإنسان.

## البناء الاجتماعي للجسد

اعتمادًا على ذلك كله، بات المنظرون السوسيولوجيون ينظرون إلى الجسد على أنه مُستقبِل، عوضًا أن يكون مُنتجًا للدلالات الاجتماعية، لذلك استخدمت البنائية الاجتماعية مصطلحًا عامًّا تنضوي تحت لوائه رؤى ترى أن الجسد مُشكَّل بطريقةٍ ما، بل مختلق من قبل المجتمع[1].

ووفق ما يفعله المجتمع بالجسد وما ينحته عليه، لذلك فالجسد يستقبل ما يحتمه عليه واقعه الاجتماعي، وما تريده أساليب حياته وممارساته، وعندما يقال إن الجسد بات مُشكّلاً ومختلفًا من قبل المجتمع فلا يقصد به وجوده المادي، فالجسد يولد بيولوجيًّا بقدرة الخالق (عز وجل)، لكن ما يرتب ويصور ذلك الجسد ويظهره بأشكال تختلف الواحدة منها عن الأخرى، هو المجتمع أو الواقع الاجتماعي الذي يعيشه ذلك الفرد بجسده ووجوده المحسوس.

فالجسد عند "فوكو" لا يحصل فحسب على دلالات عبر الخطاب، بل هو مُشكّل كُليَّة عبر هذا الخطاب، فيصبح ذلك الجسد عمليًّا عبارة عن نتاج مُشكّل اجتماعيًّا طيعًا بشكل غير محدود وغير مستقر بدرجة عالية[2].

وعلى أساس ذلك صُنِّف البشر بحسب البيئة التي يعيشون فيها، وما اكتسبوه من صفات تلك البيئة وممارساتها. والعالم كما نعلم مُقسَّم إلى مجتمعات تقع في عدة

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 103.

(2) المصدر نفسه، ص 108.





قارات، وهذه القارات لها صفاتها التي تسبغها على البشر الذين يعيشون فيها، ويتعلمون كل أنماط الحياة فيها.

ولعل العامل الأهم جدًّا، والذي يمكن أن نميز على أساسه كل أصناف البشر هو اللغة، والتي لا يمكن لها أن تتداول وتظهر إلا عن طريق جسد الإنسان والمتمثل بفمه وعن طريق اللسان، إذ نلاحظ أن الفرد يتكلم بلسانه ويظهر حركات على وجهه عندما يتكلم بلغة معينة، وعندما يتكلم بأخرى تتغير بعض تقاسيم وجهه، وكذا الحال مع اللغات الأخرى.

وحتى في داخل المجتمع الواحد قد تختلف اللهجات من مكانٍ إلى آخر، وعلى أساس ذلك قد نميز ربما بين ابن الأماكن الجبلية وابن الأماكن الساحلية، وابن الريف وابن المدينة في كثير من اللهجات التي تُميّزهم عن غيرهم في المجتمع الواحد.

وأيضًا لون الجسد بات اليوم المميز الرئيس لمرجعية الأفراد، والذي على أساسه ممكن أن نعرف أين ينتمي الفرد على الأقل، وملامح الوجه وطول القامة والنحافة والسمنة وغيرها من الأمور الجسدية، التي تظهر تميزًا كبيرًا لدى الإنسان في مقدرته على تصنيف انتماءات الأفراد.

إن سوسيولوجية الجسد تشتغل حسب "ميشيل برتلو" على "أحوال استعمال الجسد، فالجسد لا يطوّر سلطاته الاجتماعية وتعددية أبعاده إلا في إطار أحوال تجعل منه مستقر السلطة الاجتماعية وفضاء رسم دلالاتها. إن تلك الأحوال وبشكلٍ دقيق أشكال تأثيرها على الجسد هي التي بإمكانها أن تقدم الإطار الأول للتحليل، فكل عمل اجتماعي للجسد يمكن اعتباره كعمل اجتماعي على الجسد"[1].

وحقيقة الأمر ما يقوم به الفرد بجسده من أعمال مختلفة تتعلق بذاته أو ذات المجتمع، والتي يكون الجسد هو الوسيط الرئيس بها، يأتي من حتميات أقرّتها حياة ذلك الفرد، فيستخدم جسده لإتمام متطلبات حياته، والاندماج ضمن واقعه الاجتماعي، وما يقوم به من ناحية أخرى يُعد مُغيّرًا ومُكيّفًا لجسده وإظهاره بصورٍ

---

(1) د. زينب المعادي، مصدر سابق، ص 32.





تتناغم مع الواقع الذي يحيا فيه، وعليه هو يُغير بجسده ويستقبل تلك التغييرات على ذلك الجسد.

ولما كان الجسد بهذه الصورة، فخضوعه للبناء الاجتماعي يظهره كوسيلة من وسائل التعبير والتدعيم وبناء العلاقات الاجتماعية، ومرآة حقيقية تكشف عن كثير من التعاملات والتقابلات الاجتماعية فيما بين الأفراد في المجتمع[1].

فنحن ممكن أن نتواصل بأفكارنا وأحاسيسنا ومشاعرنا، لكن كل هذا يدركه الجسد ويترجمه إلى أفعال نحو الآخر الإنساني، وعلى أساس ذلك استطاعت المجتمعات بناء حضاراتها وقمم ازدهارها، من خلال العمل ككتلة واحدة متمثلة بتعاون جسدي يموله الفكر والعقل، ويُحرك من قبل الأفراد بأجسادهم، لخلق الانفتاح الإنساني دون الانغلاق، فالإنسان يعرف كثيرًا من أمور حياته بفضل احتكاكه مع أجساد الآخرين وعمله معهم.

وللعلاقات الاجتماعية دور كبير في تطور أجسادنا في كل جانب تقريبًا من ناحية الحجم والشكل، والكيفية التي نسمع بها ونلمس ونشم ونفكر، إلا أنه لا يمكن الاستغناء ببساطة عن الجسد عبر هذه العلاقات، حيث إن هذه الأجساد تتغير وفق طريقة عيشها في المجتمعات، إلا أنها تبقى تلك الكيانات الفيزيقية البيولوجية المادية[2].

وما نسج هذه العلاقات وجعل الإنسان يدخل بها هو المجتمع ذاته، الذي حتَّم على الفرد أن تكون له هذه الشبكة من العلاقات التي تحتاجها حياته لاستمرارها، وعلى أساس هذه العلاقات وكيف تكون يتمحور الجسد ويتشكَّل طبقًا لها، أي تؤدي هذه العلاقات دورًا بنائيًا للجسد وتشكيله بصورٍ مختلفة.

وعلى أساس ذلك يصبح للجسد بناؤه الخاص به، والذي على أساسه ممكن أن يتفاعل مع الآخرين ويقوم بتنظيم حياته وممارساته، وهذا البناء قد منحه المجتمع له من خلال أسس ذلك المجتمع، الذي يرغم الأفراد من السير عليها والانضواء تحت لوائها.

---

(1) Pierre Bourdieu "LA domination Masculine" Seuil, 1998, p. 13.

(2) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 31.





ويمكن القول إن الجسد البشري تطور عبر آلاف السنين، وهو يؤسس أساسًا صلبًا للعلاقات الاجتماعية، فالجسد هو ليس مُقيَّدًا بالعلاقات الاجتماعية فحسب، بل يُشكل قاعدة ويحوز قدرات منتجة تسهم في تشكيل هذه العلاقات، فكل ما نحصل عليه من قدرات يساهم في تكوين هذه العلاقات ويساعد في تشكيلها[1].

لذلك شكلت علاقاتنا الاجتماعية ركنًا أساسيًّا في بناء وإظهار أجسادنا بصورٍ مختلفة، وفق ما اعتاد عليه البشر من علاقات اجتماعية قائمة فيما بينهم.

وبهذا الخصوص يرصد "بيير بورديو" ما يسميه بالبناء الاجتماعي للجسد، حيث يذكر بأن الجسد يتعرض للنحت الاجتماعي من قبل المجتمع من خلال ما يستوعبه، وما يسير عليه الجسد من عادات وتقاليد وخطوط حياة المجتمع الذي ينشأ فيه، والذي يصبح بمثابة النظام التعليمي الذي يخضع له[2].

فالجسد يسير مع المجتمع ويصبح مندمجًا وفق ما يؤول إلى ضمان حياته واستقراره، فحتى تكون رياضيًّا مشهورًا في مجتمع يهوى ويعشق الرياضة، يُحتَّم عليك إن كنت تبغي أن تُسمى رياضيًّا مميزًا أن تكون صاحب مهارات جسدية، تتطلبها منك ظروف وقوانين الرياضة في المجتمع، الأمر الذي يؤدي إلى قيام الفرد بإخضاع جسده إلى شروط التمرين والتدريب؛ ليكون مؤهلاً لصفات الرياضي الذي تتطلبه قاعدة المجتمع التي تميز الجسد الرياضي عن غيره.

لذلك عندما تشاهد جسد الرياضي وقد امتلك صفات من قبيل مثلاً الضخامة وقوة العضلات، أو الدقة في المهارة والتركيز، فذلك دلالة على نحت المجتمع لما يريده في جسد ذلك الرياضي، فهو لم يجعل جسده يملك هذه الصفات لو لم يكن المجتمع قد أراد أو فرض عليه ذلك ليكون نجمًا.

---

(1) المصدر نفسه، ص 33-34.

(2) حسني إبراهيم، "تطور الانشغال السوسيولوجي بالجسد" ج3، مصدر سابق.





**شكل (1) يوضح تشكيل الجسد رياضيًا وفق إرادة الإنسان**



أيضًا لا يستطيع أي فرد مثلاً أن يكون عارض أزياء مثلاً إلا بمواصفات جسدية تتطلَّبها هذه المهنة، وهي الرشاقة وبعض الأشياء التي تتعلق بعرض الكتفين والطول وعدم الانحناء والخطوات الواثقة وجمال الوجه، وهذه الصفات ليس كل بشر يجد نفسه قد امتلكها، وإنما يجب على الفرد أن يُعدّل من جسده ويُحور به، ويخضعه لعدة سلوكيات ليصبح ملائمًا لها، على أن يكون مالكًا وبشكلٍ ضروري لبعض الشروط الرئيسة مثل الطول، فلا يستطيع الفرد إن كان قصيرًا أن يجعل نفسه طويلاً وبشكل ملائم والعكس من ذلك. أما باقي الصفات فممكن التعامل معها، مثل تخفيف الوزن والوصول إلى مرحلة الرشاقة المطلوبة لعارض الأزياء، وإتقان بعض الحركات الخاصة بهم وغيرها من الأمور.

والذي يعاني بؤسًا وفقرًا في حياته نجد ذلك واضحًا في جسدهِ، الذي قد يبدو هزيلاً غير صحي، أو متعافيًا وله مظهر الجسد الذي فقد رونقه، والذي لا يشير إلى راحة ذلك الفرد بجسده وتأزمه وشلل فكره، وانغماسه بهموم الحياة ومصاعبها.

ولنا أن نشاهد الكثير من المجتمعات التي تعاني جوعًا وفقرًا ومجاعة كيف أصبحت أجسادها وهي عبارة عن عظام يكسوها الجلد فقط بالوصف التقريبي، إذ أثَّر انعدام الرفاهية المادية وتنظيم الحياة على هؤلاء بشكلٍ كبير جدًّا، وجعلهم يعانون





من سوء التغذية والبؤس والحرمان، وظهر ذلك جليًّا في هزالة أجسادهم وعدم قدرتهم على السير، وحتى القيام بأبسط الأعمال؛ لافتقاد الغذاء اللازم لإعانتهم.

ولنا أن نوضح أن الحياة عبارة عن سلسلة من الأمور التراكمية التي تعتمد على عدة أطراف تساهم في إقامة أركان هذه الحياة والسير وفقًا لها، فعندما يتواجد إنسان معنى ذلك أن الإنسان لكي يبني مجتمعًا بحاجة في بادئ الأمر لأن يعيش، وعلى أساس معيشته هذه سواء أكانت جيدة مرفهة أم سيئة قاسية، يتحدد نوع البناء الذي يتم تحديده للمجتمع. وحياة ذلك الإنسان مرتبطة بغذائه ووسائل إيجاده أو توفيره له، فعندما لا يجد ما يسد جوعه ويحميه من المجاعات القاتلة سيتحطم دوره كفرد مساهم في بناء المجتمع، وبالتالي تنهار الأسس التي كان من المؤمَّل إقامتها فيه.

واستنادًا لكل ذلك، تصيب ذلك الإنسان الذي بات دون غذاء أمراض كثيرة تزيد من محنته، لعدم وجود أموال توفر الغذاء والعلاجات اللازمة، لذا يصبح جسد ذلك الإنسان عبارة عن صورة وقد تجلت فيها أسس الحرمان والبؤس والفقر، والجوع والمهانة والمرض.

وحقيقة إن كثيرًا من الأمور لا يمكن ملاحظتها أو أخذها بعين الاعتبار لولا أن الأجساد تفصح عنها، فنحن لا يمكن أن نتكلم عن الفقر وما يفعله بالبشر لولا صور الأجساد التي يهزمها الفقر، ويجعلها في الدرك الأسفل من العيش الإنساني، فالفقير لا يستطيع بانعدام السيولة المادية لديه أن يرفّه نفسه من غذاء وملبس ومظهر لائق وصحة، لذلك فالجسد الفقير تصبح له صفات تدل عليه، فلسان حاله يقول إنه بعوز من خلال ارتباك حياته وعدم انتظامها وصحته المتعثرة، فضلاً عن نقص غذائه الحاد.

وعلى العكس من ذلك فالإنسان الذي يعيش حياة مترفة أو مرفَّهة نوعًا ما، يحظى أصحابها بأجساد لا يبدو عليها التعب والتدهور، وإنما قد تبدو متعافية نوعًا ما، وذات مظهر لائق غير منغمسة أو واقعة ببؤس الهم والحزن وضغوط الحياة، وعلى أساس ذلك برزت التباينات والفروقات بين الغني والفقير، أو بين من يملك لسد حاجات غذائه ومعيشته وبين من لا يملك كل ذلك، إذ تكون حياة المترف ذات اتزان خاص ونسق معين، فغذائه متوفر وبالتالي قد لا يتعرض إلى أمراض نقص الغذاء والجفاف والمجاعات، والأموال اللازمة لعلاجه إن مرض أيضًا متوفرة، وعليه





فهو مُهيأ لإتمام كل ما يحتاج إليه، ويبرز ذلك واضحًا في هيئة الجسد المترف من خلال مقاومتها لصعوبات الحياة وانتظامها وتطورها، وحتى في كثير من الأحيان خروجها عن ضوابط الحياة الصحيحة من إسراف وعدم مراعاة للصحة وغيرها.

"إن الدين أهم أعمدة البناء الجسدي، والعامل الفعَّال في إعداده لممارسة الطقوس والشعائر، بوصفها تقاليد تلقائية للمعتقدات. وقد ربط الفكر الفلسفي والديني على السواء الروح أو الوعي أو العقل بالمعتقد الديني، في حين يشكّل الجسد العمود الناظم لهيكلية الأداء العبادي والروحي، ولهذا ارتبط النظام الطقسي الديني بنظام الأداء الجسدي، أكثر مما هو أداء نطقي "إنشاد، تراتيل" (Hymnals) وابتهالات(Litangs) وممارسة الأداء، يأتي من نظام إشارات ظاهرية منبعثة من قلوب مؤمنة، تؤثر في تحريض البواطن اليقينية، تصل إلى درجة عالية من الرعشة الروحية والتشنج العضلي والغيبوبة، إذن ليس الدين معيارًا للأفكار وإنما هو معيار للأداء الجسدي، وضابط لكل ما يصدر عنه من سلوكيات وتصرفات"[1].

لذلك أصبح الجسد وفقًا للمعايير الدينية الطقسية هذه مؤهلاً لأن يقوم بما تمليه عليه هذه التقاليد، بحيث يظهر ويؤدي عدة أنماط من الحركات والسلوكيات الجسدية التي تشير إلى تفاعل الجسد مع الطقس الديني الذي يخضع له. وعلى أساس ذلك بُني الجسد وهو مؤهل للقيام لها وخاضع لها، وأصبحت جزءًا من حياته.

لذلك فلقد بات للجسد وظائف متعددة ومذهلة تُمكّن العقل من بيان الدور الذي يلعبه في صناعة التأريخ الأسطوري والأدبي والإيديولوجي والمعرفي، من خلال تعالقه مع الوجود، ولكونه كينونة صغرى تتعالق مع الكينونة الكبرى، فيجسد بذلك ظاهر الوجود ويعبر عن قيمه في أشكال معرفية وأفهومية متعددة الكتابات والصور والشرائع والقوانين[2].

وما هذه الوظائف إلا وقد فرضها عليه واقعه الاجتماعي المعاش أو المحيط الذي يحيا به، ليمكّنه من أداء أدواره بالشكل المطلوب، ووفق ما يتعارف عليه من قبل البشر، وبحسب الثقافات ومسألة تقبلها والتفاعل والتعاطي معها.

---

(1) منير الحافظ، مصدر سابق، ص 147.

(2) المصدر نفسه، ص 11.





## دور الجسد في تحديد الطبقة الاجتماعية للفرد

لما كان الجسد يضم في دواخله بنية كاملة للإنسان بما تحتوي عليه من أعضاء وحواس وانفعالات وعواطف وسلوكيات، فلهذه كلها أدوار كبيرة في ارتقاء الجسد أو نكوصه، فالذي يصبح أو يكون صحيح البنية من المؤكد أن لذلك دورًا مهمًّا في شق الحياة التي تعتمد على عمل الإنسان، والذي بالأخص يعتمد على الجسد الذي يؤدي به نحو تحقيق أهداف وطموحات كثيرة يبتغيها الإنسان وينشدها. فحتى يكون الإنسان ذا منزلة ومكانة متميزة وجميع أموره مطمئنة وحياته ناضجة، يحتاج إلى جسد يمارس به هذه الأمور كلها، ونوعية ذلك الجسد من حيث كونه غير ناقص في الأعضاء وصحيًّا من ناحية خلوه من الأمراض، لكي يساعده في شق طريقه بصورة صحيحة وباستمرارية.

ومن بين الأمور التي حدَّدها الجسد للإنسان موقعه في الطبقة الاجتماعية، فعندما تُصنف الطبقات إلى غنية ووسطى وفقيرة، فإن هذا التصنيف تدخل عدة اعتبارات في تحديده، وعلى أساسه ينضوي الإنسان إلى واحدة من هذه التصنيفات وفق معايير جعلت منه غنيًّا أو متوسط الحال أو فقيرًا، ومن بين الأمور الكثيرة التي تساهم في ذلك هو جسد الإنسان.

فقد يولد الإنسان فقيرًا، ولكنه بجهده وعمله المتوازن والدقيق والذي يحتاج إلى جسد غير معطوب، يستطيع ربما أن يتحول من حالٍ إلى أخرى، والانتقال بمستواه المعاشي والصحي والتعليمي إلى حالٍ أخرى، في حين صاحب الجسد المنهك الذي يولد فقيرًا سوف يزيد ذلك من الطين بلةً، فلا يستطيع أن يحقق أي نجاح حياتي بسبب ضعف عامل رئيس في حياته، ألا وهو جسده الذي عن طريقه يمكن له أن يتسابق مع الآخرين في تحسين مستوى العيش عن طريق العمل العضلي أو العمل الفكري، أو المهن الأخرى التي جميعها تحتاج إلى الجسد دون خلل أو اضطراب. وحتى ميسور الحال عندما ينشأ في طبقة غنية لكن بجسد مضطرب، ربما لا يساعده ذلك كثيرًا في الاحتفاظ بمركزه ومكانته في الطبقة الغنية.

إن الذين يعيشون في الطبقات الغنية ما وصلوا إليه لم يكن عن طريق الاعتماد على ما هو موجود من أموال فقط، وإنما بتفكيرهم وعقولهم ولإتقانهم لكثير من





الأمور استطاعوا المحافظة على أماكنهم، وكل ذلك بفضل أجسادهم التي تضم تفكيرهم وحذقهم، ولا يشذ عن ذلك الفقراء الذين ربما يملكون طاقات جسدية وفكرية كبيرة ممكن أن تنقلهم إلى مستويات أفضل، إلا أن بعضهم يخفق بسبب الظروف الخارجة عن إرادتهم الأخرى.

وللجسد دور كبير جدًّا في تحديد الطبقة التي ينتمي لها الفرد، إذ لا يتوقف الأمر فقط على المعايير الاقتصادية والسياسية والموضوعية وحدها، وإنما يشمل مجموعة واسعة من الممارسات التي تميّز طبقة عن الأخرى، مثل أنماط المعيشة وأساليب الحياة واكتساب المهارات وغيرها(1).

وحقيقة لا يمكن أن يتوقف الأمر عند الأمور والمستويات الاقتصادية، فهناك عدة مستويات يمكن أن ينتمي لها الإنسان عن طريق اندماجه وعمله بجسدهِ، فعلى المستوى الفكري هناك ما يسمى بطبقة "النخب المثقفة"، وهي التي تستخدم عقولها المتكونة في الأجساد في التفكير والتنظير، ومعالجة المشكلات الإنسانية، وترصين التراكم المعرفي والمخترعات والابتكارات، إذ إن جسدًا مريضًا وعقلاً أو فكرًا مريضًا لا يُحصد منه إلا التأخر والانحطاط.

فما يؤهل الإنسان لبلوغ طبقة معينة هو الجسد كأحد الأسباب المهمة الأخرى لدخول طبقة دون أخرى، ويساعده في ذلك ما يملكه الإنسان من مهارات يبرزها جسده، ويؤهله للتميز عن الآخرين في الفكر والفن والممارسة.

فتفكير الإنسان جزء من منظومة تعمل داخل جسده، فكلما كان متقدًا ساعد ذلك الإنسان إلى الوصول لما يريد وبناء مجتمعه، وكلما كان قاصرًا أو مغلوبًا على أمره، سيجرّه الأمر إلى إدخال جسده في أمورٍ أخرى تعوّض عنه الانضمام للطبقات المتميزة.

إن امتلاك الجسد الفردي للمهارات المميزة ممكن أن تنقل صاحبها إلى مستويات حياتية أكثر رقيًّا، وبذلك يختلف التسلسل الطبقي للإنسان وفق ما يملكه من مؤهلات يترجمها جسده إلى عملٍ يسجل حضورًا رائعًا في حياته.

---

(1) حسني إبراهيم عبد العظيم، "الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي"، مصدر سابق، ص 69.





ومن ضمن كلامه عن الجسد يعتقد "بورديو" أن "الظروف الطبقية لا تسهم فقط في تشكيل الجسد، وإنما تسهم أيضًا في تشكيل تصورات الأفراد عن أجسادهم، فالطبقة العاملة تميل إلى تطوير وتقوية أجسادها بطرقٍ أداتية، بمعنى أنهم يتعاملون مع أجسادهم كوسيلة لتحقيق غايات معينة (القدرة على العمل والإنتاج)، أما الطبقة المهيمنة والمميزة فإن أفرادها يتعاملون مع أجسادهم كغاية في ذاتها من خلال التركيز على ظهورها الفيزيقي الجيد، والاهتمام ببنيتها ووظائفها الذاتية"[1].

ومن ذلك نرى أن هناك اهتمامًا كبيرًا بالجسد من ناحية من يعوّلون عليه كثيرًا في الحياة، فالفرد الذي يكسب عيشه بقوّته البدنية يساعده جسده القوي الذي يتحمل ضغط العمل على إتمام عمله والاستمرار فيه، ويأتي الاهتمام ذلك من خلال المحافظة عليه ليلائم ما يعمل به، في حين أن هناك فئات أخرى أبعد ما تكون عن الاهتمام بالجسد، ولا نقصد ببعيدة أنها منفصلة عن جسدها، وإنما هي تنجز أعمالها بقنوات أخرى لا تتطلب إلا بعض الممارسات الجسدية، لذلك لا يعيرون أهمية لقوة الجسد أو توسطه في ذلك، وينقسم ذلك بحسب طبيعة العمل الذي يعمل به البشر.

إننا اليوم نتعامل مع أجسادنا في ظروف معينة كوسائل لتحقيق أغراض متعددة، فنحن لا ننتقل من مكان لآخر إلا بأجسادنا، ولا تُطمن حاجاتنا إلا بها واستخداماتها، ولا نفكر إلا بعقل يحتضنه ويضمه الجسد وغيره، وقد نستخدمها كغايات لا وسائل، نحن أيضًا نحاول إبراز أجسادنا بصور مرضية وبراقة تجذب الآخرين، وتراعي الذوق العام المتفق عليه في حياتنا الاجتماعية.

وعلى أساس ذلك فالجسد بات بناءً رمزيًّا وليس حقيقة في ذاتها، وذلك من خلال التصورات التي نطلقها حول الجسد والمعارف المحيطة بصورِه، الأمر الذي يؤدي إلى نشوء أعداد لا تحصى من التصورات حول الجسد[2].

ولعل هذه الصور التي نرسمها لأجسادنا تجعل منه منظومة متكاملة تؤدي أغراضها بشكلٍ مطلوب.

---

(1) المصدر نفسه، ص 69.

(2) دافيد لو بروتون، مصدر سابق، ص 11-12.





## المسافات التفاعلية للجسد

كما أن للجسد مسافاته التي على أساسها يتفاعل مع الآخرين والأشياء، وتلك المسافات يخلقها الجسد لذاته من خلال ما وجد مجتمعه عليه، إذ إنه ينتهج كل ما جاءت به ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، وما هو موجود في مجتمع يختلف عن المجتمع الآخر.

ولعلنا في حياتنا اليومية وتفاعلاتنا المختلفة مع الناس نحتفظ لأنفسنا بخطوطٍ وقائية تفصل بيننا وبين الآخرين، وتختلف هذه الخطوط بحسب طبيعة العلاقة التي تربطنا بالأفراد، فكلما ضاقت المسافة التفاعلية بين الأفراد وقرب الخط كثرت المودة بين الناس، والعكس صحيح[1].

ولنا أن نرى أننا في كل حياتنا الخاصة والعامة نحتفظ لأنفسنا بمسافات تفاعلية بين أجسادنا وأجساد الآخرين، فللقرابة دور كبير في تقليص هذه المسافات التفاعلية بين الأجساد، وحتى على المستوى القرابي هناك مسافات محددة تقرب هذه الأجساد أو تبعدها بعضها عن الآخر.

على أن هذه المسافات لم يختلقها الجسد وفق أهوائه ومزاجه، وإنما تحددها قيم وثقافة المجتمع الذي تعيش فيه هذه الأجساد وتتفاعل، ولا يمكن تجاوزها أو خرقها، من قبيل مثلاً التقرب من الأجساد التي حددت الأعراف والدين والثقافة عدم التقرب منها لأسباب محددة مسبقًا، تتعلق بالشرف والعفة والخصوصية وغيرها.

"وتتنوع المسافات التفاعلية بتنوع الثقافات والحضارات، فالمدى الذي قد يزعج الأوروبي مثلاً، قد لا يقلق بالضرورة العربي. يقال إن الأوروبي يشعر بالقلق وعدم الراحة إذا ما اقترب منه أحدهم بمسافة تقل عن نصف متر تقريبًا. يشعر الأوروبي أن المدى التفاعلي القريب ينال من سيادته ويحد من حريته، ولذا تراه يبتعد عن الناس بطريقة شعورية كلما حاولوا الاقتراب منه. أما الإنسان العربي فيظهر أنه أكثر تساهلاً من الأوروبي في هذا المجال، فهو لا يقلق للمدى التفاعلي القصير، خاصةً

---

(1) فؤاد إسحق الخوري، **لغة الجسد**، مصدر سابق، ص 13.





إذا ما توفرت بعض الاعتبارات العامة كالفارق في العمر والجنس والمرتبة الاجتماعية"[1].

وعلى الرغم من واقعية القول بأن المدى التفاعلي يختلف من ثقافة لأخرى وبحسب المجتمع وطبيعته في الحياة، إلا أن ما يقال عن الإنسان العربي بأنه أكثر تساهلاً في مجال التفاعل والاقتراب الجسدي، فقد يبدو ذلك مبالغًا به أو غير صحيح، إذ توجد مجتمعات عربية تكون فيها هذه المسافات التفاعلية على قدر كبير من الأهمية وبحسب ثقافة ذلك المجتمع، وقد يوجد في المجتمع الواحد فئات تحترم هذه المسافات وأخرى لا تعير لها أهمية، وبحسب البيئة التي نشأ عليها كلّ منهم.

وحتى في المجتمعات الأوروبية قد تختلف القضية من مجتمع لآخر، وبحسب طبيعة وحياة وبيئة كل مجتمع، ولا يتوقف الأمر على المجتمع العربي واختلافه عن المجتمع الأوروبي.

إننا قد نقترب من بعضنا الآخر بمسافات بسيطة جدًّا، وذلك بحسب طبيعة العلاقة بين بعضنا الآخر، فالمسافة الجسدية قريبة بين الأسرة مثلاً، ولكن مع الاحتفاظ بالآداب وعدم تجاوزها.

فقد يجلس الأب والأم مع أبنائهم بمسافات قريبة، ويتفاعلون مع بعضهم كأسرة من مسافات تدل على القرب البيولوجي والأسري، لكن هذه المسافات تتسع كلما ابتعدت الصلات والعلاقات الاجتماعية والقرابية بين الأفراد.

فنحن لا نستطيع أن نجعل المسافة بيننا وبين الأغراب مسافة اعتيادية لا يُعار لها أهمية، إذ يدخل في ذلك الأعراف والقيم والتقاليد والسنن الدينية وغيرها، بحيث لا يُسمح لنا بالتجاوز واختراق حدود هذه المسافات.

وعندما نشاهد قربًا مكانيًّا بين شخصين أو أكثر دون وجود مثلاً قرابة بينهم، فذلك دليل على وجود علاقات اجتماعية قلّصت هذه المسافات البعيدة، وجعلت أجسادهم أقرب إلى بعض.

---

(1) المصدر نفسه، ص 14 - 15.





ولعل كل إنسان يحتفظ بأحياز خاصة به ممكن أن تعبر عن خصوصيته وتشير إلى درجة تناغمه مع الآخرين، فكل واحد منا له فضاءاته الخاصة به، والتي لا يسمح بتجاوزها أو اختراقها.

فعندما نجلس في مكان معين قد لا نسمح لأي أحد بالتجاوز على فضائنا الخاص بنا، إلا إذا كان مُرحبًا به وقريبًا لنا من الناحية الاجتماعية، أي مُستساغًا من قبلنا ولنا تفاعلات ضرورية معه، لكن إن لم تكن لنا علاقة بالذي يتقرب من أماكننا أو فضاءاتنا، فلا نسمح له بتجاوزها أو التعدي عليها.

وقد يبرز ذلك واضحًا في عدة أمثلة، فعندما نستقل الحافلة نحن نعلم أن لكل شخص فضاء ومكانًا خاصًّا يجب أن يجلس فيه، وتجاوز الآخرين على المكان الخاص بنا يعني تجاوزه على فضاء معين من فضاءاتنا الخاصة، فنبدي امتعاضنا من الأمر الذي قد نُعبّر عنه بعدة سلوكيات معينة.

وكذا الحال عندما يحاول شخصٌ غريب أن يجلس بقربنا في مقهى مثلاً أو مطعم، دون الالتزام بالمسافة التفاعلية المحددة بيننا، فنعد ذلك تجاوزًا على فضاءاتنا الخاصة التي يجب احترامها والتقيد بقوانينها.

والاحتفاظ بهذه المسافات لأجسادنا وجعل هناك فضاءات خاصة بها هو لإعطاء الجسد خصوصيته المطلوبة، وللالتزام بقوانين وأعراف الثقافة المجتمعية التي نشأنا وتربينا عليها.

وعندما يحاول شخص ما الدخول في مسار السيارة التي نقودها، نعد ذلك تجاوزًا على الفضاء المخصص لأجسادنا التي تمثل كياناتنا، لذلك نمتعض وقد نتصرف بتصرفات ربما تكون غير لائقة تعبر عن استيائنا مما تم فعله.

وحتى في سيرنا في الشارع والطرقات العامة، لا نسير وكأن الأمور لا تتطلب منا إحراز مسافات تفاعلية بيننا، وإنما السير وكل منا يبتعد عن الآخر وبحسب طبيعة المكان والمسافة المطلوبة منا تركها بيننا وبين الآخرين. وهنا تبرز مسألة الأحياز الفضائية التي تؤدي دورًا مهمًّا في الحفاظ على خصوصية الجسد، حيث نلاحظ في طوابير الحصول على الخدمات لا يتراكم الأفراد بأجسادهم على بعضهم البعض، إلا في بعض الحالات غير الحضارية، والغرض من ذلك ترك مسافات تفاعلية قد





حددتها الأعراف الاجتماعية، وللحفاظ على خصوصية كل الفضاءات الخاصة بالأفراد.

وتختلف هذه المسافات التفاعلية بين الجنسين أيضًا الذكر والأنثى، فالذكور تفاعلهم والمسافات التي يتقربون من خلالها لأجساد بعضهم تختلف عنها في تقربهم للنساء، وأيضًا كذا الحال مع النساء إذ تختلف المسألة في تقربهن لبعضهن عنها في الذكور.

فهناك العديد من المسائل التي تمنع تقليص المسافة التفاعلية بين جسد الرجل والمرأة، منها الأمور العرفية والدينة والقانونية، وحتى على مستوى الأقارب من الدرجة الأولى، فهناك حدود للتقرب مثلاً بالأجساد بين الأخ وأخته وكذلك بقية الأقارب.

ونلاحظ أن هذه المسافات تتقلص كلما زاد الرباط الاجتماعي وشرعته الأديان، فعلى سبيل المثال للرجل أن لا يضع أي حدود للمسافة التفاعلية بينه وبين من يتزوجها من الإناث، وذلك للاتفاق عليه عُرفًا وشرعًا وقانونًا، في أن هذه المسافات تنتهي بوجود هذا الرباط المقدس.

لذلك نلاحظ أنه هناك تشديد من قبل المجتمع والدين على انتهاك المسافة التفاعلية بين الرجل الغريب والمرأة الغريبة؛ لأنه يمثل تجاوزًا على فضاءات خاصة بالعالم الأسري والعرفي لكلا الطرفين، ولا يمكن اختراقهما بمثل هكذا تطبيق.

وتختلف هذه المسألة من مجتمع لآخر وفق ما تربى عليه ذلك المجتمع، وطبقًا للأديان التي تدين بها والأمور المنتهجة فيه، فقد تكون هناك مجتمعات لا تعير لانتهاك واختراق فضاء الآخر (سواء كان رجلاً أو امرأة) أي أهمية، وتعد ذلك مباحًا، ولا توجد خصوصيات في مثل هذا النوع من التقارب الجسدي.

وتلعب المنزلة الاجتماعية والدور والمركز الذي يكون به الفرد دورًا أساسيًّا أيضًا في خلق مسافات تفاعلية بين جسدٍ وآخر، فصاحب المركز والدور الاجتماعيين المهمين تتحدد له مسافة تفاعلية بينه وبين غيره، من الذين هم أدنى منه، فلا يمكن لمن هم أدنى أن يقتربوا جسديًّا أو يدخلوا فضاء صاحب المركز والمنزلة هذا إلا إذا سمح هو باختراق ذلك، فقد جلبت هذه المكانة مسافتها وفضاءها الخاص معها ومنحتها للشخص ذاته.





لذلك نلاحظ أنه ليس كل الناس يستطيعون الجلوس مثلاً مع أصحاب المكانات العالية في مكان عام مثلاً، فهناك أحياز فضائية لصاحب المكانة لا يمكن التعدّي عليها، وإنما احترامها وذلك وفق ما هو مقر في المجتمعات التي يعيشون بها.

وعلى هذا فالمهنة والمركز والمكانة لهم الدور الفعَّال في خلق المسافات الاجتماعية التفاعلية بين الأفراد، والتي على أساسها يبرز الابتعاد أو الاقتراب الجسدي بين الأفراد.

إننا نمتلك فضاءات خاصة بنا هي التي تحدد المسافات التفاعلية بين أجسادنا وأجساد الآخرين، ووفق المواقف التي نلتقي بها ونتفاعل على أساسها، وتجاوزها أو اختراقها قد يشكّل خرقًا عند بعض المجتمعات، ولا يمثل أي شيء بالنسبة لمجتمعات أخرى وبحسب الثقافة التي تنشأ عليها.

## الجسد كوسيط لتسيير الحياة

لقد أُشبعت الأجساد بالتصورات الاجتماعية المألوفة وغير المألوفة، إذ يختزن الفرد في ذاكرته ومخيلته وقائع حياتية وممارسات وسلوكيات قد استخدمها أو شاهدها عند غيره، أو يحاول أن يترجمها عن طريق جسده بصورةٍ أخرى.

فما نلمسه ونشاهده من تطور حياتي أو تراكم للمعرفة والرقي الإنساني ليس آتيًا إلا من توقعات وتصورات كانت وما زالت مستمرة في مخيلة الفرد الإنساني، والتي يجسدها في تحقيق أهدافه المشروعة وحتى غير المشروعة في الحالات الشاذة، ولا يمكن أن تتراكم كل هذه الصور دون أن تجد لها من يطبّقها على أرض الواقع أو الواقع المادي، وما زال الجسد -وسيظل- واسطة رئيسة ومؤثرة في هذا التسيير لنقل ما سطَّره الإنسان من أفكار نظرية إلى التطبيق.

وعلى أساس هذه الترجمة الفعلية لصور الفكر الإنساني وتوقعاته، انطلق العالم واستطاع أن يمتن من أواصر تمسكه بالحياة، وبالاستمرار في ذلك تحوَّلت وتطورت الحياة واتخذت لها صورًا مختلفة، فالعهود القديمة تختلف اليوم عن العصور الحديثة نتيجة التراكمات المعرفية الإنسانية، حيث بنيت مجتمعات واستمرت وما زالت في ألقها وتطورها، واندثرت أخرى ولم تستطع المواصلة والبقاء على قيد الحياة.





وما ذلك إلا بسبب فشل التصورات الإنسانية تلك في ترويض الواقع وتجسيده لمصلحة الواقع الحياتي بصورٍ صحيحة، إذ إن مقياس نجاح الشعوب هو بأفرادها، وذلك لا يكون بحسن منظرهم، وإنما بما يمتلكونه من قوة في رصد الحقائق ووضع الأمور في نصابها، والقدرة على صناعة مقوّمات الحياة التي تكون قابلة للازدهار وعدم الاندثار، وذلك كله رهن بعقول أفراد تلك المجتمعات وسواعد أبنائها. أما المجتمعات التي تعثَّرت وانهزمت في الحياة أو ما زالت مريضة، فذلك يعكس انهزام العقول التي تقود تلك المجتمعات لعدم قدرتها على ترجمة تصوراتها إلى قوة أساسية ممكن أن تنفعها في بقائها وازدهارها.

ولم يحدث ذلك ولا يمكن أن يتم دون الجسد الذي بات يمثل الوصفة السحرية التي من خلالها يرتقي خيال الإنسان إلى حقيقة وبالتالي نجاحها.

ومن خلال هذه الصور أصبح الجسد وبشكلٍ لا متناهٍ الوسط الذي يحرّك العالم ويثبّت وجوده المادي المحسوس، فالإنسان استخدم الجسد لتحقيق غاياتٍ كثيرة يريدها المجتمع، أو أنه استخدم جسده لغاياتٍ خاصة خرقت أصول المجتمع وقواعده. لقد أصبح الجسد اليوم أشبه ما يكون بسلعةٍ اقتصادية أو دعاية إعلانية إعلامية، يروّج بها الأفراد مصالحهم ومطالبهم المتعددة التي لا تقتصر على جسدٍ واحد فقط.

## الجسد كوسط اقتصادي

من خلال النظر إلى مسيرة حياة الإنسانية يمكن القول إن الاقتصاد أدى دورًا رئيسًا في استقامة الحياة واستمراريتها، بل أصبح من القوى المهمة والتي يُرتكز عليها بشكل كبيرٍ في العالم، وصار بمثابة الارتكاز النوعي لكل مجتمع. وبطبيعة الحال لا يمكن للمجتمع أن يمضي بحياته دون تدوير عجلة اقتصاده بشكلٍ يتناسب ومقدّراته المادية ونموه السكاني وما يحتاجه، فلا غنى لكل مجتمع عن شيء اسمه الاقتصاد الذي يُنظم بطريقةٍ نوعية من خلال وضع نظام خاص به، يسمى النظام الاقتصادي الذي يعمل على تأهيل اقتصاد المجتمع وتنميته.

ولما كان هناك اهتمام متزايد ومستمر بعجلة الاقتصاد، فذلك لمساسهِ المباشر بحياة الإنسان مأكله ومشربه وكمالياته وجميع احتياجاته، من ذلك عُرِف الاقتصاد





كأحد الأسباب القوية في بقاء الأمم أو انهيارها، فغرضه هو تلبية جميع حاجات الإنسان، لذلك يبادر الإنسان إلى صناعته والاهتمام به، كما إن الإنسان هو ذاته من يروّج لذلك الاقتصاد، إذ إن الأمر لا يقتصر في الاقتصاد على توفير ما يحتاجه الإنسان من زاوية واحدة فقط، وإنما الإنسان يقوم أيضًا بالترويج بجسده لتسيير اقتصاده وما يرغب فيه.

## تسليع الجسد

لقد أصبح جسد الإنسان اليوم يروّج به لسلعٍ اقتصادية وكمالية كثيرة لغرض جني الأرباح ودعم الاقتصاد، فالإنسان يحتاج إلى كثير من الأشياء التي تستخدم كملابس وكماليات وغيرها، وهذه تصنعها جهات اقتصادية تستخدم الإنسان كمثال لترويج بضائعها هذه، لذلك نرى اليوم الإعلام وهو يعج بالدعايات الإعلانية التي تظهر الجسد الإنساني وهو يرتدي أزياء مختلفة أو كماليات متعددة، أو حتى الترويج لسلع صناعية يحتاجها في منزله أو عمله أو لأمورهِ الكتابية والصناعية، إذ إن هذه الشركات لا غنى لها عن استخدام الجسد كدعاية ناجحة؛ لأنها تنتج كل منتوجها هذا للإنسان ذاته، فلابد من وجود من يعكس صورة إنتاجها بفبركات إعلامية الغرض منها إنجاح عمليات الضخ إلى الأسواق.

فمروّجو البضائع الكمالية يستخدمون الجسد للترويج لبضاعتهم، فليس لهم غنى عن الأجساد التي تظهر مدى حسن بضاعتهم وكيفية ارتدائها أو استخدامها والإعجاب بها، والأجساد الفاتنة هي التي تجلب الشهرة ربما والإغواء، إذ يستخدمون الجسد الذي يتناسب مع ما يريدون من خلال اختيار الشخص الجميل المنظر بجسدهِ، أو صاحب الهيئة الرشيقة أو المتناسقة، أو عرض بضائعهم على أجساد رياضيين معروفين، لما يتميزون به من أجساد جذابة، وكل ذلك لغرض الربح من وراء هذه التجارة باستخدام الجسد الإنساني للإشهار عن منتوجات تنفع الإنسان ذاته.

وتروّج الشركات لبضائع مختلفة ولا تقتصر على أنواع معينة، فعندما تريد تسويق منتجاتها للأطفال مثلاً وتقوم بصناعة وإنتاج ما يحتاجه الأطفال من ملابس وكماليات أخرى، تستخدم جسد الطفل كوسط اقتصادي لترغيب الأسر لشراء هذه





البضائع التي تتلاءم مع أطفالهم واحتياجاتهم، والذي يُنتج ما يخص النساء يستخدم النساء لغرض الترويج. وكذا الحال مع المنتجات الخاصة بالرجال يستخدم جسد الرجال لهذه الغاية. من ذلك يمكن القول إنه لا غنى للوسط الاقتصادي عن الجسد الإنساني الذي يجعل منه مستساغًا ومقبولاً كونه قد أُعد للإنسان ذاته.

"إن الحضارة الراهنة تقوم على الإنتاج والاستهلاك اللذين ينميان القمع ويبررانه. إنها حقًّا بارعة في التجمّل، تتفنن في مواراة بشاعتها، فهي لا تكشف عن موقفها القمعي للجسد، ولا تمارس هذا القمع بصورةٍ مكشوفة، بل تحدده وتقيّده وتوجهه بما يخدم أغراضها، فإن كانت تشجع على عرض الأجسام الفاتنة العارية، فليس ذاك رد اعتبار للجسد المطرود من بيت الحكمة، أو عزمًا منها لبناء جسد غير مكبوت، فليس اعتناؤها هذا المتزايد بالجسد وعنايتها الفائقة به تلك التي لم يحظ بها من قبل إلا لمزيد من إذلاله والتنكيل به. إنه عنف آخر على الجسد، جسد بات سلعة تُنتج بالجملة تُباع وتُشترى تخضع لقوانين السوق، قانون العرض والطلب"[1].

إن كل ما يُستخدم في عرض الجسد كسلعة يُروَّج بها لمنتجات أخرى، ما هي إلا مهانة لذلك الجسد الذي بات يُعامل على أنه وسيط لنقل هذه الأشياء ولا يعتد به، ولا بما يحويه ككيان له خصوصيته، لذلك يفقد الجسد عندما يُسلّع هيبته ويخرج عن دائرة التقدير، ويصبح مجرد بيدق من بيادق الشطرنج التي يحرّكها الإنسان ذاته كيفما يشاء، فهو بات سلعة مهمة ورئيسة للترويج للسلع الأخرى الصناعية التي يريد منتجوها الترويج وجني الأرباح من خلالها.

وفعلاً إن ذلك هو عنف على الجسد من خلال إخراجه من سياقات التعامل الإنساني إلى سياقات المتاجرة به كسلعة معينة، يكون الغرض منها هو تحقيق المكاسب الشخصية، والتي لا تزيد الجسد رفعةً، وإنما انتكاسة له تحط من مكانته، وتظهره بصورةٍ غير مُرضية وغير مفيدة لمكانة الإنسان والجسد البشري.

لقد عرَّف "بورديو" رأس المال الاجتماعي بأنه العلاقات الاجتماعية التي يُستثمر فيها الناس، ورأس المال الثقافي مثل المؤهلات التعليمية، ورأس المال الرمزي

---

(1) د. عبد الرحمن التليلي، مصدر سابق، ص 162.





هو الشرف والاحترام اللذان يتمتع بهما الناس، والجسد الإنساني على أنه ذاته هو جزء من رأس المال هذا الذي يُعطى له عند البشر قيمة[1].

ولما كان الإنسان يُنظر له على أنه رأس مال بحد ذاته، لذلك فقد استُغل لأبعد الحدود للاستفادة منه أقصى فائدة، فلا يجسّد المنفعة كما هي غير الجسد الإنساني ذاته، لذلك يميل أصحاب التجارة إلى استغلال رأس المال هذا لتحقيق ما يصبون إليه من منافع؛ لأن ما ينتجونه يحتاج إلى ترويج ودعاية، ولن يقوم بها بشكلٍ أفضل ومطابق إلا الجسد البشري على حساب قيمتهِ ومكانتهِ.

اليوم تقوم الكثير من الشركات والمؤسسات الإنتاجية بالترويج لمنتجاتها باستخدام الجسد البشري الذائع الصيت أيضًا، ولا تكتفي باستخدام العامة من الناس، فهي تقوم باستدراج المشهورين من الفنانين والرياضيين بمختلف أنواعهم للترويج لبضائعها، باستغلال أجسادهم ومكانتهم وقيمتهم في المجتمع.

فالذي يُنتج ملابس وكماليات رياضية يروّج لها باستخدام الرياضيين حتى تجد قبولاً ورواجًا لدى العامة من الناس، أي استغلال جسد الرياضي بهذه الطريقة لتصريف المنتجات وجني الأرباح، والذي ينتج معدات منزلية يستخدم أيضًا المشهور للترويج لمنتجاتهِ، وأصحاب الملابس أيضًا يستخدمون من هو ذائع الصيت وهكذا. إنها تجارة لا خسارة فيها، الوسيط الرئيس فيها هو الجسد الإنساني الذي يعتبر جسرًا أو ممرًّا لكل هذه المنتجات، وبالتالي سقوط مكانة الجسد وامتهانه من قبل المضاربين والتجار، بل هو تعدّ صريح على مكانة ذلك الجسد وانتهاك حرماتهِ من خلال تسليعه، واستخدامه كوسيلة للوصول إلى الغاية المنشودة.

إن الثقافة التجارية باتت تنظر للجسد على أنه سلعة يراد منها الوصول لغاياتٍ معينة، ولا يمكن لهذه الثقافة أن تستغني عن الجسد؛ إذ إن ما تنتجه هو للجسد الإنساني، لذلك تستثمره بطرقها الفاحشة لغرض الوصول إلى مبتغياتها المتعددة.

لقد اعتُبر جسد المرأة مختلفًا عن جسد الرجل، وأدنى مرتبة منه بسبب وظائفها التناسلية، وظلت هذه الفكرة سائدة لفترات طويلة رغم مطالبات المرأة بالكف عن هذا التصور، ورغبتها بتولي مناصب قيادية في عالم التجارة وغيرها. وبرزت نظريات

---

(1) هيلين توماس وجميلة أحمد، مصدر سابق، ص 155.





أخرى تكلمت عن وضع المرأة وهرموناتها، وما المطلوب منها أن تتولاه، وما هو الشيء الذي لا ينبغي أن تقوم به في عالم الوظيفة والعمل، الأمر الذي عمَّق من الهوة بين مكانتها ومكانة الرجل الذي كان يتمتع بكل المزايا المهنية[1].

وهذه النظرة الدونية لجسد المرأة قد حرمتها الولوج في كثير من ميادين الحياة. وبسبب وضعها المشار له ونظرة الآخر لها، قد تم استخدامها كسلعة في مواقع أخرى ترضي المنتفعين بها. من قبيل مثلاً استخدام جسدها للترويج للبضائع، وجعلها مادة إغرائية تجذب المشاهدين لها، دون الأخذ بنظر الاعتبار قيمة ومكانة الجسد الأنثوي، الذي لا ينبغي التعامل معه كسلعة تجلب المنافع فقط، وإنما ككيان مثله مثل الكيان الآخر المتمثل بالرجل.

لذلك باتت المرأة كسلعة تكمن قيمتها في مظهرها وجاذبيتها، فحتى تحصل على الرجل مثلاً يجب أن تظهر بمظهر يليق بها كسلعة وليس ككيان إنساني[2]. إذ تسبغ صفة الجمال على المرأة وكأنها لعبة يحتاجها العالم بأبهى صورة، لكي يحتفظ بها أو يستخدمها، ولا يعير أهمية لما تبدو عليه وجوهرها الداخلي، وإنما التعامل معها كشيء يحتاج إلى تلميع وإدامة على الدوام حتى يكتسب المقبولية، وإلا لا يمكن أن يحظى هذا الجسد بأي شيء يقربه إذا ترك ذاته على حالها، دون معاملته كسلعة أو شيء يحتاج إلى إظهاره بمظهرٍ برَّاق لجذب أنظار المراقبين له.

كذلك لعبت ثقافة العري دورًا كبيرًا في تسليع الجسد، من خلال إسباغ صفات التعري عليه، وإظهاره بالمظهر الذي يتلاءم والطموح المنشود من ذلك.

يمكن القول إن التعرّي والعُري (Nudity) هو الحالة التي تشير إلى عدم ارتداء الإنسان الملابس، وفي بعض الحالات قد تستخدم الكلمة للإشارة إلى ارتداء الملابس، ولكن ليس وفق العادات والتقاليد المنصوص والمتفق عليها من قبل الثقافات المجتمعية[3]. بمعنى ظهور الجسد في كله أو بأجزاء منه عاريًا. وتتوقف تسمية الجسد

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 76.

(2) المصدر نفسه، ص 95.

(3) د. محمد حسام الدين إسماعيل، **الصورة والجسد: دراسات نقدية في الإعلام المعاصر**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2008، ص 199.





العاري بحسب طبيعة وسياقات وتقاليد المجتمعات، فهناك مجتمعات تعد الجسد عاريًا عندما يكون مجردًا نهائيًّا من الملابس، أي إن ارتداءه لبعضها لا يمثل عريًا، في حين أن هناك مجتمعات أخرى تعد الجسد عاريًا عندما يكشف عن بعض المناطق المحددة، وفق منظومته الثقافية والمشرعة في دياناته، كأن تكون منطقة الصدر والرجلين وغيرهما.

ولعل العري من وجهة نظر الكثير هو حالة صحية طبيعية تعبر عن أنقى صورة بشرية، حيث إن كل الناس قد ولدوا عراةً، ومن يتعود على ذلك يكون تكيفه بين العراة أسهل وأسرع، ويصبح ذلك جزءًا من حياته[1].

ولا يمكن لنا أن نستغرب إن لاحظنا أن هناك أقوامًا قديمة كانت عراة، وتمارس العري في حياتها وطقوسها ومناسباتها، إذ كان العري يشكل جزءًا من ثقافة هذه الأقوام. على أن هذه الأساليب لم تختف بشكلٍ كبير بعد تطور الحياة ووصولها إلى العصرية، وإنما هناك دعاة للعري الذي يشمل التجرد من كل الملابس، وهم بنظر مجتمعات وثقافات أخرى يعيشون العري بملابسهم القصيرة وغير المحتشمة.

على أن الكثير اليوم يحاول إحياء تلك العادات القديمة في التعري، وجعلها أساليب من الممكن تقمصها والاستمرار عليها مدى الحياة، وفي كل التعاملات الاجتماعية التي يخوض فيها الإنسان حياته.

وفي ما يتعلق بتسليع الجسد باستخدام ثقافة العري، دأب الكثير إلى استغلال جسد الإنسان لتحقيق مطامحه ورغباته بإظهارِه عاريًا أو شبه عاري للترويج لما يريد الاستفادة منه، أي الكشف عن أعضاء الإنسان بتعريتها لجذب أكثر عدد ممكن من المقبلين عليها لتحقيق الرصد المصلحي الخاص، دون إعارة الأهمية الكبيرة لقدسية الجسد الإنساني وضرورة الحفاظ عليه.

فقد تظهر لنا أجساد بشرية نحن نعدّها عارية بلباس غير محتشم للترويج لبضاعةٍ معينة أو الإشهار لمشروع ما، وفي ذلك امتهان للجسد وانتقاص من كرامته، وقد لا يُعد ذلك معيبًا ويبدو الأمر وكأن شيئًا لم يكن.

---

(1) المصدر نفسه، ص 209.





ومن ضمن استغلال الجسد كسلعة للحصول على المكاسب غير المشروعة تعريته في المواد الإعلامية الفاضحة، التي تدخل في سياق الأفلام اللا أخلاقية، والفيديوهات التي تصور الجسد عاريًا، ويقوم بالعمليات الجنسية والأعمال الخادشة للحياء، غرضها امتهان الجسد مقابل الحصول منه على ما يعزّز المال والثروات.

لذلك بات الجسد سلعة تباع وتشترى في كثيرٍ من أصقاع العالم ووفق المتعاملين معه، لعدد من الأغراض التي يبتغونها من تسليع الجسد وإفقاده لخصوصيتهِ ومكانته كجسد إنساني، يستحق أن يتم التعامل معه وفق أسس صحيحة ترتقي به للأمام.

## المتاجرة بالجسد

ولعل الوسط التجاري قد ضم كثيرًا من الممارسات، والتي على أساسها نشطت عمليات البيع والشراء والاستثمار والمتاجرة. ومن ضمن الأشياء التي أدخلتها التجارة وأصبح لها باع طويل فيها: تجارة الجسد الإنساني، أو ما قد يفعل به من عرضه كسلعة للتداول والربح والبيع والشراء.

ونحن لا يخفى علينا أن كل عمليات الاقتصاد يُفترض أن تسير وفق أسس صحيحة لبناء المجتمعات، لكن هناك أسس اتبعت قد جعلت أبواب الفساد تفتح على مصراعيها، من خلال الاستخدامات غير المشروعة التي لوَّثت المشاريع الاقتصادية، وأصبح هاجسها الأكبر هو تحقيق الربح بأي وسيلة كانت، أي الوصول لغاياتهم دون مشروعية الوسيلة المستخدمة.

ومن بين هذه الأشياء التي تشير إلى التجارة غير الصحيحة المتاجرة بالجسد، وذلك الأمر ليس بالجديد، إذ عُرف منذ فترةٍ طويلة مع ظهور فساد الأمم من خلال المتاجرين وأصحاب السوق السوداء، وتجار العصابات والجريمة المنظمة.

يقصد بتعبير المتاجرة بالأشخاص وأجسادهم هو تجنيد أشخاص أو نقلهم أو إيوائهم أو استقبالهم، من خلال القوة أو التهديد، أو النصب أو الاحتيال، أو إساءة استعمال السلطة أو استغلال ضعف هؤلاء الأشخاص؛ لاستخدامهم واستغلالهم





استغلال دعارة، أو سائر أشكال الاستغلال الجنسي، أو السخرة أو الخدمة قسرًا، أو الاستعباد وغيرها[1].

لقد بات الجسد عرضة لانتهاكٍ صريح عومل به وكأنه أي سلعة ممكن أن يتم التعامل بها، وبذلك ومن خلال تعاملهم هذا اختفت شخصية ذلك الجسد، وكأن الإنسان الذي يروّج لجسدهِ في عمليات تجارية ليس إنسانًا، وإنما شيء ثمين يكنزون منه الأموال، فلا قيمة لإنسانيتهِ وحرمة بيعهِ وإذلالهِ وتسويقهِ بطرقٍ غير قانونية أو شرعية.

إن من بين الأمور التي أصبح الجسد فيها عرضة للانتهاك قيام المضاربين والمتاجرين بأجساد الإنسان بتكوين خطوط منظمات إجرامية، يكون وسط التعامل فيها هو الإنسان، وهو الثروة التي يبتغي نقلها وتسويقها وعرضها إلى جهاتٍ أخرى لجني الأرباح ورصد الأموال، إذ إن هناك منظمات وهي ما تسمى بمنظمات الجريمة المنظمة مثلاً تتاجر بأجساد النساء، إذ تقوم بنقل مجاميع من النساء من مكانٍ إلى آخر بقصد بيعهن إلى جهاتٍ أخرى لها حرية التصرف بهن وفي كافة المجالات.

لقد اعتبرت الأمم المتحدة عملية المتاجرة بالنساء والأطفال تمثل شكلاً من أشكال العبودية، فضلاً عن إدانة كثير من الجهات العالمية المهتمة بهذه الأمور هذا النوع من المتاجرة، واعتباره اعتداءً وخرقًا لحقوق الإنسان[2]. إذ قد تتعرض المرأة في كثير من المجتمعات إلى عدة ظروف تجعل منها عرضة لكثيرٍ من المغريات، التي تدفعها إلى الوقوع في شباك مثل هكذا جماعات؛ فيتم استغلالهن مقابل إعطائهن بعض الأموال، ومن ثم ابتزازهن والمتاجرة بهن في كثير من الأمور وحتى الإباحية منها، وتنظم تلك الجماعات عملها مع جماعات أخرى في مناطق متعددة فتصدّر لها تلك النساء، لاستغلالهن وبيعهن أيضًا إلى أي جهة أخرى كانت.

---

(1) محمد يحيى مطر وآخرون، **الجهود الدولية في مكافحة الاتجار بالبشر**، الرياض، ج1، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2010، ص 7.

(2) د. أحمد سليمان الزغاليل، **الاتجار بالنساء والأطفال**، ندوة علمية عقدت في تونس، الظواهر الإجرامية المستحدثة وسبل مواجهتها، الرياض، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، 1999، ص 44.





ويتم نقل هؤلاء النساء إما برًّا أو جوًّا إلى مناطق مختلفة في أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية وأستراليا والشرق الأوسط، إذ يجد هؤلاء النسوة أنفسهن مجبرات على الدخول في هذا العالم القذر لعدة شهور، أو حتى سنوات، دون الحصول على ما يتمنونه، ويتم استعبادهن بأبشع الطرق الأخرى التي قد تؤدي في حالات أخرى إلى فقدان حياتهن أيضًا[1].

إذن فالأمر هو تجارة بيع وشراء بجسد إنساني ألا وهو جسد المرأة. وقد انتشرت هذه التجارة غير القانونية في كثير من بلدان العالم، وأُطلقت عليها عدة تسميات منها "تجارة الرقيق الناعم". وتنوعت الاستخدامات والغرض من بيع النساء هذا، فهناك جهات تحتاج إلى نسوة في أعمال لا أخلاقية وإباحية، فتجد ضالتها عند جهات أخرى تمدها بهذا المنتج وبأبخس الأثمان بالنسبة للمرأة الواحدة، فهي أصبحت مملوكة للجهة التي تستخدمها وما يعود من فوائد كثيرة فهي لهذه الجهة، أما هي فنصيبها من ذلك الثمن الزهيد، مستغلين بذلك ضعفها وظروفها وشذوذ كثير منهن.

ويمكن القول إن الوضع الاجتماعي المتدني للنساء وضعف فرص التعليم والعمل، يجعلهن أكثر عرضةً للدخول في تجارة الجنس، الأمر الذي جعل الكثير من دول جنوب آسيا بسبب هذه النظرة الدونية للنساء تسعى للتخلص منهن، بينما يتم التعامل معهن في دولٍ أخرى على أنها سلعة جنسية ليس إلا[2].

وعلى أساس ذلك ذاعت وانتشرت تجارة الجنس التي تقوم على المتاجرة بأجساد النساء، وبيعهن إلى عدة دول في العالم لاستخدامهن للغرض الجنسي، ووفق مبالغ مادية هائلة تعود لهذه المنظمات بالربح الوفير. وقد تطورت هذه التجارة بشكلٍ كبير مع انتشار الجرائم غير المنظمة في العالم، والتي على أساسها أصبح جسد المرأة سلعة تباع وتمتهن في كثير من الأوقات.

ولا يشذ عن هذا الأمر أيضًا المتاجرة بأجساد الأطفال لعدة أغراض متنوعة، فمن بين الأشياء المهينة التي تستخدمها هذه المنظمات جعل الطفل مجرد شيء يُباع

---

(1) المصدر نفسه، ص 43.

(2) المصدر نفسه، ص 47.





ويشترى، إذ إن كثيرًا من الأطفال وبسبب العوز والتخلف وظروف الأُسر غير القويمة والانحرافات المختلفة، قد جعلهم بمتناول مثل هكذا عصابات تقوم باستغلالهم وكأنهم مملوكين لها، إما بالقوة وهي التي تكون على الأغلب، أو التعهد برعايتهم بمبالغ بسيطة من ثم استغلالهم استغلالاً فاحشًا.

يُباع هؤلاء الأطفال وفق صفقات مربحة غير شرعية، وتأخذهم جهات متعددة لاستخدامهم في عدة مجالات إما لأغراض السرقة، أو العمل في أعمال أخرى غير مشروعة، أو استغلالهم جنسيًّا، أو المتاجرة بشكلٍ كبير بأعضائهم، وكذلك باستخدامهم لتنفيذ عمليات إجرامية متنوعة.

إن هناك الآلاف من النساء والأطفال الذين يتم إغراؤهم يوميًّا للدخول في عالم تجارة الجنس، مقابل وعدهم بالحصول على ما يؤمن حياتهم ومستقبلهم[1]، وهذا ما يكتشفه هؤلاء الذين يتم المتاجرة بأجسادهم من النساء والأطفال، من أن ذلك هو مجرد ابتزاز، وأنهم لن يحصلوا على ما يتمنونه، وإنما الأمر هو المتاجرة بأجسادهم بأي مجال جيد أم رديء، لغرض الوصول إلى ما خططوا له وهو جني الأرباح الطائلة، حيث يعد الجسد بالنسبة لهم سلعة يتم التحكم بها وفق ما يريدون.

وعلى الرغم من إصرار دول العالم على القضاء على هذه الممارسات في المتاجرة بالأطفال وسرقة أجسادهم، إلا أن عمل هذه المنظمات ما زال رائجًا، وتشكل الجريمة الكبرى والتي تمثل احتقارًا للنوع الإنساني، هي جريمة المتاجرة بأعضاء الإنسان وبيعها إلى جهات تستفيد منها بشكلٍ كبير جدًّا.

إذ توجد جهات تحتاج إلى بشر لغرض إجراء الدراسات والتحليلات عليهم غير المشروعة، فلا طريق لها للحصول على أجساد البشر إلا من خلال شرائهم عن طريق هذه المنظمات، أو إن هناك جهات تشتري أعضاء الجسد لجهات أخرى تدفع مبالغ طائلة، علمًا أن ذلك الأمر على الأغلب يتم دون رغبة الإنسان ذاته باستغلالهِ وابتزازه، أو حتى يتم الأمر دون علم منه، فيجد الشخص نفسه هذا إن لم يمت وقد فقد أحد أعضاء جسده، لغرض بيعه دون فائدة تذكر للشخص الذي تم

---

(1) المصدر نفسه، ص 43.





أخذ العضو منه، وإنما المبالغ المدفوعة هي من نصيب تلك المنظمات التي انتهكت حرمة ذلك الشخص، وسرقت أعضاءه بشكلٍ مروّع.

وذلك الأمر قد فتح المجال واسعًا لما يسمى بتجارة الأعضاء الجسدية من خلال بيع أعضاء الأجساد، وفق جريمة بيع الأعضاء والمتاجرة بها. ولا تقتصر جريمة بيع الأعضاء الجسدية على فئةٍ دون أخرى، إذ قد تباع أعضاء طفل أو امرأة أو رجل، المهم من كل ذلك هو وجود من يأخذ هذه الأعضاء ويطلبها لأغراض مختلفة مقابل أموال طائلة تعود على الجهة التي سرقت تلك الأعضاء بالفائدة الكبيرة.

ولا يقتصر المتاجرة بالأعضاء الجسدية على المنظمات الكبيرة فقط، وإنما هناك من يقوم بها على مستويات صغيرة، كسماسرة يقومون بعمل شبكة بالقرب من المستشفيات التي يرقد فيها المرضى، ويحتاج البعض منهم لأعضاءٍ، فيعرضون خدماتهم عليهم بأسعار خيالية، يبتزون فيها المريض وذويه لغرض الحصول على العضو المطلوب.

وهذه الأموال تنتفع منها أطراف معينة سواء كانت على مستويٍ صغير وحتى على مستويات أكبر، ويختلف سعر العضو بحسب أهميته للحياة، ووفق حاجة المريض ومدى رغبته في شرائه بأسرع وقت.

أيضًا قد لا يقتصر الأمر على منظمات وشبكات إجرامية متخصصة بهذا النوع من التجارة، إذ قد توجد شبكات أخرى في داخل المؤسسات الطبية تقوم بالمتاجرة بالأعضاء، وقد تسرق الأعضاء أو تبتز المريض أو تتعامل معه وتغريه.

كل ذلك لا يُظهر إلا صورة واحدة، وهي أن الجسد بات وسطًا مهمًّا للمتاجرة به، ولاستغلاله لجني الأرباح والأموال وبشتى الطرق التي تمتهن ذلك الجسد وتحط من قدراته، وتجعله أشبه ما يكون بالشيء الجامد الذي بإمكاننا التصرف به وفق ما نمتلك من حدود وسلطات، لذا فالجسد هنا قد تحول إلى شيءٍ أصم لا يراعى من خلاله إنسانية ذلك الذي يضم الجسد ولا شخصيته، ولا كونه إنسانًا يحمل مشاعر وأحاسيس، وله مركزه وتفضيله على باقي مخلوقات الحياة.

إننا نخشى أن يكون الجسد قد فقد قيمته نهائيًّا مستقبلاً، ويصبح مجرد وسط أصم ممكن التصرف به وفق ما نريد ونشتهي. ولعل الوسط الإباحي والذي يمارس





الإباحية الجنسية يمكن أن يكون قد انتهك حرمة الجسد الإنساني، وجعله مجرد آلة تعطي الرغبات الجنسية لمريديها، إذ إن الشاذ جنسيًّا الذي باع جسده لتحقيق غاياتٍ معينة يكون قد انحدر من بيئة نحتت على جسدهِ نزوع الشذوذ، الأمر الذي يجعل منه متبنيًا أصيلاً لما وجد نفسه وقد غار فيه.

## ما تسبغه القيم المجتمعية على الجسد

إن ما يظهر به الإنسان بجسدهِ من تصرفات ومشاعر وأحاسيس وتحركات نابع بشكل نوعي من قيم وممارسات وعادات ما نشأ فيه، إذ إنه لا يمكن أن يخرج عن صورة البيئة التي وجد فيها، لذلك يتصرف الجسد الإنساني وكأنه مُلقَّن وفق ما يمليه عليه المجتمع، فيحاكي قيمه وعاداته ويلبس تمظهراتها المختلفة، ويشكل الخروج عنها خروجًا عن الجادة المجتمعية التي يحيا فيها ويؤسّس حياته من خلالها.

"فالمجتمع إذن هو الذي ينحت رموزه ويطبع قوانينه في جسد أفراده، ويتم ذلك بطرقٍ مختلفة باختلاف المجتمعات والحضارات واختلاف الأزمنة، فالمعلوم مثلاً أن بعض المجتمعات (البدائية) كانت ولا تزال تطبع علامات خاصة على أجساد أفرادها، الذين ينتقلون من سن المراهقة إلى سن الرشد، وهذه العلامات هي عبارة عن جروح وندبات يتعذر محوها، وهي تؤدي دور الذاكرة الجماعية، وتجعل كل فرد لا ينسى وضعه كفرد ينتمي إلى مجموعة ما، وهذا ما نراه ينطبق على مسألة الختان والخفض واستمرارهما، فكل ذلك هو من أجل الانتماء إلى المجموعة والتحول إلى عضو من الجسد الجماعي، وإلا فالإقصاء والتهميش إذا ما اضمحل الاهتمام الذي يربط الفرد بالمجموعة"(1).

وما ذلك إلا تحديد هوية للفرد من أن قيمه تقوم على ما وضعوه له، ويجب عليه الالتزام بها دون الخروج عليها، وهي التي تسيّره وتنظم له حياته وتساهم في بناء شخصيته وفق هذا الأساس، فيتشكَّل جسده وهو يدور في فلك هذه القيم والممارسات التي تفرضها ثقافة وقيم المجتمع الذي يعيش فيه.

---

(1) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 64.





وتختلف المجتمعات عن بعضها الآخر في ما تفرضه من قيم على أجساد الأفراد، وما تعرضه لهم من طقوس وممارسات، فهناك المجتمعات التي تبالغ بشكل كبير في الطقوس التي تفرضها على أجساد الأفراد، كنوع من أنواع القيم الثقافية التي يلتزم بها ذلك المجتمع، وعدم المرور أو التعرض لها يُعد خرقًا لقيم ذلك المجتمع وقوانينه وعاداته.

في حين أن هناك مجتمعات أخرى قد لا تحوي على هذه المبالغة في تعريض الجسد لهذا الكم من الطقوس، وإنما قد تكتفي ببعضها الذي لا يثير أي انتباه كبعض الاحتفالات البسيطة، والتي لا تؤذي أو تترك آثارًا على الجسد، وذلك يتبع نوعية الميراث الثقافي القيمي الذي نشأ عليه المجتمع، ويحاول تلقين أفراده كل ما يجري فيه.

وذلك هو ما نشأت عليه المجتمعات، وما زالت على هذه الشاكلة، فالفرد الذي ينشأ في أسرته تبدأ تلك الأسرة بتعليم وتنشئة وتلقين ذلك الفرد كل ما تقوم به هي وما نمَّطت حياته عليه، فهي تربيه وفق عادات تعدّها قانونًا لا يجب الخروج عليه، وتنهيه عن قيم وممارسات تعدّها خرقًا لقوانينها.

وبالطبع تتشرَّب الأسرة معانيها وقيمها من البيئة والمجتمع الذي تعيش فيه، لذلك نلاحظ اختلاف صور المجتمعات من مكانٍ إلى آخر، ومن فترةٍ زمنية لأخرى، وذلك الاختلاف فحواه أن المجتمع تتشكل فيه عدة ثقافات تمنح الفرد عدة سلوكيات وتمظهرات مختلفة.

إننا لا نستغرب عندما نرى هناك أشكالاً بشرية مختلفة، إذ يظهرون في عدة صور من ناحية المظهر ومن ناحية السلوكيات والأفعال والتوجهات والتصرف وفق التعاملات في الحياة، إذ إن هناك بشرًا يظهرون بأزياء متنوعة تختلف عن غيرها من المجتمعات، ولهم طقوسهم المختلفة التي لم تتساو في كل الفترات، وذلك نابع وتابع إلى ثقافة ذلك المجتمع وأعرافه.

فالفرد وفقًا لما وجد مجتمعه عليه ينساق وفق ذلك، ويحصره ضمن التعاطي مع المجتمع وعدم الخروج عليه، لذلك فهو يلبس ويأكل ويتزين ويتكلم في حدود ما أقرَّه المجتمع واتفق عليه. من ذلك يبرز القول إن الإنسان ابن بيئته، لكن ذلك لا يعني أن





الإنسان دائمًا يسير وفق تصورات مجتمعه وقيمه وعاداته وتقاليده. فقد يخرج الإنسان عن كل هذه القيم ويتصرف بجسدهِ خلاف ما عرف به المجتمع؛ فيناقض بذلك عادات مجتمعه ويخرج عن الإطار العام، ويكون بذلك قد استخدم جسده لأغراض تنافي الواقع الاجتماعي الذي عاش فيه. ومن المؤكد أنه بذلك سيتعرض لاستهجان مجتمعه، ومن الممكن على أساس ذلك القصاص من هذا الشخص وفق الأعراف أو القوانين الاجتماعية المعمول بها في المجتمعات المختلفة.

كما إن المجتمعات المتحضرة تمنح الجسد حرية أكبر، حتى وإن كانت الحرية مؤداها القضاء على ذلك الجسد، فقد يستخدم الفرد جسده بصورٍ شتى وأنواع مختلفة لا يعير أهمية لعرف مجتمعه وعاداته وتقاليده، ومظاهر الجسد لا يمكن أن تكون ذاتها في كل المجتمعات.

فالأفراد الذين يرتدون أزياء تظهر أجسادهم في بعضها عارية، تعوّدوا على هذه الصور على أجسادهم من خلال ما ترسّب في دواخلهم من قيم وأسس بُنيت عليها مجتمعاتهم، وتلبسوها في مهارات حياتهم، وكذا الحال في المجتمعات التي يرتدي أفرادها عدة صور من الأزياء، إذ نلاحظ أن الجسد يظهر بأشكال مختلفة، فهناك ثقافات ترتدي مثلاً الملابس القصيرة وغير المحتشمة بالنسبة للرجال والنساء، وأخرى تكون على العكس من ذلك كله، إذ نرى مجتمعات ترتدي ملابس محتشمة ومطبقة للتعاليم العرفية والدينية، وما يخرج عن ذلك مما يُظهر به الإنسان جسده من زينة أو شكل آخر، فلا يمثل ذلك إلا انعكاسًا لواقع وميراث تلك المجتمعات، فالجسد في كل هذه الأحوال هو مستقبل ولا شأن له في تغييرها، وقد يغير لغايات أيضًا يبتغيها المجتمع.

كما إن مركز الفرد وقيمته الاجتماعية ومنزلته تتحدد من خلال ما يتطلّبه المجتمع منه، وكيفية تناغم جسده مع ذلك المجتمع، فعندما أكون محترمًا ومتزنًا ينبغي للمجتمع النظر إلى الجسد بصورةٍ تعكس ذلك الاحترام والاتزان، وتعكس المركز الذي أصبحت فيه وبدأت أمارس حياتي من خلاله.

فالمجتمع يفرض على الفرد بناءه بما يشتمل عليه من طقوس وممارسات وعلاقات، وبالمقابل يبدأ الفرد بجسده بانتهاج الحياة وفق تلك القواعد التي تؤهله لنيل البقاء في المجتمع كإنسان.





وربما ما يقوم به الفرد في مجتمعات أخرى تختلف عن مجتمعه قد يُعد مستهجنًا وغير مقبول في مجتمعه، لكنه شيء اعتيادي ومباح في المكان الذي يختلف عن بيئته ومجتمعه وثقافته، حتى إن الأمر قد لا يختلف في المجتمع الواحد، إذ يتربى الفرد على عدة قيم مجتمعية تعزز مركزه وقيمه. وقد تختلف تلك القيم من مكان لآخر في داخل المجتمع الواحد، وبذلك يفترض على الفرد الاعتراف بقيم المكان الذي يذهب له للحصول على المقبولية التي تتيح له الاحترام والمنزلة الراقية.

وتختلف القيم الريفية في تأهيل الفرد عنها من القيم الحضرية، فالفرد الريفي يحمل في كيانه قيم الريف ومنطلقاته التي تربى عليها، ويحاول قدر الإمكان الحفاظ عليها، وهي التي تمنحه الاحترام والمكانة أمام أسرته وعشيرته، وربما ما يمارسه من قيم قد تتنافى في بعضها مع ما هو موجود في الحضر وقيم المدينة، إلا أن الفرد يسعى للمواءمة بين كلا النمطين من القيم لخلق بيئة تحترم ذات الفرد دون الاستهجان من قيمه.

ولما كان الأمر يتعلق بالنمطية المتخذة في كل منطقة من ناحية التمسك بالعادات والقيم، لذلك فإن ابن الريف يبتغي أن يكون كل أفراد بيئته على شاكلة واحدة لا تخرج عن أدوارها وممارساتها، والخروج عنها بمجرد مخالفتها أو التسلط عليها يعني أن يصبح ذلك الشخص ذا منزلة متدنية خارجًا عن العرف المتفق عليه بينهم، في حين قد يعد ما يقوم به مستساغًا وليس ذا أثر على الإنسان عند ابن المدينة، لكن التقاليد والالتزام بها قد وضع هذه الاعتبارات بينها.

وحتى يكون الإنسان انعكاسًا لصورة ملتزمة غير مستهجنة أو مخالفة للقوانين، لا يجب عليه أن يلتزم فقط بما يدور في داخله أو ما تمليه عليه ذاته، وإنما يجب الأخذ بنظر الاعتبار كل ما هو موجود في داخل بيئته من التزامات وأنماط يكسب من خلالها احترامه وتقديره، على أن لا يكون ذلك الاتساق مع المجتمع حتى في أخطائه، وإنما السير وفق الأعراف قدر ما يستطيع، والذي يحفظ له مكانته وتقديرها، وإن كانت لديه كثير من الملاحظات على منهج مجتمعه وطريقة التعامل معه أو تنميط الحياة وفقًا له.





## تمظهرات المناخ وملاءمة الجسد لها

وبتغيرات المناخ المختلفة، والتي تشمل الطبيعة والحياة بأكملها، لا يشذ الجسد الإنساني عن باقي الكائنات الحية الأخرى من تأثرِهِ بتمظهراتِ المناخ وتقلباته، وما قد تتركه تلك التغيرات من آثار كبيرة عليه؛ فالروح لا تشعر بالبرد أو الحرارة أو التعب أو الإعياء أو الإرهاق شعورًا ماديًّا، وإنما كل هذه تكون من نصيب الجسد الذي يُبتلى بكل هذه الأشياء، وتظهر هذه الآثار على الجسد من خلال تعرضه للحرارة اللاهبة مثلاً، وما قد تفعله من حرق أو تشويه الجلد أو الإصابة ببعض الأمراض من جرائها، فيتغير شكل الإنسان تبعًا لذلك.

وقد نلاحظ أن الإنسان الذي يعيش في المناطق ذات الحرارة المرتفعة غالبًا ما يؤثر ذلك على أجسادهم، ويبرز في اللون الذي يميل إلى السمرة والسواد، وعلى أساس هذه التغيرات اتخذ الجسد له صفات أخرى تتلاءم مع تلك الظروف.

فالإنسان في المناطق الحارة سيمارس كل ما يتلاءم معها من أعمال وسلوكيات، ويظهر بمظهر يختلف عن إنسان المناطق الباردة مثلاً؛ فيلبس الملابس الخفيفة دون الثقيلة والتي لا تجذب الحرارة وإنما تعكسها، ويأكل ما هو مناسب لمثل هكذا أجواء. وحتى السلوكيات والأمزجة تتغير على أساس التغيرات المناخية سواء الحر أو البرد أو أي تغير آخر. أما المناطق الباردة فينعكس ذلك على أجساد الناس الذين يعيشون فيها، وغالبًا ما يكونون ميالين إلى البشرة البيضاء أو الفاتحة، لعدم تعرضهم الدائم للحرارة اللاهبة.

لذلك بات هذا الشيء مفيدًا من ناحية تصنيف الأمم حسب مناطق توزيعها الجغرافي، وأصحاب المناطق الباردة يكيّفون أجسادهم لما هو موجود من جو بارد؛ فيلبسون ما هو ثقيل يقي أجسادهم هذا البرد، ويأكلون ويتحرّكون مع أطر هذا الجو الموجود، حتى إن المجتمعات التي تخضع لجو معين تطوّع ذلك الجو لخدمة أغراضها، من خلال إنشاء عدة مشاريع تقوم على أساس هذا الجو وتنجح من خلاله. وكذا الحال في المناطق المعتدلة واستثمارها للسياحة، والتي يكون أثرها على الجسد أخف من المناطق الأخرى.





ولا يمكن لنا أن نرى أو نسمع يومًا أن روح الشخص الفلاني قد تأثرت بالبرودة أو الحرارة أو تغير مناخي آخر، وإنما نقول إن الجسد الإنساني ضعف مثلاً أمام حرارة الجو اللاهبة، أو مرض أمام برودة الجو القارصة. وحتى في التغيرات المناخية الأخرى من قبيل مثلاً الزلازل والبراكين والهزات الأرضية والفيضانات، فلكونها مادية الوجود فمن تتعامل معه وتجده ملائمًا لها هو جسد الإنسان الذي يتأثر بشكل كبير بها وبتغيراتها.

لذا فالمجتمع ينحت ما يريده على بناء جسد الفرد، إذ إنه هو الذي قد شكَّله بهذه الصورة، وهو الذي جعل منه متعاطيًا مع كثير من الأمور التي يجد أنه ملزم بها وبالأخذ بها، ومن خلال تاريخه تبرز ملامح ذلك النحت، ووفق الحالات والبيئات التي يعيش فيها وينشأ من خلالها ويتقمص أدوارها ويعمل وفق مقتضياتها.






مكتبة
التنوير

## الفصل الرابع

# لغة الجسد وتقنيات تحركاته في المجتمع







في خضم كل ذلك فللجسد تحركات وأوضاع يظهر فيها في سيرورات وجوده في المجتمع، إذ يمارس الجسد عدة أشكال من الصورِ الحركية والمدمجة بإشارات وإيماءات ورموز يبغي منها الوصول إلى ما يريد من خلال محاكاة الواقع والتصرّف على أساسهِ. وقد اختلفت هذهِ التقنيات التي يستخدمها جسد الإنسان بحسبِ الفترات الزمنية، وبحسب الموقع الجغرافي الذي عاش ويعيش فيه الإنسان، ففي قديم الفترات الزمنية كانت للإنسان صور أخرى لجسدهِ، وهذه الصور تحوي في دواخلها الكثير من الغايات، وعندما كانت تلك الأجساد في تلك الفترات بصورٍ معينة، فهي لها حركات وقوانين للسير والكلام والتحرك والتفاعل تختلف عن ما هو موجود حاليًا ومُشاهد.

وعلى أساس ذلك ظهرت المجتمعات بعدة ثقافات قد تكوَّنت وفق ما جعلته خاصًّا لها، واستقرَّت على ممارسة أشكال تفاعلية قد تختلف عن غيرها من الثقافات، الأمر الذي جعل هناك عدة ثقافات لمجتمعات لها نسيجها الاجتماعي الخاص بها، إذ إن الشعوب القديمة لها تقنياتها الخاصة في التعامل مع أجساد أفرادها، ويقينًا هي تختلف عن غيرها من الثقافات أو الشعوب الأخرى، بدءًا من كيفية الاهتمام بولادة الأطفال وانتهاءً إلى جعلهم أفرادًا ناضجين في المجتمع.

فالفرد في تلك الفترات يتصرَّف بجسدهِ وفق ما يلائم بيئته والجو الذي قد عاش وسادت حياته فيه، فهو يتكلم أو يصدر بعض الأصوات والرموز، ويستخدم بعض الإشارات بجسدهِ وبعض الإيماءات وفق ما تم التعارف عليه لديهم، وكذلك يمارسون حياتهم الأخرى بالتفاعل الجسدي، ووفق ما هو موجود ومقر لديهم، فما يوجد عندهم من إشارات جسدية تستخدم لكثير من الأشياء قد تختلف عند شعوبٍ أخرى، وذلك تابع لإرث ثقافة كل مجتمع وخصوصيته المنفردة عن غيرها.

ونحن نلاحظ أن كثيرًا من الشعوب القديمة كانت لديها طقوس خاصة بها قد تختلف عن غيرها من الشعوب الأخرى، تستخدم فيها ويكون المادة الأساس فيها هو الجسد، من خلال أداء بعض الطقوس الرمزية بالرقصات والدبكات، والقيام





ببعض الحركات التي تشير إلى رموز معينة قد تكون مقدَّسة لديهم، وهي تحمل دلالات معنوية وذات مضامين ثقافية عندهم، ولديهم صور جسدية أخرى تتناسب مع تعاملاتهم اليومية، فهم يأكلون بطرق مختلفة عن غيرهم من الشعوب من ناحية كيفية الأكل، وتصرفاتهم الجسدية في مضغ الطعام والتعامل معه، ولهم عادات جسدية أخرى كأن تكون في التودد وإلقاء التحية والتعاطف مع الآخر. وأيضًا يملكون صفات جسدية يتصرفون بها عند القتال وصيد الحيوانات وغيرها.

حتى إن طرق العيش والسير لا يمكن أن تتشابه مع إنسان العصور الحديثة، فهم يسيرون بطرق تدل على بساطة حياتهم دون تصنّع، ودون مراعاة للذوق العام كما ينبغي أن يكون موجودًا في عصر الإنسان الحديث. ولا يمكن أن ننسى ما خضع له الجسد آنذاك من تعاملات وتزيين وطقوس ومراسيم للتفاخر والتباهي، وكل ذلك دليل على استخدام الجسد وفق ما يتوافق ومعطيات البيئة التي عاش فيها الإنسان البدائي.

في دراسته **تقنيات الجسد** يقترح "مارسل موس" ملاحظة وتأمل الطرق التي يستخدم بها الناس أجسادهم وتعاملاتهم من مجتمع لآخر، إذ يذكر أن هناك العديد من الحركات التي يسلكها الناس نابعة من المجال الاجتماعي الذي يعيشونه، وحتى العواطف هي نابعة من إنتاجات رمزية ترتبط بمجال من مجالات حياة المجتمع الذي يحيا فيه الإنسان(1).

فتصرفات الأفراد في حياتهم اليومية التي يعكسها ويترجمها الجسد، قد لا تتشابه مع مجتمعات أخرى، وقد تتشابه في الكثير منها، والمهم أن ما يؤديه الجسد من سلوكيات وحركات يعكس صورة حياته التي يعيشها ويسير وفقًا لها.

فاليوم مثلاً أغلب المجتمعات يسير فيها أفرادها وفق قواعد معينة، لذلك يستخدم الأفراد أجسادهم لتطبيق هذه القواعد، فالفرد يجب أن يتصرف بحركات من جسده في بعض المواقف التي يفرضها عليه المجتمع، مثلاً يؤدي التحية بإيماءات بلسانه وحركات بيديه أو انحناءات، وهذه ما سار عليها المجتمع والخروج عنها يعد خرقًا ومناقضة لتعاليم وقيم ذلك المجتمع، والدليل أن التحية تختلف من مجتمعٍ لآخر، وحسب موروث وتقاليد وعادات ما نشأ عليه الأفراد.

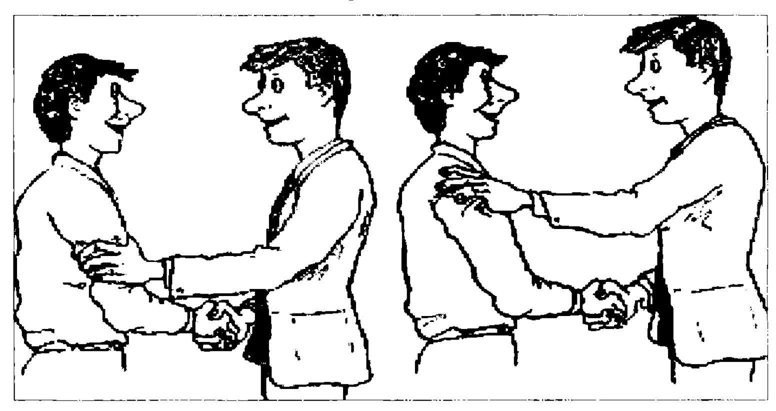
---

(1) د. زينب المعادي، مصدر سابق، ص 22.





**شكل (2) يوضح نوعًا من أنواع التحية عند الإنسان**



لكن هذه القاعدة تختلف من مكان ومجتمع وثقافة إلى أخرى، فقد نشاهد أفرادًا يستخدمون أجسادهم بطرق منافية للأخلاق عندنا وخروجًا عن قواعدنا نحن، لكن قواعدهم وأعرافهم تبيح ذلك، وهو ما تم السير وفقه والتعارف عليه. فإلقاء التحية لا تتشابه في كل الثقافات والمجتمعات، فهناك من يلقي التحية بالإشارات فقط عن طريق تحريك أحد حاجبي العينين مثلاً، ولا يعد ذلك انتهاكًا لحرمة التحية وعدم تأديتها بشكلها المطلوب، إذ إن هذا النوع هو ما تم الاتفاق والسير على نهجه وفق عادات وتقاليد تلك الشعوب.

وهناك من يؤدي التحية بحركة اللسان فقط، من خلال إطلاق عبارة واحدة أو بعض العبارات التي تشير إلى التحية، دون أي تلامس لأجزاء الجسد مع الآخر. وأيضًا هناك من يحيي بالانحناء للمقابل وتقبيل يد المرأة، أو المصافحة باليد فقط، أو المصافحة باليد مع تقبيل بعضهم للآخر. هذا فضلاً عن تقنيات أخرى يستخدم الإنسان بها جسده للتعبير عن التحية بحسب ما تعارفت عليه ثقافته ونشأ عليها.

أيضًا في طقوس الرقص والمناسبات، لا يرقص كل إنسان بصورةٍ واحدة متشابهة، وإنما قد يؤدي الفرد حركات راقصة بجسده تنبع من تاريخ مجتمعه الذي يعيش فيه وحياته، فالمجتمع القديم كان يقوم بحركات أدائية تسمى فن الرقص في طقوس واستعدادات ومناسبات يقيمونها، وبهذه الاحتفالات يؤدون عدة رقصات





يقوم الجسد فيها بالظهور بعدة صور راقصة يتحرك من خلالها، حتى إن أفراد هذه المجتمعات الذين ينشؤون يكونون قد تعلموا رقصات مجتمعهم ويؤدونها في مناسباتهم العامة والخاصة. ولم يلاحظ أن الشعوب القديمة قد استخدمت حركات راقصة تختلف عن بيئتها أو عن ثقافتها؛ لأن ما تعلمته هو هذا اللون من الرقص وهي لا تعرف غيره.

فما كان يُقام في الاحتفالات (الكرنفالات) والاستعراضات الجسدية في الغرب، وما كانت تقوم به الشعوب القديمة هي عبارة عن شعائر تستعرض الجسد في مظاهر درامية معبدية مقدسة، بحيث تُقام لها طقوس خاصة بالأعضاء التناسلية. هذا فضلاً عن أشكال الرسم على السطوح الخارجية لتضاريس الجسد والتي تسمى بالوشم، والتي تشير إلى ثقافة روحية تعبر عن تعويذات لكف الأذى عن الأفراد في المجتمع[1].

وباتت هذه الطقوس ملزمة للقيام بها في أوقاتها التي تحدد، واستعراض الأجساد فيها، وممارسة الكثير من الشعائر من خلال التصرف بالجسد وفق حركات استعراضية معينة لها مغزى اجتماعي وروحي وديني ثقافي كبير لديهم.

**شكل (3) يوضح الرقص عند الشعوب**



(1) منير الحافظ، مصدر سابق، ص 62.





لذلك لا يمكن أن تتشابه المجتمعات سواء القديمة منها أو الحديثة شبهًا كبيرًا في استخدام الجسد برقصات متشابهة، وإنما كل مجتمع يمارس الرقص وفق قواعده، وما تفاعل معها أفراده في البيئة التي يعيش ويحيا فيها، حتى إننا في المجتمع الواحد نلاحظ اختلافًا في أداء الرقصات من منطقة إلى أخرى، إذ قد لا يتشابه كل المجتمع بأداء رقصة واحدة. مثلاً الذين يسكنون في شمال المجتمع قد يحسنون أداء رقصات تختلف عن الذين يسكنون في جنوبه وحتى في الوسط، وذلك بحسب قيمه وعاداته وطريقة العيش ونسق الحياة التي فرضت عليهم التفاعل، وأداء مثل هكذا ألوان من الرقصات التي تختلف الواحدة عن الأخرى.

وقد ذكر منير الحافظ في ما يتعلق بالرقص: "من مهام الرقص إبراز مختلف تعابير الجسد المرمَّزة في دلالات الأداء التعبدي أثناء ممارسة الطقوس أو الرقى القدسية. وقد تعددت في هذا الحقل الواسع الدراسات المتخصصة في "مورفولوجيا الجسد"، وكان أول تعبير راقص في اللغة البدائية الوحشية لـ "مورفولوجيا الجسد" هو تقليد حركة الفرائس لاصطيادها بغاية تأمين القوت، وأول حركة محاكاة راقصة اندرجت تحت أفهومات الوعي الفني والعبادي هي تقليد النار، واتسعت مساحة المخيال في إبداع لونيات ضخمة من أشكال الأداء الجسدي (القفز، الجمباز، التسلق، الرقص الشعائري، الدبكات، الأكروبات، الرقص على الإيقاعات اللحنية، التزلج، التمارين السويدية، ألعاب السيرك، السباحة والغطس، السباحة في الفضاء الخارجي)"[1].

لذا فالرقص الذي يستخدم الفرد فيه الجسد ويحرّكه بطرقٍ مختلفة بات يمثل واجهة لثقافةٍ معينة، فالمُلاحظ أنه بات من الممكن أن تُميز ثقافة مجتمع عن أخرى من خلال فنون ذلك المجتمع، ومن ضمنها الرقص.

وكذا الحال بالنسبة لطقوس كل مجتمع وما يتطلبه من حركات يفترض على الجسد أن يؤديها، فلكل مجتمع طقوسه الخاصة به، ولا يتعلق الأمر بقدم المجتمعات أو حداثتها، فكل منهما يمارس الطقوس التي تمثل انعكاسًا لتراثه التاريخي وحضارته. وعلى هذا الأساس يظهر الجسد في هذه الطقوس بعدةِ أشكال وصور يبتغيها المجتمع

---

(1) المصدر نفسه، ص 83.





الذي يعيش به الفرد، لذلك يجعل الفرد جسده رهنًا لإشارة ذلك المجتمع ابتغاءً لمرضاته، ولسير الحياة فيه بطرقٍ مستقيمة.

وتؤدي لغة الجسد دورًا مؤثرًا في الحياة البشرية، إذ إنها تمثل منظومة من الرمزيات التي تحمل في بواطنها الكثير من المعاني المختلفة، والتي تشير إلى مجالات معينة يستخدمها الإنسان للإشارة أو التعبير عن شيء ما معين.

ولعل "تشارلز داروين" صاحب نظرية التطور هو أول من دعا إلى الاهتمام بلغة الجسد، لما لهذه اللغة من أهمية كبرى في تطور ونشوء الكائنات الحية، إلا أن من جاء بعده نظروا إلى ذلك بأنه لا يقتصر في أهميته على تطور الكائنات فحسب، وإنما تأتي أيضًا من أهميتها في التناقل والتفاعل اليومي بين البشر، إذ لاحظوا أن الكثير مما يجري بين الناس من معلومات تتناقلها لغة الجسد هذه[1]، إذ إن كثيرًا من تعاملات الحياة لا تقتصر على الكلام الشفوي، دون أن تدخل اللغة الجسدية كمؤدٍ بارز فيها، والتي يستطيع الإنسان من خلالها توصيل ما يريد نقله للآخر، وبحسب اللغة المتفق عليها والتي تخص الجسد.

وتختلف اللغة الجسدية من مجتمع لآخر بحسب ما اتفق عليه في تلك المجتمعات وما استندت عليه، إذ قد يشير تقبيل الرجل لرجل مثلاً في المجتمع العربي إلى صداقة متينة وبريئة، لكن ربما يشير ذلك في المجتمعات الغربية إلى علاقة لواطية، وغيرها من الأمثلة[2].

ويتأتى ذلك من أن لكل مجتمع ثقافته وبيئته الخاصة به، والتي تتناغم مع أعرافه وثقافته الروحية والدينية التي تم الانسياق لها والاتفاق عليها، فليس بالضرورة أن تتشابه اللغة الجسدية في كل المجتمعات، وإنما تختلف من مجتمع لآخر، وقد تتشابه ببعض الأشياء الرئيسة ربما من قبيل مثلاً التصافح باليد وإلقاء التحية باليد وغيرها.

كذلك ربما قد يتحدث الجسد لغة واحدة عبر العالم، كما يحدث عند الأطفال في المرض، إذ إن أمراضًا من قبيل مثلاً السعال الديكي وشلل الأطفال تتكلم اللغة

---

(1) فؤاد إسحق الخوري، **لغة الجسد**، مصدر سابق، ص 5.

(2) المصدر نفسه، ص 8.





نفسها عبر العالم، إذ يتعلم الأطفال صور التعبير عن هذه الأمراض[1].

وهذه هي المشتركات التي ربما يشترك بها الإنسان في اللغة الجسدية، إذ تتشابه صور التعبير الجسدي في الإشارة لبعض الأمراض العالمية، ولا تختلف من مجتمع لآخر، إذ يتم انتشارها كمرض أو أمراض واحدة تصيب الجنس البشري، ويتم الاستدلال عليها بتشابه التعبير عن أعراضها بين المصابين بها مثلاً.

كما إن لغة الجسد عندما أُهملت وتمت سيطرة المعجم العسكري على القاموس الطبي، أدى ذلك إلى الحديث عن محاربة الأمراض وفقًا للمصطلحات العسكرية كما نحارب الأعداء، وحماية الجسد كما نحمي الثغور، وإجراء العملية الجراحية كما نجري عملية عسكرية وغيرها، إذ إن العداء الذي نبديه للمرض يبرز الحفيظة التي نكنّها للجسد، الأمر الذي يؤدي إلى إخراس لغة الجسد هذه وإضعاف القدرات الذاتية للشفاء[2].

إلا أن الأمر قد تطور ووصل إلى حد الاهتمام بهذه اللغة التي تحمل في مضمونها جملة من التخطيطات الداخلية، التي يفكر بها الفرد في داخله. وقد تبرز في العديد منها عن طريق لغة الجسد، وما يمكن أن يقوم به الفرد من حركات جسدية.

ولعلنا نكشف عن حال كينونتنا من خلال لغة الجسد غير المنطوقة، فنحن نرفع أحد حاجبينا تعبيراً ربما عن عدم تصديقنا، أو نفرك أنفنا ربما تعبيراً عن الحيرة والإرباك، ونعقد ذراعينا لنعزل أو نحمي أنفسنا، ونهز كتفينا تعبيراً عن عدم مبالاتنا مثلاً، ونغمز بعين واحدة قد تكون تعبيراً عن الألفة والمحبة، وننقر بأصابعنا للإشارة إلى نفاد الصبر وغيرها[3].

إذ إننا نكشف عن بعض خبايانا من خلال لغة الجسد هذه وما يصدر عنها، والتي قد تأتي في بعض المواقف بدون وعي منا، وإنما الموقف ذاته يُحتّم علينا القيام أو التصرف بحركة معينة، تعكس ما يجري في دواخلنا. وقد تكون بعضها بوعي نريد

---

(1) د. عز العرب لحكيم بناني، "الجسم والجسد والهوية الذاتية"، مجلة **عالم الفكر**، العدد 4، المجلد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009، ص 115.

(2) المصدر نفسه، ص 116.

(3) فؤاد إسحق الخوري، **لغة الجسد**، مصدر سابق، ص 17-18.





منها إيصال رسالة معينة لما نحن عليه، وللآخر الذي نوجه له الحركة الجسدية الصامتة هذه.

كما إنه ليس بالضرورة أن تكون الحركات الجسدية التي ذكرت لزامًا أن يقوم بها كل الأفراد، إذ قد يتصرف الفرد بأي حركة أخرى، وربما قد لا تُفهم للغير لكنها مفهومة له، وقد لا يكون هناك اتفاق عليها لذلك قد لا يفهمها الآخر.

## الجلد:

الجلد هذا الجزء من الجسد الذي له أهمية قصوى في الحفاظ والإحاطة بالأعضاء الداخلية لجسم الإنسان. يتميز بأن له مكانة أساسية من ناحية مظهرية، ولأنه ناقل لكثير من الرموز والإشارات التي يستخدمها الإنسان عن طريق جلده بالتجميل والتزيين، لإرسال خطابات للآخر الناظر لجسد الإنسان الذي يحويه هذا الجلد.

فالجلد أشبه ما يكون غلافًا يغلف أعضاء الإنسان، ويتأثر بالعديد من المؤثرات الطبيعية، لذلك برز اهتمام الإنسان بجلده فضلاً عن اهتمامه بباقي أعضاء جسده، ليجعل منه ذا نضارة وإدامة تمكنه من مواصلة عيشه في الحياة.

إن هذا الجلد الذي يحيط بالعظام والعضلات ويغشيها يزن حوالي ثلاثة كيلو غرامات عند الإنسان البالغ، إذ يمثل عنصرًا وسيطًا بين البيئة وعمق الجسم، وتكمن فيه عدة وظائف منها مساعدة الإنسان على مواجهة كل عدوان خارجي ممكن أن يلحق به بفعل المؤثرات الطقسية والظروف المحيطة[1].

بمعنى أنه هبة من الله تعالى يكمّل أعضاء الجسد من خلال حمايته واحتوائه لأعضاء الإنسان الأخرى، فضلاً عما يمتلكه من مقوّمات تقاوم التغيرات المناخية، وتطلق انطباعًا للإحساس بها من قبل الإنسان، وتحميه من الكثير من المؤثرات الخارجية من قبيل مثلاً الفيروسات والأمراض الأخرى، التي لو لم يكن الجلد متواجدًا لانهالت افتراسًا في أعضاء الإنسان.

---

(1) الزهرة إبراهيم، **الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية: وجوه الجسد**، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص 84.





كما إن الجلد يعطي لجسدنا مظهره، من حيث يقوم الجلد بتغليف الجسد، ويصبح هذا الجسد غير قابل للنفاذ أو الدعك، لكنه حساس ومهمته حماية الجسد من كل المؤثرات الخارجية دون أن يعزله، وبدونه يصبح الجسد عاريًا دون ما يغلفه ويحيط به[1].

بمعنى أنه اللباس الذي يلبسه الجسد بأعضائه، والذي يمكن أن يقيه الحر مثلاً أو البرد أو أي مؤثرات أخرى ممكن أن يتعرض لها. هذا فضلاً عن مؤثراته وقابلياته في الإحساس والشعور، والحذر من الأشياء وإطلاق الإشارات للآخر، وغيرها من الأمور التي يقوم بها الجلد.

ومن ضمن ما يضمه الجلد عدد كبير من وظائف الحواس (اللمس، الضغط، الألم، الحرارة، البرودة). كما إنه يفوق الأذن في أداء التمييز المكاني، ويقدّر الوقت (أقل من الأذن)، ويفوق العين في أداء التمييز الزماني، ويخمّن المساحة – الفضاء (أقل من العين)، لكنه وحده من يوفق بين المسافات المساحية والزمنية، حيث يُعد اللمس مظهر الإحساس الوحيد الذي يغمر سطح البدن، وبأسلوب يضاهي ما يجري في شبكية العين تقريبًا. كما إنه يستطيع تحديد شكل وهيئة الجسم الذي يلمسه ويبلغ عن موقع ملامسته، وإن كانت هذه القدرات قد تكون مصحوبة بالأخطاء[2]، إلا أن ذلك يعد امتيازات كثيرة للجلد الذي يشكل لغةً بحد ذاتها في أنه يتنبه لما يصيبه أو يلمسه، ويحدد طبيعته نوعًا ما، ويصدر الإحساس تجاه الآخر، فضلاً عن كونه يكسب الإنسان منظرًا يستخدمه في التحاكي مع الآخرين، ومن ذلك عمد الإنسان ومن خلال تقنيات تجميل الجسد الاهتمام بالجلد من ناحية تنظيفه وتزيينه، فإن كان يكسوه الشعر تعمد النساء إلى إزالة هذا الشعر ليعطي ذلك للجلد نضارةً كبيرة، ويعمد الإنسان إلى إبقاء الشعر كما عند الرجال على الجلد كمظهر من مظاهر الرجولة وفي أماكن معينة، في حين يقوم بإزالة الشعر من مناطق أخرى من الجلد، وفي كل ذلك إشارة لأهمية الجلد في أن يبدو بصورةٍ جميلة تجذب الناظر.

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 193-194.

(2) المصدر نفسه، ص 195.





ومن بين الأمور التي يستخدمها الإنسان لتزيين جلده على اعتباره جزءًا من هويته الجسدية، هو محاولة إكسابه لونًا معينًا ونضارة، حيث يستخدم الإنسان بعض المرطبات والدهون لإزالة الصبغة السمراء مثلاً، وإكساب الجلد والبشرة لونًا فاتحًا أو العكس. هناك من يستخدم هذه المجملات لزيادة لون السمرة، فضلاً عما يتعرض له الجلد من تقنيات الوشم عليه، على اعتبار أن جماله يعد لغةً بحد ذاتها ممكن أن تسر الناظر وتجذبه، وتصبح من مكملات الجسد التي تضيف للإنسان رونقًا.

وتتمثل لغة الجلد الإنساني فيما يخضع له الجلد من قبل الإنسان من تقنيات تجعله يتلاءم والواقع الذي يبتغيه الإنسان؛ فالجلد الناعم والمزركش بالأوشام هو إشارة ربما لجمالية ذلك الإنسان، ورغبته في إظهار ملامح جسده التي قد يبغي منها عدة مبتغيات، منها إشعار الآخر بالاهتمام أو التباهي، وغيرها من الإشارات الأخرى.

ولعل الاهتمامات المتزايدة اليوم بتحسين مستوى ملمس الجلد ما هي إلا إشارات لإظهار الجسد الإنساني بأبهى صوره وأناقته وجماله، فاستخدام النساء وربما الرجال، المتزايد للمساحيق الـمُرطّبة والـمُليّنة والـمُفتّحة للجلد والبشرة، دليل على أهمية الجلد في إكمال متطلبات الجمال الجسدي الإنساني، وما يبتغيه الإنسان من ذلك في الظهور بمظاهر لائقة يريد من خلالها تحقيق عدة مبتغيات.

ومن ضمن ما يتمتع به الجلد من لغة أنه يسجل سنوات عمرنا التي تمر، إذ إن بوادر الهرم والشيخوخة يستعرضها الجلد، فهو عكس أعضائنا الأخرى التي تشيخ باحتشام، يستعرض بوقاحة لا مثيل لها عمرنا وسنواته التي نخشى من تقدمها[1] بصورٍ تتمثل بتجاعيد الجلد في الوجه، وأجزاء الجسد الأخرى والطيات التي تملأ أجسادنا. وعند النظر للإنسان قد نتعرف ولو بشكلٍ تقريبي على مديات عمره على الأقل عند النظرة إلى جلده، الذي إن كان ما زال متماسكًا نوعًا ما فهو إشارة للشباب وعدم دخول مراحل الشيخوخة والهرم، وإن كان عكس ذلك فللجلد لغة تُرجمت بتهالك الجلد وتقصفه، الأمر الذي يشير إلى تقدم عمر الإنسان ودخوله مراحل الكبر في الحياة.

---

(1) المصدر نفسه، ص 197.





إن الجلد يشعرنا باللمسات الحنونة والدافئة، ويكسبنا خاصية التذوق بملمس الأشياء الأخرى التي من الممكن أن نضع أيدينا عليها. إن جلودنا تقشعر عند رؤية أو سماع شيء لا يتلاءم معنا. إنها تتغير ربما بألوانها نوعًا ما عند تعرضها للحرارة الشديدة أو البرودة القاسية، كأن تميل إلى الزرقة في حالة البرد القارس أو إلى السمرة في حالة الحرارة اللاهبة. إنها تشعرنا بأنها الواقي الحقيقي لأعضائنا وهي كذلك.

وبذلك فللجلد أهمية كبيرة تتمثل في أنه الواقي والحافظ للأعضاء الجسدية الخاصة بالإنسان، ويمتلك الخاصية الكبرى في الحفاظ عليها من كل ما يمكن أن يلحق بها من مؤثرات طبيعية، ويمثل لغةً بحد ذاتها تمكن الإنسان من الشعور والإحساس، وما يبنى على أساس ذلك من تفاعلات بين الإنسان والآخرين.

## الوجه:

ولكل جزء أو عضو من أعضاء الجسد وظيفته ولغته الخاصة به، وللوجه تعابير وإشارات مختلفة يمكن أن يعبر من خلالها الفرد عن الكثير من الأشياء، ويرسل العديد من الرسائل للآخرين. وتختلف هذه التعابير للوجه من مجتمع لآخر، وأيضًا في داخل المجتمع الواحد، وربما في داخل الأسرة الواحدة، بحسب ما يتعرض له الفرد من محفّزات ومؤثرات وبيئة يعيش فيها ويتبع تقاليدها وأعرافها أم لا.

تقول سمية بيدوع في كتابها **فلسفة الجسد**: "الوجه له مكانة خاصة في مجموع صور الجسد، إنه الجزء الأكثر تعبيرًا في الجسد، وهو المرئي لكل العالم. إننا نتواصل بالاعتماد على وجهنا بالإضافة للمعنى البسيكولوجي لمكان الفم العضو المهم ومكانه في وسط الوجه"[(1)].

إن الأمر يبدو وكأن مركز الجسد يتمحور في الوجه أو هو الموجّه لكل الجسد، وكأن كل الاعتماد للذات البشرية مكفولة بالوجه، وما يضمّه من الأعضاء الأخرى، وحقيقةً أن للوجه مكانة يتميز بها عن باقي أعضاء الجسد بأنه الجزء الظاهر تقريبًا، والذي يضم عددًا من الأعضاء المهمة التي تؤدي دورًا جوهريًّا في تسيير لغة الجسد وإقامة التفاعلات الإنسانية.

---

(1) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 97-98.





كما إن الوجه بالنسبة إلى الجسد هو ما يمثله الجسد بالنسبة إلى العالم، إذ يقوم الوجه بتلخيص الجسد، ويعد نافذة على العالم ونافذة النفس وباب مسكنها الهش، فهو المنفذ الذي نطل منه على العالم[1]، والذي يمكن من خلاله حساب تجسيد صورنا للحياة وكيفية النظر لنا، إذ إننا بدون الوجه تختفي القدرة التصويرية لنا للعالم وما يحيط به وبنا، إذ هو النافذة المهمة التي تمثل أساس أجسادنا، والمحور الرئيس في التعامل مع الحياة والنظر لها.

لذلك واستنادًا لـ "فرنسوا شيرباز" فالوجه هو ما يعطي معنى لكمال الجسد، إذ يعد الوجه مكان الحضور وخصوصية وفردانية الجسد، الأمر الذي نستذكر معه حكاية "نرسيس" المتأمل لوجهه في الماء والذي مات غرقًا، من خلال إلقاء نفسه في صورته في الماء[2].

إن الإنسان يبدأ بمشوار تفاعلاته بتوظيف الوجه بشكل كبيرٍ، فضلاً عن مساعدة الأعضاء الأخرى ومن خلال التعبيرات الجسدية التي يقوم بها وجهه وتصدر منه، للقيام بالأمور الحياتية وبنائها.

لقد استُخدم الوجه أكثر من أي جزء آخر في الجسد كوسيط يترجم تعبيرات الإنسان، حيث يستخدم الإنسان بوجهه الابتسامات والإيماءات والغمزات لغرض التعبير عن كثير من الأمور التي تنتابه[3].

ولعل ما يبقى بذاكرة الإنسان بالنسبة لصورة الآخر هو وجهه وما يصدر منه من لغة عن طريق أعضائه الأخرى، وتقاس في كثير من الأحيان المكانة بتشبيهها بالوجه، فيقال إن فلانًا وجه من وجوه هذا المكان، أو إن هؤلاء هم وجوه هذا المجتمع. من ذلك تبرز الأهمية الكبرى لما يصدره وجه الإنسان كجزء مهم في الجسد، والتعابير التي تصدر عنه والتي تشكل منظومة من الرموز التي تجد تفسيرها عند الآخرين عندما يعبر عنها ذلك الوجه.

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 218.

(2) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 99.

(3) Allan Pease, Body Language: How to read others thoughts by their gestures, Sheldon press, London, 1981, p. 17.





ويربطنا الوجه أيضًا بالزمان الذي يمر، إذ إنه يتجعد أو تظهر به طيات وثنيات بفعل الزمان وما تركه، حيث تحفر على شكل أخاديد ترتسم على الوجه الشائخ نوعًا ما[1].

فما مساحة الجسد الطرية واللامعة أو المتجعدة والرثة إلا وقد أجرى الزمان حساباته عليه، بما يتضمنه من ظروف قد تمر على جسد الإنسان وبضمنه وجهه الذي يكون حاملاً لتضاريس الحياة ومؤثراتها ومنعطفاتها، أي إن تاريخ حياة الإنسان يُرسم على وجههِ بحسب البيئة والظروف التي عاشها، وللهرم دور آخر في إظهار الوجه بمظهرٍ يُعبّر عن تقدم السن، وما مر على الإنسان ممكن أن يترجمها الوجه بتعثر وملامح رثة، أو ملامح تشير إلى حياة مُنعَّمة قد مرَّت على الإنسان.

وتختلف اللغة التي يطلقها الوجه بحسب ما هو متواجد به من أعضاء مهمة، تقوم بوظيفة إرسال الإشارات والرموز والحركات والخطابات عبر لغة الجسد، إذ يتواجد في الوجه العيون والأنف والفم وبداخله اللسان، وقدرة الفم على الشم والأذنين على السمع، والتي تعمل مجتمعة بترجمة ما يريده الفرد ويعكسه للعالم الخارجي.

ولا يمكن أن يقدّم الوجه أو يصدر لغة جسد واحدة في كل المجتمعات البشرية، وإنما تعابير الوجه وحركات بعض أعضائه تختلف باختلاف المجتمع أو المجتمعات التي يعيش بها الأفراد، وذلك رهنًا ببيئة وثقافة وعادات وأعراف وتقاليد كل مجتمع، أي إن الوجه تكون لغته الجسدية وفق ما يبنيه المجتمع عليه أو على جسد الإنسان.

إن الوجه الذي يظهر أنه مبتسم قد يرسل إشارة إلى أنه مرتاح من شيء معين وداخله مطمئن نوعًا ما، لذلك عندما ترى شخصًا وجهه ضاحكًا مبتسمًا دون أن يتكلم نعلم أن سرائره مبسوطة في أغلب الأحوال، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا يوجد كثير من الأشخاص قد يخفي الألم في داخله ووجه مبتسم أو ضاحك.

والشخص العبوس أو الحزين أو المتضايق من أمرٍ معين يظهر ذلك واضحًا في وجهه، الذي يبعث رسالة إلى أن هذا الشخص متعكّر المزاج من خلال عدم الانشراح أو التبسم أو الضحك.

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 134.





إننا نحاول في العديد من المواقف أن نكون بأحسن حال عند التفاعل مع الآخرين، من خلال ابتسامة الوجه والاهتمام به؛ لأنه يمثل الجزء المهم في التفاعل مع الآخر، والذي على أساسه يُقاس البشر ونفسيته.

ولعل أبرز ما تهتم به النساء بصورةٍ أكثر من الرجال هو الوجه بما يحويه لتركز النظر عليه، وهو المصدر الرئيس لكل الرموز التي من الممكن أن تنطلق من أعضائه الأخرى المتواجدة فيه، فنحن عندما نتكلم مع شخص آخر قد لا ننظر إلى جزء آخر بكثرة غير وجه الشخص الذي يتكلم معنا، وهنا تبدأ عملية التفاعل وفق ما هو معمول به وما يبنيه ذلك المجتمع في جسد الشخص.

وهذه اللغة التي تصدر عن الوجه لا يمكن أن تتشابه مع بعضها تمامًا باختلاف المجتمعات، فقد يعني هز الرأس من جهة لأخرى بالرفض أو لا، وهزه من أعلى لأسفل يعني نعم، لكن هذه الإشارة واللغة قد تختلف في مجتمعات أخرى مثل الهند حيث يكون العكس هو الصحيح[1].

من ذلك يمكن القول إن الوجه هو واحد من ناحية وجوده في جسد الإنسان، فلا يمكن أن يولد إنسان دون وجه إلا إذا كان هناك عيب خلقي ويوجد بالوجه بعض التشوهات، أي إنه موجود ويتمثل بالجزء الأمامي من الرأس، لذلك كل إنسان له وجه معين باختلاف اللون الذي يشمل لون البشرة أو العيون، وجمال الوجه ذاته وملامح ذلك الوجه، إلا أن الوجوه تختلف من مجتمعات لأخرى في مسألة لغة الجسد، وكيف تتعامل أعضاؤها وما ترسله من رسائل للآخرين، فما يقوم به الأفراد بوجوههم في مجتمعات قد يختلف عن أخرى.

لذلك فإن مسألة فقدان الوجه لا يمثل مجرد جرح يصيب الإنسان ويؤثر عليه، وإنما هو جرح علائقي بسبب أن الآخرين يتعرَّفون علينا جميعًا في الكثير من الأحيان من خلال وجوهنا[2]، إذ يمثل هوية الإنسان بجسده، والتي تكون مفهومة ومعروفة لدى الآخرين، حيث إننا نتعرف بالآخر من خلال وجهه على الأغلب، نعرف ربما

(1) فؤاد إسحق الخوري، **لغة الجسد**، ص 27-28.

(2) ميشيلا مارزانو، **فلسفة الجسد**، ترجمة: نبيل أبو صعب، بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 77.





أفكاره وطروحاته وما يريده، لكن ذلك غير كافٍ بدون التعرف على وجهه الذي يمثل مفتاحًا لتمييزه عن غيره من الآخرين.

حتى إننا عندما نتذكر الكثير من الأشخاص تحضر في مخيلاتنا وجوههم، فنحن نعرفهم بوجوههم من الناحية المادية الملموسة فضلاً عن معرفة ما يطرحونه ويقومون به ربما، فالوجه هو علامة مميزة للشخص، ومن ذلك أن عمليات التجميل في الوجه تغير نسق حياة خاص بالإنسان، إذ تفقده علائق كانت قائمة على عدة أشياء، من أهمها صورة ذلك الشخص بوجهه عند الآخرين، فربما لا يتعرفون عليه بشكله أو وجهه الجديد إلا بعد فترة من التكيف، وكأنهم قد تعرفوا على شخصٍ جديد.

وعندما يختفي إنسان ما بالموت، فالأمر يصبح عبارة عن اختفاء وجه كان حاضرًا بين الإنسان، فضلاً عن اختفاء جسده بالكامل من الحياة ومن معاينة الآخرين[1].

أيضًا إن أغلب الثقافات قد ركّزت في أفكارها حول جمالية الوجه، وكيف هي الصورة التي يمكن أن يظهر بها، حيث تضمنت أفكارهم الإشارة إلى تناسق الوجه من حيث اللون والهيئة التي يبدو عليها، وتوافر عنصر الشباب به[2]. وما الاهتمام المتزايد بالوجه وربما دون الأجزاء الأخرى نوعًا ما إلا للسطوع الذي يتمتع به هذا الجزء المهم من جسد الإنسان، حيث يمثل قبلة التفاعل والتعاطي مع الآخرين. وكذلك يمثل المحور المهم في حياة الإنسان الذي يربطه بمعطيات التفاعل الأخرى، على اعتبار أن للنطق والكلام أعظم الأثر في التأثير بالمقابل، فآلية النطق موجودة في فم الإنسان وتحديدًا في وجهه.

لذلك يمثل الوجه رمزية عالية تختزل الجسد به، وقد لا يعني ذلك انتفاء أهمية الجسد بأعضائه الأخرى، وإنما أهمية الوجه من ناحية رؤية العالم والتناغم معه.

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 218.

(2) Victoria Pitts - Taylor, cultural Encyclopedia Of The Body, Green wood Press, Volume 1& 2, U.S.A, p. 127 .





## العينان:

وتحتل العين في جسد الإنسان وبالتحديد في مقدمة رأسه مكانة مهمة أتت من موقعها الضروري الوجود كجزء مكمل لجسد الإنسان، والتي تبقي لها الدور الكبير في الحياة، من خلال عدّها النافذة التي ينظر من خلالها الإنسان على العالم ويبصر ما فيه ومن حوله. كما إنها تحمل في دواخلها منظومة متكاملة من الرموز التي تؤديها بالتكامل مع أجزاء الجسد الأخرى، لإرسال عدة رسائل للعالم المحيط.

إذ إنها تُظهر عدة صور تتمثل برؤية الإنسان من خلال انعكاسات الضوء الذي ينفذ إليها، وللعين تاريخ طويل في ثقافات العالم المختلفة من ناحية أهميتها وما تقوم به من مهام[1].

ولما كانت العين تعد مرآة الشخص والشخصية، لذا فهي تمثل محل التعبير، فهل تحمل في بواطنها دلالات رمزية كبيرة قد تعوّض عن كثير من الرسائل التي يمكن أن تتولاها أجزاء الجسد الأخرى، فإن صمت فم الإنسان ولسانه عن الكلام فقد تعبّر العين عما يدور في داخل ذلك الإنسان[2].

فقد يبعث الإنسان للآخر برسالة توحي أنه رافض لما يقوله ويفعله عن طريق العيون، التي تظهر بتعبيرات تنم عن الرفض أو الاستياء أو الاستهزاء. وقد ترسل أيضًا رسائل تشير للتودد والحب والاطمئنان من خلال تعبيراتها التي يتحكم بها الإنسان، وقد تظهر بمظهر الحزن والبكاء والظلم أو التحذير من شيء، أو الخوف أو الجرأة أو المراوغة والحيلة، وغيرها من التعبيرات التي تساهم في إظهارها العين، لتشكل محطة إرسال واستقبال للرسائل التي تساهم في إكمال المشهد التفاعلي الحياتي.

لذلك تمثل النظرة التي تنبثق من العين لغة جسد مهمة ومؤثرة، لما تحمله من أحاسيس وانفعالات وعواطف، تتشارك بها ومن خلالها مع النظرات الأخرى المنبعثة من الأجساد الأخرى[3].

---

(1) Ibid, p. 110

(2) صوفية السحيري، مصدر سابق، ص 92.

(3) المصدر نفسه، ص 92.





وتعبيرات العين هذه التي تبعثها للأجساد الأخرى تفسر مسائل قد تكون غامضة، فقد تنوب العين برسائلها عن الكلام واللسان برمزية تشير إلى ما يريد أن يقوله الإنسان الذي يمتلك هذه العين، لذلك فعندما يُصاب الإنسان بعمى العيون يفقد ذلك الإنسان الكثير من القدرة على التلاؤم مع محيط الحياة، فالعين تترجم ما يريد الإنسان قوله، وما هو موجود في داخله بتعبيرات يفهمها الآخر وتتفق عليها الثقافات.

فعندما ننظر لغيرنا بتلصص عندما يستدير أو دون أن يشعر بنا، فتلك النظرة قد تحمل رسائل معينة منها، على سبيل المثال رغبتنا في أن نعرف ما طبيعة هيئة ذلك الإنسان الجسدية، وماذا يرتدي مثلاً وكيف أصبح، ونريد أن نفعل ذلك دون أن يعلم، فترجمة هذه النظرة هو القول للشخص كيف أصبحت وما هي الملابس التي ترتديها وما أحوالك.

أيضًا فربما قد نتمكن من معرفة مشاعر الآخر تجاهنا من لغة عيونه، إن كان محبًا لنا أو حقودًا علينا أو يضمر لنا الشر أو كاذبًا أو مخلصًا، لكن ليس كل البشر لديهم القدرة على الفرز الدقيق هذا، فقد لا يستطيع الكثيرون قراءة هذه اللغة، وبالتالي تصبح الأمور خافية، وخاصة إن لم يكن هناك كلام.

كما إنه ليست كل قراءة للغة العين قد تأتي في محلها، فقد يخطأ الإنسان في الحكم على لغة عيون الآخر، والمشكلة إن حاول وقام بالبناء على أحكامه هذا، والتي قد تؤدي به إلى مواجهات غير محمودة.

في كثير من المواقف نلاحظ العين تذرف دموعًا سواء في مناسبات مفرحة أو محزنة، وقد تكون هذه الدموع عبارة عن مشاعر الفرح والانتشاء أو ترجمة للحزن والفراق، وهي بكل هذه الأحوال تشير إلى تعابير رمزية يفهما الآخر على أنها تناسب الموقف الذي هم فيه.

إننا عندما نريد أن نقول لشخص ما إننا نحمل لك مشاعر تنم عن الحقد وعدم الارتياح، قد ننظر له نظرة غضب ونقطب حاجبينا، وتكون هذه النظرات حادة ولا تتمثل بنظرات مباشرة مع الشخص الذي لا نرغب بمواجهته، وإنما نظرات خاطفة ومتقطعة، وقد لا تكون وجهًا لوجه.





وتختلف الثقافات في العالم من ناحية كيفية النظر إلى الآخرين وما تحمله العيون من تعابير، فهناك أقوام قديمة يكون أفرادها ملزمين حتى يظهروا بمظهر الأدب أن يتكلموا مع الآخرين دون النظر لعيونهم، في حين أن هناك مجتمعات أخرى تعتبر عدم النظر في العيون أثناء الكلام هو عدم مراعاة للآداب العامة[1].

إذ قد ينظر لهذه القضية من خلال سقف الثقافة والقيم التي تتحكم بحياة الأفراد في كافة المجتمعات، فما يُعد عيبًا وخارجًا عن الآداب العامة قد لا يعد كذلك عند ثقافات أخرى، فمن باب الاحترام والتقدير أن تنظر إلى الشخص الذي يتكلم معك دون الالتفات والنظر إلى جهة أخرى، في حين أن مثل هكذا أشياء قد لا يُعار لها أهمية عند شعوب أخرى، ولا تدخل في مجال الاحترام من عدمه.

وليس بالضرورة أن كل من ينظر باحترام لعيون الذي يتكلم معه أو مع الآخرين وهو حاضر مستمع له أن يكون في داخله يحترم ذلك المتكلم، وإنما هو ينظر له لكن يحمل في داخله اعتبارات تشير إلى عدم ارتياحه له. وقد يكون ذلك العكس، فربما لا ننظر إلى من يتحدث معنا لكننا نكن له كل الحب والاحترام.

وتختلف نظرة الحب والإعجاب والتقدير عن نظرة الكره والاستياء وعدم الاحترام، وقد لا تكون هذه النظرات في محلها، فليس كل من نلاحظ أنه يُنظر إليه على أنه مثلاً محتقر أو مهان أو مجرم يكون صحيحًا، فقد تكون هذه النظرة هي انطباعات للشخص صاحب النظرة، وليست بالضرورة أن تكون صحيحة، فقد يكون ذلك الشخص الذي يُنظر له على أنه هكذا يحمل صفات على العكس مما نظر له، وقد يكون العكس من ذلك كله، وأيضًا في كثير من الأحيان تأتي النظرة ملائمة لما يحمله الشخص من صفات.

وهناك من يبعث برسائل عبر عينيه للآخرين، تفضح ما هو موجود في داخله، وتعرّف الناس بلسان حاله، فالخجول مثلاً يظهر خجله من عيونه فضلاً عن أجزاء جسده الأخرى، وكذا الحال بالنسبة للضعيف والمرض والفرح والحزين والماكر والمجرم، لذلك تعبر العين عن ماهية كاملة بحد ذاتها تحوي الكثير من التصورات والتأويلات،

---

(1) فؤاد إسحق الخوري، **لغة الجسد**، مصدر سابق، ص 92.





التي من الممكن أن تبعثها للآخرين في المحيط، وتستقبل الرسائل الأخرى وتدخلها في جانب التأويلات لتفهمها وفق ما تراه مناسبًا لما تشاهده.

وكثير من بناءات الحياة من تفاعلات وصياغات وعلاقات قد بُنيت على أساس العين، وما تنظر له وما تنقله من رسائل وتعبيرات وما توجهه هي للمحيط، والذي يكون بمثابة أطر للتفاعل وإدامة الحياة.

وللعين وتعبيراتها أثر كبير جدًّا في بلورة العلاقات الاجتماعية، بداية من العلاقات الحياتية وما قد يبنيه الإنسان على الآخر من خلال هذه النظرة، ومرورًا بالعلاقات العاطفية، وانتهاءً بما يدور في داخل المجتمع من تعاملات أخرى.

ولا يمكن للجسد الإنساني أن يستغني عن العين لما لها من أهمية قصوى في حياة الإنسان، فما نشاهده اليوم من رقي وتطور وتقدم في الحياة قد ساعدت العين بتعبيراتها ونظراتها في ذلك، لذلك فالإبداع يُحسب لماهية العين ذاتها التي تمثل نافذة ذلك الإنسان على العالم، وما الهيئة التي أصبح بها الإنسان من خلال ملبسه وطراز حياته وكمالياته وانتقائه للأشياء إلا بفضل العين وتفسيراتها للأمور، وكيفية وضع الأشياء في نصابها، فلا يمكن لنا أن نُعمّر ونبني بالاعتماد فقط على العقل والقوة البدنية التي تنقصها رؤية العين؛ فهي مكمّلة لأجزاء أخرى مهمة في حياة الإنسان.

## اللسان:

وللسان لغة أيضًا تفصح عن الكثير من المعاني التي يراد الإشارة إليها، إذ عن طريق اللسان ممكن أن نُعبر عن قضايا نريد إيصالها للآخر نترجمها على شكل كلام وحركات باللسان، سواء أكان ذلك في الأمور العادية الخاصة بالتعاملات اليومية، أم في ظروف معينة كأن تكون في المرض، أو الوقوع في ضيق معين، أو في التعبير عن شعور معين كالعاطفة والإشارة التي تتفق والعلاقات الغرامية، وغيرها من الأمور التي يعبر عن محتواها اللسان.

فإضافةً للتركيب البيولوجي المهم الذي يلعبه اللسان وأدواره المتعددة في فرز طبقات التذوق، فهو يحتل مكانًا مهمًّا في حيثيات حياة الجسد البشري ولغته في التعامل مع الإنسان الآخر، فعن طريق التذوق ممكن أن يرصد الجسد توقعات كثيرة





حول ما يتذوقه ومن أين صدر، وإلى ماذا يشير في نوعية الذوق الذي يفرزه. كما إن اللسان يستخدم بعض الحركات التي تشير إلى أحداث غاية في الأهمية نريد التعبير عنها.

فقد يشير اللسان إلى حركات تفصح عن الاتجاهات مثلاً، أو الاشارة إلى الاستهزاء بشخص ما، أو التعبير عن بعض الألعاب التي ترسل رسائل للمقابل وفق ما هو متعارف عليه.

لذا يتشارك اللسان مع أعضاء الجسد الأخرى، ففي الوجه في محاكاة الواقع وإرسال إشارات وعبارات تحمل في بواطنها الكثير من التفسيرات التي يفهمها المجتمع، أو قد تكون خافية عند بعض الأفراد، المهم أنها تشكل أداة ناقلة لما نريد الإفصاح عنه دون إصدار إشارات أخرى من قبل أعضاء الجسد الأخرى، وإنما يتكفل بها اللسان فقط.

## الفم:

كذلك يفصح الفم عن مكنونات أخرى في بواطن الإنسان يتشارك بها مع أعضاء الجسد الأخرى، إذ إنه يمثل كلاً مكونًا من اللسان والأسنان والشفتين الذين يمثلون قناة مهمة للتعبير عما يجول في خاطر الإنسان.

إذ يكون للشفتين دور بارز في تحميل الإشارة معاني كبيرة، فالضغط بالأسنان على الشفتين يشير إلى الغضب مثلاً أو التوعد، وكذلك لصقهما على بعض ينفع في تقبيل الأشياء والإنسان.

أو قد يستخدم الإنسان الفم فضلاً عن الحاجات الطبيعية المتمثلة بالأكل والشرب، فقد يستخدمه في إصدار حركات متعددة قد تشير إلى الاستهزاء، من قبيل مثلاً بعض الأصوات، أو إصدار أصوات تشير إلى الترحيب أو الذم وغيرها من الأشياء. هذا فضلاً عن الكلام الذي يعد وسيلة ومفتاحًا جوهريًا في التعرف على الحياة وتأمين شتى احتياجاتها، الأمر الذي يبرز للفم دورًا في الحياة ومقوماتها الاجتماعية.

لذلك يحتاج المجتمع إلى إنسان يثبت وجوده وشخصيته إضافة لما يعمله، فهو يحتاج إلى إثبات الوجود بكلامه الذي يفترض أن يكون مصداقًا للتعامل





مع الآخرين، لذلك ترتبط المكانة والمنزلة عند كثير من الثقافات بكلام الشخص وما يصدر عنه، في حين أن الإنسان الذي لا يصدر شيء محمود منه على سبيل الكلام يكون ذا منزلة غير رفيعة ولا تعار له أي أهمية، أو يصبح غير ذا شأن.

وبحسب ما يصدر من الإنسان من كلام عبر فمه، يكون ذلك كفيلاً بتحديد الظرف والوضع الذي يكون فيه، لذلك عندما يكون الإنسان أبكم، فإن ذلك يفقده قناة من قنوات التعامل مع المحيط، وفي كيفية مجاراة الحياة وإيصال ما يريده الإنسان عبرها، بحيث يعاني الأبكم من انقطاع جسر التراسل بينه وبين البيئة بمن فيها، ويضطر للاستعانة بالقنوات الأخرى، وكذلك يُحرم المحيط من كيفية التعامل بشكل صحيح مع فاقد النطق؛ لأن هناك أشياء يتداولها المجتمع وقد اتفق على أغلبها ويريد من يقابله بالمثل وفقًا لها.

ووفق إيماءات الفم فهو في القضايا الجنسية يكون حاضرًا من خلال حركات الإغراء التي يتعاون بها مع باقي أعضاء الجسد الأخرى، والإشارات التي ترسل للآخر وتفهم على أنها تدخل في نطاق الرغبة الجنسية، لذلك فهو يمثل قناة اتصالية تحمل الكثير من الرسائل التي يُعبر عنها بطرق وحركات مختلفة.

## الأنف:

وجود الأنف في وجه الإنسان يحمل في طياته الكثير من المعاني؛ فالأنف عضو نتنفس منه، كذلك نميز به بين الروائح، هذا فضلاً عن كونه مكملاً للشكل وجماله في وجه الإنسان خاصةً والجسد عامةً.

وربما تكون الرائحة هي لغة الجسد الأولى، بل هي أعرق وأقدم، إذ إن الطفل لا يدرك أي شيء عند مجيئه للحياة عن طريق اللمس والنظر والكلام، فقط الشم الذي يميز من خلاله أمه التي تمثل أولى مدركاته في الحياة[1].

ولعل قدرة الأنف على التمييز لها أهمية ضرورية في حياة الإنسان، التي عن طريقها ممكن أن يتعرف على الروائح الكريهة منها والطيب، وما تفرزه الأشياء من

(1) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 117.





مواد قد ينفر الإنسان منها أو يتقرب لها أكثر، فالتعرف على رائحة معينة وتمييزها قد يؤدي إلى بناء تفسيرات كبيرة حول الشيء والعكس من ذلك.

إذ إن شم رائحة كريهة من مكان معين، قد يؤول ذلك في دواخلنا أن ذلك المكان غير نظيف، أو أنه متروك، أو حتى يوجد فيه أشخاص لا يعيرون للنظافة أي قدر، أو هم على مستوى غير عال من الاهتمام والتنظيم والذوق.

وكذلك إن شم رائحة كريهة نوعًا ما من إنسان قد يجعلنا ذلك الأنف بتمييزه لهذه الرائحة أن نحمّل ذلك الشخص تقوّلات نريد أن نطلقها بحقه، قد تشير إلى أنه بما معناه قذر أو غير نظيف، أو أنه قد تعرَّض لأزمة ما قد جعلته على هذه الحال.

لذلك فالأنف يحمل لغة تتمثل بقدرته التمييزية للتفريق بين الروائح، وما قد نبنيه حيالها. أيضًا من ضمن اللغة الخاصة به قد نعبر عن بعض الأشياء بإيماءات بالفم قد تكون للتحية أو الاستهزاء، وحتى للتصافح بالأنف في العديد من الثقافات.

ولعل الجسد الإنساني بات يهتم بشكلٍ كبير في أغلبه بجمال الأنف من خلال عمليات التجميل (التي لا يقتصر عليها الأنف، وإنما الكثير من الأعضاء الأخرى)، التي تعطيه ربما نضارة قد يشعر بها الإنسان ذاته الذي تُقام له، وقد يعد أن ذلك من مكمّلات مظهره الذي يكسبه احترامه في الحياة وبين أقرانه وفي بيئته.

## الشعر:

للشعر أهمية أيضًا في الجسد الإنساني، وتتمثل أهميته باعتباره من مكملات الجسد الإنساني، ويتحكم الإنسان في شعره الذي ينمو بأنحاء مختلفة من جسده في رأسه وجلده، وفوق عينيه متمثلاً بالحاجبين، وفوق فمه متمثلاً بشاربيه، وتحت فمه وبجزء من وجهه متمثلاً بلحيته عند الإنسان الذكر، ومناطق أخرى من الجسم.

ومن خلال وجود هذا الشعر الذي يقوم بعدة وظائف، منها حماية الجلد وحماية الكثير من أعضاء الجسم، فقد انتبه الإنسان لقضايا أخرى تجعل من الشعر مكملاً لأناقة وجمال جسده، فبدأ يتفنن في كيفية جعل شعره يظهر بصورة ملائمة





وبالخصوص الظاهر منه، إذ اعتنى الإنسان بجمال شعر رأسه وأخذ يعدّه موجهًا ومرسلاً للكثير من الإشارات للآخرين التي تشير على جمال الشخص وأناقته، ومواكبته للعصرية والتقدّم والموديلات، فالنساء أخذن يتفنن بشعر رؤوسهن من تسريحات مكمّلة للجمال، وأصباغ تغير من لونه الحقيقي، وكل ذلك لغةً يستخدمها الإنسان للآخر للإشارة إلى جماليته وجمالية شعره.

وهناك تسريحات للشعر يعمد لها الإنسان وفق ما يتلاءم مع أوضاعه ومحيطه الذي يحيا به، إذ تجد أن الإنسان المشهور في ميدان معين كالغناء أو الرقص أو التمثيل وغيرها، لطالما يهتم بشكل أو بآخر بشعر رأسه سواء أكان ذكرًا أم أنثى في إشارة لمواكبة العصر وتطوراته.

ولعلنا نلمس أن الشعوب القديمة أيضًا كانت لها اهتمامات خاصة بالشعر من قبيل التسريحة ولون الشعر وكيفية التباهي به، وعلى مستوى المرأة فهي تهتم بشكلٍ مستمر بشعرها، وتتمنى أن يظهر بمظهرٍ لائق يجذب الآخرين؛ لأنه يدل على الأنوثة وهو سر جمالها، وتحرص على الاهتمام بالشعر في كافة أنحاء جسدها، إذ إن هناك مناطق تسعى لأن يتكاثر وينمو شعرها فيها من قبيل مثلاً شعر الرأس. وهناك مناطق تحاول ساعية لإزالته منها من قبيل مثلاً الوجه والبشرة وباقي مناطق الجسم، إذ تسعى المرأة لأن تكون ملساء دائمًا باستثناء شعر رأسها وحواجبها ورموشها، والتي ظهرت لهم تقنيات حديثة كالشعر المستعار والرموش الاصطناعية وحلاقة الحواجب والاستعاضة عنها بـ "الوشم" (التاتو).

كذلك فالرجل قد يعير أهمية للشعر، ولكن ليس بالقدر الذي تهتم دائمًا المرأة فيه، إذ يحرص على شعر رأسه وخاصةً عند الشباب، وكذلك الذين يجدون أنفسهم أصحاب شهرة أو مهمين في المجتمع من خلال مراعاة ما هي التسريحة المناسبة لهم، ويغيرونها طبقًا لموديلات الشعر العالمية.

كما إنهم قد يحرصون على إبقاء شعر الوجه المتمثل بالشاربين واللحية كدلالة على الرجولة ومراعاةً للعرف والتقاليد المجتمعية، إذ إن هناك مجتمعات وفق عاداتها ومنظوماتها الثقافية لا يجوز لرجالها حلق لحاهم وشواربهم، فذلك عرف متفق عليه قد نص على أن الرجل يُعرف بشاربه ولحيتهِ. وقد نصَّت بعض التشريعات الدينية أيضًا





على ضرورة إبقاء اللحية دون حلاقتها، في حين تعتبر مجتمعات أخرى أن شعر اللحية والشاربين من القذارة التي لا يجب إبقاؤها ومن المفروض حلاقتها دائمًا، فهي دليل الطهر والنظافة والأناقة، وذلك بحسب عاداتها وتقاليدها التي نشأت عليها تلك المجتمعات.

لذلك فما الاهتمام بالشعر سواء للمرأة أو الرجل إلا لإرسال رسائل عدة تشير إلى جمالية الإنسان أو رجولته أو أنوثته، أو محاولة لجذب الآخرين والإشارة إلى مواكبة التقدمات وأساليب الموضة العصرية، لذا بات الاهتمام بالشعر من الضرورات التي تكون ملزمة اليوم للكثيرين في الحياة، وعلى أساس ذلك هُيأت الكثير من المستحضرات والشامبوهات التي تزيد الشعر جمالاً ونعومةً وتعالج أنواع الشعر المتأثر، ومعدات وأجهزة تركب الشعر وتسرّحه كيف ما يريد صاحبه، وألوان عدة تُظهر الإنسان بصورةٍ أخرى تفصح عن وضع وهوية أخرى للإنسان بجسده المتغير، والمتمثل في جزءٍ منه ألا وهو شعره.

هناك مجتمعات أو ثقافات مثلاً تفتخر نساؤها بالشعر الطويل الناعم الذي لا تحويه أي تجاعيد أو تقصّفات تذكر، ومن تملك هذا الشعر أو تسعى بالحصول عليه ستكون عندهم من المتميزات، والحائزة على أوصاف الأنوثة المتكاملة نوعًا ما، في حين أن هناك مجتمعات ترغب نساؤها وفق تقاليدهم بالشعر القصير جدًّا أو الوسط، وتقوم بتسريحه وفق ما يتلاءم والواقع الذي يعشن به.

ولأهمية الشعر كلغة فعالة في المحيط الحياتي، دأب العقل الإنساني لإيجاد بدائل للشعر المتساقط وحالات الصلع، منها الشعر المستعار، وكذلك الأدوية والمضادات التي تعالج التساقط أو الصلع، هذا فضلاً عن عمليات زرع الشعر التي انتشرت بشكل كبير، وباتت لا تشمل شعر الرأس فقط، وإنما شملت زرع شعر الحاجبين والشاربين واللحية وغيرها.

فالشعر هو من مكملات الجمال لدى الإنسان الذي يبتغي منه الوصول إلى أعلى درجات الأناقة، والظهور بمظاهر برّاقة ممكن أن تجذب الآخرين وتشكّل لغة تفاعل، وتوسّع العلاقات بين الآخرين.





## اليدان:

اليدان في جسد الإنسان تؤديان دورًا كبيرًا ومعبّرًا عن الكثير مما يدور في داخل الإنسان، والذي قد لا ينطق به عن طريق الكلام، فتعوض عنه اليدان بحركاتها التي تمثل رسائل واضحة للآخرين عما يريد قوله أو فعله الشخص تجاه الآخر.

وتمثل اليدان أكثر الأدوات المهمة والتي ساهمت في تطور الإنسان، وهي شديدة الارتباط بما تقوم به بإيعازات العقل التي يوعز بها إليها لتقوم بما يريده الإنسان(1).

إننا قد نشير من خلال اليدين إلى العنف أو الحب أو الكراهية أو التعاملات اليومية الطبيعية، أو المزاح أو التحقير والإهانة وغيرها. هذا فضلاً عن أن لليدين جانبًا وظيفيًّا كبيرًا تقوم به يتمثل حالها حال الأعضاء الأخرى بالقيام بما هي مكلفة به، مثل تسيير أمور حياة الإنسان التي ينجزها عن طريقهما والاستعانة بهما استعانة قصوى، إلا أن اليد فضلاً عن جانبها الأساس ذلك فلها لغة أو وظيفة أخرى؛ إذ إنها قد يستعين بها الإنسان للتعبير عما في داخله دون الاستعانة باللسان والفم والكلام، فقد نستخدمها كلغة في إصدار بعض الإشارات في التكتيك مثلاً أو التخطيط لشيء معين نستخدم اليد فيه فقط، أو نستخدمها كلغة قائمة في بعض إشارات التحقير للآخر، أو الإشارة إلى قوة الجسد مثلاً بإصدار ما يشير إلى القوة والصلابة. كذلك مثلاً رسم بعض الأشياء بالإشارات كأن تكون صورًا أو أرقامًا أو حتى كلمات معينة، كل ذلك نستخدم اليد فيه كلغة قائمة بذاتها.

في العديدِ من الثقافات تُستخدم اليد إشارات بالأصابع، فهي تُعبر عن مكنونات في دواخل من يستخدمها، فقد تشير إلى التعاون أو الاتحاد أو الزواج والخطوبة، أو تُشير إلى الفساد والنكاح والجنس وغيرها، حيث تُستخدم تقنية اليد بلغتها التي توصلها للأشخاص وفق صورٍ متعددة.

لقد أصبح الجسد يشير في أعضائه إلى جوانب استعارة وإلى رموز اجتماعية متعددة، فكثير من أمور الحياة في المجتمع قد تمت استعارتها من أعضاء الجسد

---

(1) Allan & Barbara pease, The Definitive Book Of Body Language, McPherson's Printing Group, Australia, 2004, p. 32.





والإشارة إليها، مثلاً الإشارة إلى اليد اليسرى واستعمالاتها، وأنها على الأكثر ليست أفضل من اليد اليمنى في الاستخدام، إذ قد تشير إلى الشر وما إلى ذلك(1).

والمجتمع أيضًا يبني على استخدامات اليدين من خلال مكانتهما في جسد الإنسان وفي المجتمع، إذ إن بعض الثقافات تحبذ استخدامات اليد اليمنى على استخدامات اليسرى منها، إذ إنها تلصق عرفيًا وشرائعيًا أفعال الخير باليد اليمنى وأفعال الشر باليد اليسرى لاستنادات لا مجال لنا هنا لذكرها؛ الأمر الذي يجعل من اليد اليمنى مفضلة بكل ما تحويه وتعمله عن اليد اليسرى ولها الفضل في ذلك.

وكذلك ترتبط بتعاملاتها تقنيات الحياة وما تعارف عليه من خلالها، فالإتيان بالأعمال باليد اليسرى في مجتمع تعوَّد على فضائل اليد اليمنى، يعد ذلك خروجًا على العادات والتقاليد، وإجحافًا بحق الفضائل التي أحيطت بها اليد اليمنى، إذ إن الثقافة بأجزاء منها قد بنيت في تلك المجتمعات على هذه الصورة.

ولا يمكن القول بأفضلية عضو من أعضاء الجسد على الآخر إلا وفقًا للاستخدامات التي يقوم بها، فكل عضو له مكانته الخاصة في الجسد، والتي لا يمكن أن يعوّضها عضو آخر يأتي مكانه، لكن ربما هناك أعضاء تقوم باستخدامات أكثر من غيرها، لكن ذلك لا يعني أنها الأهم في الجسد.

وتقوم اليد بالكثير من الاستخدامات التي يعتمد عليها الإنسان في حياته، بمعنى أنها تهم الإنسان في جسده ماديًّا ومعنويًّا، ماديًّا من خلال ما تقوم به من تقنيات تعين الإنسان في حياته، فنحن نستخدمها لقضاء حاجياتنا الخاصة والعامة، ونصافح بها ونأكل ونشرب نتشاجر ونصنع ونؤسس ونقيم ونكتب بها، وأيضًا نستطيع أن نخرب بها ونقتل ونعرض المجتمع للخراب والانهيار، ونمارس أعمالنا جميعها عن طريقها وبالتعاون مع الأعضاء الأخرى، ومعنويًّا من خلال امتلاكها للغة قائمة بحد ذاتها توصل للآخر رسائل متعددة يريد الإنسان أن يُعبر عنها.

---

(1) Nicholas Abercrombie and others, Op cit, p. 33.





شكل (4) يوضح إشارات وحركات اليد



## الأرجل:

وعن طريق الأرجل تكتمل استخدامات الإنسان المتعددة وحاجته للجسد، بالإضافة للتشاركية الواضحة مع أعضاء الجسد الأخرى، فنحن نسير بهما ونقف ونركل ونمارس الرياضة، ونصعد ونتحرك من خلالهما، فضلاً عن ذلك فلهما لغة خاصة في المجتمع، تشير إلى استعارات ورموز معينة، إذ يقال مثلاً إن قدوم الشخص الفلاني بأرجلهِ أدى إلى قدوم الخير، دلالة على أهمية ذلك الشخص وصلاحه والعكس من ذلك.

وكذا الحال مع القدم اليمنى وأفضليتها في تقديمها على القدم اليسرى في دخول الأماكن، وربطها بهذه الاستعارات الرمزية. على أن هذه الرمزيات لا توجد في كل ثقافات المجتمعات، وإنما هناك مجتمعات تستخدمها وأخرى لا تعرف لها وجودًا، وما ذلك إلا تابع لطقوس وشرائع تلك المجتمعات، وما تعتقده حول هذه الرمزيات من خلال ما تسبغه عليها من تأويلات وتعليلات.

وتحتل الأرجل في جسد الإنسان مكانة مهمة، إذ تشير حالها حال الأعضاء الأخرى إلى ناحية جمالية وتكاملية في صورة الإنسان، لذلك عند فقدان هذه الأرجل أو إحداهما قد يعكس ذلك تأويلات لكلا الطرفين الفرد والمجتمع تجاه بعضهما





الآخر، فقد ينظر الفرد فاقد رجليه أو إحداهما إلى نفسه على أنه بات عاجزًا غير قادر على موازاة بني جنسه، أو هو غير لائق لهم أو شاذ. وقد ينظر له المجتمع على أنه بات عالة ومُعاقًا غير قادر على الإتيان بشيء نافع. وقد تهبط مكانته، ويُنظر له على أنه ناقص في أحد أعضائه، وكل ذلك قد تأتى من أن للأرجل لغة خاصة تفرض ذاتها على الفرد نفسه، من حيث كونها مكمّلة لجسده، ولا يمكن الاستغناء عنها أو على الأقل الحلول مكانها وتعويضها بصعوبة، وتفرض وجودها على المجتمع من خلال ما ترسله للآخرين من رسائل تشير إلى كمال الجسد وقوته، وانسياقه ضمن الجنس البشري وعدم ركونه للشواذ.

فالمعاق اليوم يشعر أنه عاجز، وأن الرسائل التي كانت ترسلها أرجله بلغتها الخاصة للمجتمع باتت مفقودة، إذ إن المجتمع لا يعير أهمية مثلاً للاعب كرة القدم الذي يصاب بإحدى أو كلتا رجليه، فأرجله كانت هي من تؤدي الدور عوضًا عن أعضاء جسده الأخرى، أو أن هذه الأعضاء تساعد هذه الأرجل وهي تقوم بالمهمة الرئيسة، فما تقوم به من تقنيات لا تستطيع أن تؤديها بإصابتها أو فقدانها.

ولعل أي إشارة ممكن أن يستخدم الإنسان بها الأرجل لإرسال رسالة للآخر، والتي قد تكون واضحة أو مبهمة عند البعض. وتختلف هذه الإشارات بعضها عن الآخر في داخل الثقافة الواحدة ربما وبين الثقافات الأخرى، فما تستخدمه الأرجل من حركات وإشارات في مجتمع معين قد لا تستخدم في مجتمع آخر.

## لغة الوقوف والجلوس:

في وقوفنا وجلوسنا لغة، وهذه اللغة تختلف بوضعيات الوقوف والجلوس من مكانٍ إلى آخر، فوقوفنا وجلوسنا في البيت ربما يختلف عنه في مكان عام أو مكان يستلزم الكثير من الأدب والالتزام، وحتى الوضعيات في المكان ذاته قد تعبر عما نريد قوله والبوح به تجاه الآخر.

إن هناك وضعيات في الوقوف والجلوس، منها ما يشير إلى احترام الذات والآخر، وبعضها يرسل رسالة احتقار للآخر أو امتهان كرامته، وأخرى تشير إلى





الرغبة في الجنس، أو الرغبة في العنف وعدم المبالاة، وغيرها ما يشير إلى الالتزام والحفاظ على النفس واحترام الآخر والتودد وغيرها.

ولعل وقوفنا وجلوسنا في مكانٍ معين بأدب قد يشير إلى حالتين: الأولى هي احترام الذات والتنشئة الصحيحة لذلك الإنسان، التي كيَّفت فيه احترام الآخر في كل شيء، والحالة الثانية هي محاولة احترام من يقف ويجلس معنا، وكرسالة واضحة له بأنه محترم ونحن نقف ونجلس معه بأدب. ويتمثل الجلوس والوقوف المحترم بالوقوف والجلوس اعتياديًّا وبشكلٍ بسيط، سواء كان الجلوس مثلاً على كرسي بعدم وضع الأرجل واحدة فوق الأخرى، أو التمايل بالجسد في غير موضع الكرسي، أو حتى فتح الأرجل أو رفع واحدة من الأرجل، ووضعها على كرسي آخر، وفي الأرض تتمثل بالجلوس بوقارٍ دون فتح الأرجل أو رفعها أو التمدد على الأرض أو إعطاء الشخص الجالس معه ظهره، فذلك دلالة ورسالة واضحة لعدم الاحترام.

وأكثر ما يُلفت الانتباه هو الوقوف والجلسات التي تُثير الجنس، والمتمثلة سواء للرجل أو المرأة بفتح الأرجل بشكلٍ واسع، أو ثني إحدى الأرجل عند الوقوف، أو الانحناء على طاولة مما يثير الرغبة الجنسية عند الآخر. وهناك حركات تستخدم في الجلوس تتفق عليها بعض الثقافات تشير إلى الرغبة الجنسية والرغبة في التقرب من الآخرين، فهناك إشارات تستخدم في الجلوس من خلال ضم الأرجل أو تصالبها، تشير إلى صعوبة التقرب من هذا الشخص وخصوصًا عند المرأة، والعكس من ذلك عند فتح الأرجل وخاصة عند المرأة، فالأمر قد يبعث برسالةٍ إلى الآخر بإمكانية التقرب.

فنحن في الأماكن التي تتطلب احترامًا وتقديرًا وذوقًا عامًّا لا نجلس على الأرض في حين توجد الطاولات والكراسي مراعاة للذوق العام. كما إننا في الأماكن التي يحضرها الكثير من الناس لا يمكن أن نجلس وظهورنا للناس، فذلك دليل على عدم الاحترام، ويختلف ذلك من ثقافة إلى أخرى على حسب هذه النظرة.

كما إن الرجل والمرأة لا يستطيعان أن يجلسا في أي مكان ويرفعا أرجلهما إلى فوق، فذلك إشارة للتحقير وعدم الاحترام، والاستخفاف بالذات وبالآخرين.

كما إن لوقوفنا وجلوسنا لغتيهما الخاصتين اللتين تحتمان علينا معرفة أين ومتى نقف ونجلس، فنحن ربما لا نقف أو نجلس على مسافاتٍ قريبة جدًّا تصل إلى حد





الالتصاق مع آخرين ليست لدينا معرفة بهم، فلكل واحد منا فضاؤه الخاص به الذي لا يمكن تجاوزه، إذ إن وقوفنا وجلوسنا بالقرب من الآخرين معنى ذلك أننا نتودد لهم ولا نريد أن نبتعد عن مجلسهم، والعكس من ذلك الاحتفاظ بمسافة تفصلنا عن الآخرين في الوقوف والجلوس، معناه أن لنا خصوصياتنا ولنا فضاءاتنا الخاصة التي لا نريد أن يشترك معنا بها أي شخص آخر. وقد نفعل ذلك لأننا لا نرغب بمن يجلس بالقرب منا أن يشترك معنا فنضع مسافات فاصلة بيننا وبينه.

فالجلسة الحميمية بين اثنين أو أكثر أو بين المحبين والعشّاق، تختلف عنها في الجلسات الاعتيادية التي تصطبغ بالرسمية والأعمال والروتين، فقد تتم المحافظة على تقنية الجلوس وبهدوء ووقار عند الجلسات الرسمية وبين أشخاص لا توجد بينهم حميمية مثلاً. وتراعى في أكثر الأحوال في هذه الجلسات أصول التعامل والتصرف بين الجالسين، في حين أنه في الجلسات غير الرسمية قد ينطلق الجسد ولا يراعي أصول الجلوس مع من يتودد له، أو يكون قريبًا روحيًا أو تعاملاتيًا منه، ولا يحاسب كل منهما الآخر على نوعية جلوسه، وإن كان قد احترمه في ذلك أم لا، فالجلسة مفتوحة ولا غبار عليهم فيها، وتتقلص المسافات في هذه الوضعيات، وقد تلتصق الأجساد عند المحبين ولا يحد بينهما حاجز أو مسافة.

**شكل (5) يوضح وضعيات الجلوس**







والرمزيات في العديدِ من الثقافات تضع المهم من الأشخاص الأول في مجلسه وباقي الناس وراءه، إشارة لأهميته وأهمية جلوسه في المقدمة، على اعتبار أنه يمثل القائد والمسيّر والمفضل ربما عليهم، وذلك يختلف بحسب الأهمية والاحترام اللتين يوليهما المجتمع لهؤلاء، ويسبغهما ربما على أشخاص دون آخرين منهم.

لذلك تختلف وضعيات الجلوس عند الملتزم دينيًّا عنها عند الإنسان الذي يصول ويجول في الأرض فسادًا، وتختلف عند الإنسان غير الواعي والمدرك لقيم وثقافة مجتمعه عنها عند الواعي لكل هذه الأشياء، إذ إنها تمثل لغة تُرسل على شكل رموز معينة تُترجم لعبارات وأهداف مقصودة للآخر، الهدف منها إيصال ما يريد الفرد قوله للآخرين.

إننا اليوم نستعير أعضاء الجسد في كثير من أمور حياتنا، فقد يقال مثلاً من ناحية التشبيه والتوصيف إن فلانًا من الناس هو عقل بتشبيهه بأحد أعضاء الجسد الإنساني المهمة والرئيسة، للإشارة إلى نبوغه وفطنته وعلمه، لكون العقل هو المسؤول عن فكر وعلم وفطنة الإنسان، وكذا الحال عندما يقال إن شخصًا ما هو قوي بالإشارة إلى عضلات الإنسان القوية واقترانها بالقوة والبأس، وأيضًا عندما يقال له قدم ذهبية أو رأس ذهبي استعارة لها في أنواع الرياضات المختلفة، هذا فضلاً عن تشبيهات ورمزيات متنوعة.

إن الفرد اليوم يسير في الشارع سيرًا متزنًا، ولا يكون اتزانه وهدوءه هذا إلا مراعاة لسياق الحياة الاجتماعية التي تتطلب منه أن يكون بهذه الصورة، إذ إننا بإمكاننا أن نتصرف بأجسادنا كما يحلو لنا، وفي أي مكان في الشارع والمناطق العامة الأخرى، فنحن من نملك أجسادنا وليس لأحد الحق في منعنا من استخدامها في أي شيء، لكننا وجدنا أنفسنا أننا لسنا أحرارًا بمعنى الحرية التي تفسد الحياة، وتطلق العنان للجسد للتجاوز على أمور وقواعد الحياة وسنن الآداب.

من ذلك يراعي الإنسان سيره وتصرفاته الجسدية في الطرق والأماكن التي يحضر فيها، لوجود ثقافة وآداب وقواعد عامة يفترض أن يخضع لها الجسد، لذلك عندما نرى شخصًا عبثيًّا في سيره وغير منتظم، نطلق عليه حكم عدم مراعاة آداب وتقاليد وحدود المجتمع الذي يعيش فيه.





كما إن مظهرية الجسد أيضًا تفرضها حدود وقواعد المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، فالإنسان الذي يعيش في مجتمع منغلق معزول عن صور الحضرية والعصرنة، لا يمكن أن يظهر جسده بصورةٍ حديثة ويستمر بذلك المظهر، فذلك يعد تحديًا وخرقًا لإرث الأجداد.

وكذا الحال بالنسبة للذي يعيش في المناطق الحضرية والمنفتحة، فمن غير الممكن عليه أن يخضع جسده لصور لم يألفها سابقًا أو تعوَّد عليها، أو لا تتناسب مع بيئته وقوانينه. وقد تحدث حالات من قبيل مثلاً تقمّص الفرد لعادات وقواعد مجتمع آخر، وذلك يتطلب محاولات التكيف والاندماج؛ لأنه يمثل الانتقال من ثقافة إلى أخرى يبتغي الاندماج بها.

حتى إن الذي يندمج من البيئات المنغلقة مع البيئة المتحضرة، فشكله الجديد يحدده المجال الاجتماعي الذي يخوض فيه، إذ يصبح في نظر أبناء بيئته الفرد الذي يعمل في المدينة الحضرية، ولا يصفونه بأنه الفرد المنسلخ عن عاداتهم وتقاليدهم، فما عليه من صورة جديدة لجسده والمتمثلة بشكله الكمالي وحركاته وأسلوب كلامه قد فرضه عليه وضعه الجديد، لكنه لا ينسى تراثه وجذوره، إذ يتصرف بتصرفات تلائم وضعه في المدينة، ويتصرف بأخرى في بيئته تناسب معطيات وقواعد أهله وعشيرته.

وعندما نشاهد أفرادًا قد غيَّروا من صور أجسادهم، أي من ناحية مظهر الجسد أو ما يرتديه، فدلالة ذلك تأثر هؤلاء الأفراد بأوضاع جديدة قد فرضها الحال الاجتماعي عليهم، فالفرد الذي يطلق لحيته بشكلٍ كبير مثلاً ويلبس ما يرمز إلى كونه رجل دين، هو لم يُظهر شكله بهذه الصورة إلا بسبب أفكار وطروحات قد تبنّاها وأصبح لزامًا عليه أن يسير وفقًا لما يراه مناسبًا لها، فهل يُعقل أن يلبس وفق آخر صيحات الموضة، وما اعتنقه وآمن به يرفض ذلك، ويحدد مظهرًا خاصًّا يفترض أن يكون وفقًا له؟

وأيضًا هناك من يعتنق صورًا مظهرية لجسده تختلف عن بيئته، أي إنه لا يذهب لبيئة أخرى ويتواجه مع ثقافتها وطراز مظهرها، وإنما هو باقٍ في بيئته، لكنه يتقمص أصولاً مظهرية أخرى من خلال تماسه واحتكاكه بكل ما يختلف عن بيئته، ويشير إلى أوضاع خارجية أخرى، إذ فتحت قنوات الاتصال المعلوماتي الأبواب على





مصراعيها لجعل الإنسان يطال كل ثقافة ويعرف أصولها، وعلى ماذا تحتوي، فلم يعد اليوم الإنسان بمعزل عن باقي الشعوب والثقافات، إذ يسرت ثورة المعلومات مهمة التفاعل والتعاطي بين مختلف الثقافات، وحطَّمت كل الحواجز والأسوار التي تفصلها، فلم يعد على الإنسان حتى يتقمص أطر حياتية جديدة من العالم الآخر أن يسافر ويقطع كل المسافات والتعايش معها، وإنما عن طريق وسائل المعلوماتية التي مكَّنته من التعرف على كثير من دقائق تلك الشعوب، وأصبح الأمر أسهل من أن يضطر الفرد للذهاب إلى مجتمع ما حتى يتحقق تقمصه لثقافته، وإنما حتى وهو داخل مجتمعه بات يستطيع اقتباس ثقافات مختلفة عن طريق وسائط المعلوماتية المختلفة، التي أضحت تنقل عادات كثير من الشعوب وتقاليدها وفنونها، وكذلك العديد من اللغات وفنون الكلام والتحرك والرقص والملابس والرياضات المختلفة.

فاليوم نلحظ دخول العصرية لأكثر دقائق حياتنا، ليس بسبب قربنا من المجتمعات المتقدمة، وإنما ما نقلته الميديا والرحلات والتجارة لنا لتجعل إنساننا من الممكن أن يظهر بصور جسدية مختلفة عن إرثه وثقافته التي ترعرع عليها.






مكتبة
التنوير

## الفصل الخامس

# تمظهرات السلطة على الجسد






مكتبة
التنوير

إن الجسد يخضع في كل مراحل حياته لسلطات عدة تُمارس عليه أدوارها، ولا يمكن أن نحدد زمنًا واحدًا أو مكانًا معينًا لهذه السلطات، فالجسد في كل الأزمان والأماكن يتعرض لهذه السلطات التي تُفرض عليه، لغرض تقويمه وبنائه ومساعدته في شق طريق الحياة، فالجسد لا يمكن أن يكون بمنأى عن آليات حكم تحكمه وتحدد انطلاقاته وحريته في الحركة والتوسع والنمو والنشوء، فهناك ما يضمن سير الجسد وفق آلية معينة وتسمى بالسلطة، التي ليست بالضرورة أن تكون سلطة قاسية على الجسد، وإنما قد تكون سلطة يحتاجها الجسد للانتظام في الحياة والسير وفق ما وضعته السلطة أيًّا كانت له، إذ تكون مهمتها بناء ذلك الجسد لما يحتاجه ويكسبه قوَّة وتدرّبًا، أو تحطيم ذلك الجسد وجعله مفرّغًا من الداخل، وعلى أساس ذلك يتعرض جسد الإنسان لعدة سلطات يخضع لها في حياته يمكن أن نجملها في الآتي:

## سلطة الولادة والطفولة

إننا اليوم نخضع في أجسادنا من الولادة وحتى الممات إلى عدة سلطات تحكم الجسد وتجعله يتصرف وفقًا لها، وليس المقصود بالسلطات التي تمارس القمع والتي يمثلها الشموليون وغيرها، وإنما المقصد من ذلك سلطات المجتمع والحياة بما تتضمنه من قيم وأعراف وعادات وتقاليد، والتي تمارس نوعًا من الضبط السلطوي على الجسد، لكي لا يخرج مثلاً عن أصول وقواعد عشيرته أو أسرته، والاندراج وفق تلك السلطة لكل ما يريده العرف والقاعدة والقانون.

فالجسد محكوم بسلطة قوانين المجتمع الذي يريده أن يتصرف وفقًا لها، كما إن الطفل الذي يولد تكون كل حياته وجسده ملكًا لذويه الذين يمارسون سلطتهم للتصرف بهذا الجسد من ناحية قوة قراراتهم في تربيته وضمان سلامته من الأمراض، وتدريبه وتعليمه أسس الحياة بمبادئها الأولى، وهذه هي طبيعة الحياة التي تفرض على





الفرد عند ولادته أن يكون خاضعًا لسلطات بنائية، تحاول تربيته وتهتم به وتحاول الوصول به إلى مراحل متقدمة، فتحاول هذه السلطات أن تقدّم ما بوسعها للطفل فهناك سلطة تهتم بصحة ذلك الطفل في جسدهِ وبنيته، وأخرى تهتم بمظهره وملبسه ومأكله، وأخرى بتعليمه وتربيته وتشرّبه لمعارف وأسس وعادات أسرته المشتقة من المجتمع الذي يعيش فيه، وكل هذه السلطات تمارسها الأسرة التي تمثل المهد الأول لذلك الطفل، إذ لا يعي الطفل عند ولادته ونشوئه أي شيء من حياته، ويكون عديم الإدراك وغير واعٍ لكثير من الأمور، وغير قادر ومدرك لتوفير حاجاته، لذلك يكون هذا الأمر من نصيب واهتمام أسرته وخصوصًا الوالدين وبخاصية أكثر الأم، إذ يفرضون عليه أشياء لا يعرفها ويدركها، لكنها مفيدة له بسلطاتٍ معينة تؤدي إلى بناء ذلك الطفل والحفاظ عليه. وتلقائيًّا فإنه يخضع لكل هذه السلطات دون تفكير منه حتى وإن كانت خاطئة، فهو يتقبلها لأنه لا يعرف كيف يتعامل مع الحياة، فهو صفحة بيضاء.

ثم ينتقل الطفل للانصياع تحت سلطات أخرى في الحياة، منها سلطة المدرسة بقوانينها التي تبني ذلك الإنسان وتصل به إلى مراحل متقدمة من الرقي، إذ تشكل المدرسة وحدة ضرورية جدًّا لبناء كيان الطفل، فهي تمارس عليه عدة سلطات أيضًا فضلاً عن سلطات الأسرة البنائية، منها سلطة التربية والتعليم والتلقين وترسيخ المبادئ التي تسيّره في الطريق الصحيح، والتي تجعل منه نموذجًا مستقبليًّا زاهرًا، وتمارس أيضًا سلطة الثواب والعقاب التي تتمثل بتحفيز الطفل أو التلميذ على الاجتهاد والتفوق، وتحاسبه على عدم النجاح عند تقصيره وإهماله لواجباته، أو عدم الانصياع لإرشادات معلميه. كما تساهم المدرسة بسلطاتها البنائية والتربوية أيضًا في صقل مهارات الطفل، فيفصح عنها سواء كانت فكرية أو رياضية، وغيرها من المهارات التي تساعده في شق طريقه نحو النجاح. ويتعلم الطفل في المدرسة كيف ينتظم ويتصرف بانضباط، وتتشكل صورة جسده بما يلائم كونه تلميذًا من ناحية الآداب والتفوّق، والمنظر وأسلوب الكلام والتعامل مع الأقران، وكل ذلك سببه السلطات الإضافية البنائية التي أضافتها له المدرسة، والتي تجعل منه مُستقبِلاً لكل ما يُطرح بها، وتزجّه إلى سلطات الحياة الأخرى لتمارس دورها عليه.





"لقد كان هناك اكتشاف كامل خلال العصر الكلاسيكي للجسد كموضوع للسلطة، وبسهولةٍ تم اكتشاف إشارات تنم عن هذا الاهتمام الكبير الموجَّه يومئذ إلى الجسد، الذي يُلقّن ويُكيّف ويُدرّب ويُطوّع، والذي يستجيب ويصبح ماهرًا وتتكاثر قواه"[1].

وبالطبع باتت ملامح الاهتمام بالجسد وبالسلطات التي تمارس عليه واضحة جدًّا، وبدأت كثير من المجتمعات إيلاء الأمر أهمية كبرى، لملاحظة كيفية تناغم الجسد مع المؤثرات الخارجية، والمتمثلة بالسلطات الضامنة لتطور وبناء الجسد وغيرها. ولعل ترويض الجسد والرفع من كفاءاته وتطوير قدراته ودمجه في متغيرات المجتمع، كل ذلك قد أمنته إجراءات لسلطة تحدد الانضباطات للجسد[2]، وبالتالي جعلت من الجسد صورة مشكّلة وفقًا لهذه السلطات وما تريده من الجسد، سواء في حدود بنائه وإكسابه الرصانة والتطور، أو في تحطيمه وجعله مفرّغًا من الداخل وقاصرًا في محتواه.

## سلطة المجتمع

وتنعكس على الجسد الإنساني كل تمظهرات الحياة، وما تريد أن تؤديه من ضبط وتلقين ودمج وأعراف وقوانين، والجسد يظهر بصورة الـمُستقبل لكل هذه الأشياء، ويمكن أن يستمر لمراحل طويلة من حياته إلى مماته، وهو يتحمل كل هذه السلوكيات، والتي تساهم من جانبٍ في نشوئه وتطوره وبناء كيانه والاستمرار بقوة وصمود في الحياة. وقد تساهم من جانبٍ آخر في تحطيم ذلك الجسد، وإنزال الأذى به عندما يتعرض لسلطات لا توجهه بصورةٍ صحيحة، وتبتغي تقويضه وهدمه.

وفي ميدان السلطة على الجسد وتمظهره وفق هذه السلطات، يذكر "فوكو" أن الجسد هو "موطن الاستثمار وحلبة الصراع وموقع المفاعيل المتكاثرة. إنه غارق مباشرة في ميدان سياسي، فعلاقات السلطة تمارس عليه تأثيرًا مباشرًا. إنها تستثمره،

(1) ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة**، مصدر سابق، ص 158.

(2) ميشيل فوكو، **تأريخ الجنسانية: إرادة العرفان**، ترجمة: محمد هشام، المغرب، أفريقيا الشرق، 2004، ص 116.





توسمه، تروضه وتعذبه، تفرض عليه أعمالاً، تلزمه باستعراضات وتطالبه بإشارات، هذا الاستثمار السياسي للجسد مرتبط وفقًا لعلاقات متشعبة ومتعاكسة باستعماله الاقتصادي، فالجسد لا يصبح قوة نافعة إلا إذا كان في نفس الآن جسدًا منتجًا وجسدًا خاضعًا"[1].

إن الجسد هو انعكاس لما فرضه المجتمع عليه من سلطات، ولا يمكن له الخروج عن هذه السلطات التي تشكّله على هذه الصور المتعددة، فحتى يكون الفرد مقبولاً في حياته وبين مجتمعه، يفترض عليه أن يخضع لسلطات مجتمعه، والقاضية باحترام قواعده وتنفيذ أوامره، والتمظهر بكل ما يناسب عاداته وتقاليده، لذلك يتشكل جسده وفق هذه القواعد، ولا يمكن لذلك الفرد الخروج عنها أو الظهور بصورةٍ جسدية تخالف ما وجد نفسه ومجتمعه عليه، كأن يلبس أزياء تخالف عاداته وأصوله، أو التصرف بتصرفات وحركات لا يوجد لها قبول أو تقليد حركات وإيماءات لا تتناسب ومجتمعه وسلطاته، لذلك وفق هذه السلطات يجب عليه أن يسير وأن يشكّل ويكيف جسده له.

لكن ذلك لا يعني أن الفرد يخضع بجسدهِ دائمًا لأعراف وقواعد صحيحة في مجتمعه، فقد تمارس عليه سلطات مجتمعية غير صحيحة، لكن العادات والأعراف جعلتها أخطاءً شائعة يعدونها صحيحة، ويجب عليه تقديم صورته بما يلائمها ويتسق معها.

لذلك فالمسألة العنصرية من حيث كونها مشكلة عالمية، فهي مشكلة اجتماعية بصفةٍ أساسية، تم على أساسها تحديد علاقات منعزلة عن علاقات جماعات أخرى، وتحديد خواص عنصرية تتمثل بلون البشرة الذي يخلق تمييزًا عنصريًّا كبيرًا بين الجماعات[2]. إذ إن قضية لون البشرة هي خلق طبيعي، لكن ما تفرضه الثقافات من اعتقادات وتناقضات، تجعل هناك تحديدًا واضحًا لما يسمى بالتمييز العنصري بين الأسود والأبيض، ويتم على أساس ذلك ممارسة سطوة وسلطة نحو الآخر المختلف في لون البشرة.

---

(1) ميشيل فوكو، **المعرفة والسلطة**، مصدر سابق، ص 87.

(2) ر. د.ج. سيمونز، **لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية**، ترجمة: علي عزت الأنصاري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2009، ص 19.





وللتمييز العنصري على أساس لون البشرة إرهاصات كثيرة جعلت من الإنسان يقسوا بسلطته غير العادلة على أصحاب اللون الجسدي المختلف، وسُجّلت الكثير من الحوادث التي قامت على التمسك بمسألة التمييز وما يترتب عليه. إذ عُد ذلك مخالفة لخلق الخالق، والنظر للون الجسد الآخر على أنه دوني وغير محترم ولا يستحق الحياة، ودليلهم في ذلك أن "الله" تعالى خلقهم بأجمل صورة وبلون أبيض يختلف عن الأسود، لما لهم من قيمة ومميزات واستحقاق في العيش، لذلك فالمجتمع بثقافتهِ وسلطاته فرض على المختلفين في لون البشرة سلطات من قبل من يختلفون عنهم من الآخرين، وعليهم أن يتحملوها، وكأن ذلك مصيرهم المحتوم والمقرر لهم.

إن من ضمن الخصائص الجسمية التي صنفتها الكثير من الدول والشعوب للبشر هو تحديد لون البشرة، وعلى أساس ذلك اتُّهمت العرقية ذاتها بشحن خصائص سلبية للأجساد والوجود الجسمي عن الشعوب المختلفة[1].

إن تحديد لون البشرة بأنه يختلف عن الآخر وعلى أساسه تمنح الامتيازات والفرص والحق في الحياة والعيش، كان وما زال آفةً تعني تهميش الجنس البشري من خلال التدخل في طبيعة جسده وما يحمله من صفات، والبناء على أساسها العديد من المعطيات التي تحرم الإنسان أبسط حقوقه.

ولعل المؤمن بصحة قضية التمييز على أساس لون البشرة، قبل أن يطبّق ذلك واقعًا فهو في أفكاره قد انتهك فضاء وحرية المختلف ذلك، فهو يفكر في أنه لا يستحق أن يُنادي إنسانًا لأنه يختلف عنه لونًا، بغض النظر عن الاختلافات الأخرى، فهو يحمّل مسألة اللون تحميلات كبيرة يخلق من خلالها الذرائع للإطاحة بالمختلف لونًا، فيعد أنه المناسب لهذه الحياة وما هؤلاء إلا عبيد لخدمتهِ، لذلك جاءوا مختلفين في اللون، وعليه يجب أن يفرض سلطاته وسلطات ثقافته ومجتمعه إن كان يؤمن بذلك على هذا المختلف في اللون، بغض النظر عن كونه إنسانًا وله مثل غيره من الحقوق والامتيازات التي تؤهله للعيش كإنسان.

لقد بنيت ثقافات تؤمن بأن المختلف لونًا وكنوع من العنصرية لا يمكن له الاندماج في المجتمع، وكانت هذه الصورة في أوجها سابقًا عندما برزت مسألة التمييز

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 89.





العنصري، على أساس اللون والعرق والصفات الجسمية الأخرى، وعلى أساس ذلك هُدمت حضارات، وخُلق نوع من البون الشاسع بين ثقافة الأسود والأبيض، إلى أن تم الوعي بها بصورةٍ أفضل من السابق، رغم ظهورها بصورها الهمجية السابقة بين فترةٍ وأخرى.

ويمكن القول إن التمييز على أساس اللون كان قانونًا اجتماعيًّا فرضته الثقافة المتبعة آنذاك، وقد شُبّعت هذه الثقافات بروح التهميش ومحاولة الإقصاء للآخر وسلب حقوقه، وعدّت ذلك سلطة اجتماعية يجب أن يخضع لها المختلف لونًا عنهم.

إن التفرقة على أساس اللون كانت سابقة في روما القديمة لوجود التصنيف اللوني فيها منذ زمن طويل، وفي الهند صُنِف الناس إلى طبقاتٍ وفق اللون، وبعد القرن الخامس عشر صُنِف الناس تصنيفًا جديدًا إلى طبقاتٍ، حيث مُنح البيض أرفع الوظائف في جميع الأعمال[1].

وما هذه التفرقة وامتداداتها الطويلة إلا إشارة لرسوخ المد العنصري آنذاك والمتقنع بالسلطة الاجتماعية، والذي أجبر الكثير من الزنوج وأصحاب البشرة السوداء على الانزواء وفق هذه السلطات القامعة لهم، من خلال عيشهم في هذه المجتمعات وتحت أذرع ثقافتها. لذا فللمجتمع دور وحيز كبير في إرغام الجسد على المثول أمام آرائه وقواعده ونظمه، والتي يتنازل لها الجسد الإنساني ويجد مصلحته في كثير من هذه السلطات، وربما مضرّته في أحيانٍ أخرى منها.

وفعلاً وفق كل هذا فالجسد هو خليط كبير لأصداء وتقلبات الحياة بما فيها صالح الفرد ومضرّته، إذ يُمارس على الجسد شتى أنواع السلطات التي تحاول تقويمه وفرض وجوده في الحياة، وبالمقابل أيضًا قد يخضع الجسد ليس فقط للسلطة التي تقف لجانبهِ، وإنما للسلطات التي تحاول أن تضطهده وتجرده من الحياة وتقسو عليه وتعذبه.

إن الجسد اليوم هو مادة السلطة بجانبيها، المفيد والضار، ومثلما يخضع الجسد لكافة هذه السلطات، فالجسد ذاته يمارس هذه السلطات تجاه أجساد أخرى، فمن

(1) ر. د. ج. سيمونز، مصدر سابق، ص 33-34.





يمارس سلطات توجيه الجسد وتدريبه وتقويمه هو الإنسان ذاته، وهو الذي قد يمارس على الجسد سلطات العقاب والتسلط والظلم والتعذيب. كما إن السلطة الداعمة للجسد والراغبة بتربيتهِ وفق أصول صحيحة قد تقسوا على الجسد في أحيان، ولكنها قسوة تحاول من خلالها إصلاح بعض أخطاء الفرد فتعاقب جسده بعض الشيء.

## سلطات العقاب الجسدي

إن الجسد يتعرض في كثير من الأحيان إلى حالاتٍ عقابية تقوم بها جهة أو فرد على جهةٍ أو فرد آخر، وذلك بالقصاص من ذلك الفرد عبر جسده من خلال إنزال العقاب به، ويختلف ذلك العقاب من فترةٍ إلى أخرى ومن ثقافةٍ لأخرى، ووفق الفلسفة الاجتماعية المفروضة في المجتمع، حتى إن الفرد منذ طفولته إلى أن يدخل معترك الحياة قد يتعرض إلى شتى أنواع من العقوبات التي تطال جسده، فالطفل قد يُعاقب مثلاً من قبل أهلهِ إما لقيامهِ بأشياء ممنوعة لا يحبذها الأهل، والتي تخرج عن مسار قوانينهم وحياتهم، لذلك يستخدمون معه بعض الإجراءات التي ينال الجسد ربما منها نصيبًا.

وتختلف العقوبات في نوعيتها، فقد تكون هناك عقوبات ليست جسدية وإنما توبيخية، لكننا نقصد هنا ما يطال الجسد من أذى وتصنيفه كعقاب للجسد. وقد يتعامل الأهل مع الطفل وعقابه من خلال ضربه ضربًا بسيطًا في مناطق محددة؛ لكي لا يعود إلى القيام بكل ما هو غير متفق عليه أسريًّا أو اجتماعيًّا، أو حبسه في مكانٍ معين من البيت، أو منعه من ممارسة بعض الأشياء، وكل هذه من شأنها أن تلحق الأذى بجسد الطفل، لكن ليس الأذى الذي يُقصد منه إنهاء الطفل والقضاء عليه، وإنما لغرض تقويمه وتربيته على أحسنِ وجه.

وربما قد تعاقب الأسرة أطفالها من دون أدنى سبب، وإنما تمارس عليهم عنفًا جسديًّا بسبب وجود بعض الاضطرابات في كيان الأسرة، والتي تؤدي إلى اختلال وظائفها وتصرفها بهذه الصورة، فينال جسد الطفل هنا نصيبه من العنف الذي قد يؤذي جسده، وربما يؤدي به إلى الإصابة بعاهات أو أمراض.

وقد لا يقتصر الأمر فقط على الطفل، فقد يتعرض الفرد بشكلٍ عام لعنفٍ جسدي يُمارس عليه، سواء أكان لسوءٍ قد عمله أم ظلمه بذلك العقاب. وهناك





بعض المؤسسات التربوية التي قد تمارس ما يعنّف جسد الطفل، ويكون تبريرها هو رعاية التلميذ وحمايته من الانحراف، إلا أنها تمارس سلطة تنتهك جسد التلميذ وتؤذيه، ولا يشذ عن ممارسة العنف الجسدي ضد الإنسان كسلطة ما تتعرض له النساء بشكلٍ خاص إلى سلطةِ عنف جسدية كبيرة، إذ تشهد كثير من المجتمعات ارتفاع نسب النساء المضطهدات بالعنف الجسدي، والذي يكون ربما من الأسرة والمتمثل بالزوج أو الأهل، أو من قبل المجتمع وكيف ينظر إلى المرأة. وتلحق تلك الممارسات الجسدية العنيفة بالغ الأثر ربما بجسد المرأة، والتي قد تُعيقها عن أداء أعمالها، فضلاً عن ما قد تشعر به نتيجة ذلك.

وقد اختلفت الشعوب في طرقها في إلحاق الأذى بجسد الإنسان لأسباب معينة أو لا يوجد سبب، وتعددت طرق إيذاء الجسد، حتى إن القوانين المعمول بها للقصاص من المجرمين والشذوذ والمنحرفين، تنوعت في طريقة تعاملها مع الإنسان، وذلك بحسب ما تنص عليه تلك القوانين وما اتفق عليه وما يتناسب في الكثير من المجتمعات.

فقد يتعرض المجرم إلى عدة عقوبات منها الحبس أو السجن لفترات تتراوح بين القصيرة والمتوسطة والطويلة، والتي يكون الهدف منها سلب حرية ذلك الشخص الجانح عقوبة لما فعله، من خلال حبس جسده من دون أن يخرج ويتحرك بحريةٍ كما كان. وقد تتخلل تلك العقوبات التي تحبس الجسد أعمالاً جسدية تنهك الجسد وتتعبه عقوبة لما فعله، وهناك عقوبات جسدية أخرى تُمارس وتطبق ضد المجرمين تصل إلى حد عقوبة الإعدام، والتي بموجبها يتم القضاء على ذلك المجرم نهائيًا بإعدامه بطريقةٍ محددة وفق القوانين المتبعة، وبحسب الجريمة المرتكبة؛ فيتعرض المجرم إلى تصفيةٍ جسدية قانونية يخسر على أساسها روحه وحياته.

فهناك أجساد تُجلد حتى الإغماء، وتمارس عليها شتى أنواع العقوبات من خلال التعليق بالسلاسل والوضع داخل الأقفاص الحديدية، والتي غالبًا ما تكون أشبه بأقفاص الحيوانات، والتي تثير الفزع والاشمئزاز. هذا فضلاً عن ما سبق من شتى صنوف التعذيب وآلاته من الأسواط في العهود البربرية، على الرغم من ممارستها عند البعض اليوم[1].

---

(1) د. عبد الرحمن التليلي، مصدر سابق، ص 165.





وتختلف عقوبات الجسد من قانونٍ إلى آخر، وقد تبتعد العقوبات عن الأعراف الدولية؛ فتنتهج ممارسات خاطئة بحق المسجونين لا تصرح بها كل قوانين العقوبات، لذلك تحاول منظمات حقوق الإنسان أن تقف عند هذه النقطة وتحاول علاجها.

وفي كل هذه العقوبات لا يكون الجسد إلا الضحية الأولى لها، والتي على أساسها تنتهي حياة الإنسان وتتبعثر أدواره ومراكزه في الحياة وكإنسان، لذا فعقاب الإجرام والشذوذ لا يكون بممارسة سلطة على الروح، وإنما على الشيء المادي أو الكيان الذي يضم هذه الروح، والذي يُلمس وهو الجسد، والذي على أساس عقابه يتم عقاب روح الفرد وكيانه الخاص به، وتتأثر كل معنوياته وقيمه وتتغير أطر حياته نحو الأسوأ.

وقد تنوعت أيضًا عقوبات الجسد، والتي قد لا تتوقف عند هذه الصور فحسب، فقد يتعرض الإنسان لعدة مشاكل تطال جسده وتمثل سلطة قمعية عليه، إذ تقوم العصابات الإجرامية مثلاً، وكذلك كثير من الأجهزة القمعية في الأنظمة الاستبدادية، بترويض الجسد الإنساني وفق سلطات قمعية خفية أو ظاهرة. وأيضًا تقوم بقمع ذلك الجسد وتصفيته، وذلك من خلال ما تريده من هؤلاء الأفراد من تحقيق مقبولية تامة لإيديولوجيتها، فتهم بتعذيب أجساد الأفراد بشتى الوسائل والطرق المبتكرة، لمجرد أنها تملك سلطة التحكم بهذه الأجساد التي هي مملوكة من قبل البشر، وما يكون ذلك إلا انتهاكًا لحرمة الجسد، وتضييق الخناق عليه لتحقيق متطلبات عدة تبتغيها.

وقد شهد على ذلك كثير من الفترات الزمنية التي أظهرت عنف الدكتاتوريات على الآخرين، من خلال قمع أجسادهم لتحطيم أرواحهم وإزالتهم من الحياة. وقد استخدمت الكثير من هذه السلطات شتى أنواع القمع الجسدي على معارضيها أو المضطهدين، وتجد في ذلك فرصًا للسطوة وتثبيتًا لحكمها وجبروتها في الحياة، الأمر الذي يغير جل حياة هؤلاء المظلومين، ويجعلهم يعانون من عقدٍ نفسية يكون لها أثر سيئ على بقية حياتهم، إن بقوا من التعذيب والقمع الجسدي على قيد الحياة.





وحقيقة يوضع جسد الإنسان في عدة مواقف حرجة في الحياة قد يتمنى فيها أن لا يملك ذلك الجسد، وإنما مجرد الروح؛ للنفاذ من كثير من المشكلات، إذ إن الجسد محدد ماديًّا ومعروفة تحركاته، وممكن السيطرة عليه بسهولة من قبل الآخرين، فإذا تعرض لمشكلة ما تتطلب منه إخفاء جسده، يحتاج منه الأمر جهدًا لذلك. وقد يتمنى الفرد القيام بعدة أمور لكن جسده ربما يمنعه ويقوضه، وبحسب طبيعة ذلك الجسد وما فرضه المجتمع عليه من سلطات.

## سلطة الفرد على جسده

وقد لا يقتصر الأمر على ممارسة السلطة أو السلطات على أجساد الآخرين، فالفرد ذاته يمارس كثيرًا من السلطات على جسدهِ، فالجسد خاضع ومنصاع لأوامر الفرد، إذ إن الجسد يتحرك بإرادة الفرد وعقله وتفكيره ورغباته، فالفرد هو من يُظهر جسده بمظهرٍ لائق، إذ يفرض على جسده التنظيم والتأنق، وهو أيضًا من يفرض على جسده التصرف بحركات وإيماءات ملائمة لما يريده في الوسط الاجتماعي، وغيرها من الأمور الأخرى.

كما إن الفرد هو نفسه من يعاقب جسده، فالمختل عقليًّا أو الذي لديه دوافع انحرافية والذي لا يعير أهمية لجسده، يعرضه لشتى أنواع الصدمات التي قد تكون مؤذية دون أن يعير لها أهمية.

ولما كان الجسد هو ملك الشخص ذاته، فله الحرية في التصرف بذلك الجسد وفق ما يريد. ومن المؤكد أن الإنسان على الأغلب يحاول قدر الإمكان الحفاظ على جسده وبنائه وإظهاره بأبهى صورة، ومن ذلك تطورت الحياة واختلفت المظاهر التي يظهر بها الجسد، وعلى أساس الجسد تفرعت أطر حياتية جديدة قام بها الإنسان إرضاءً لجسدهِ، لذلك فرغم ما يواجهه الجسد من صورٍ حياتية متنوعة، وأشبعت بالمؤثرات الاجتماعية المختلفة، والتي عن طريقها يتأثر الجسد بكل هذه الأشياء ويكره ويحمل أكثر من طاقاته، إلا أن الإنسان من خلال ما يملكه من سلطة على جسدهِ يحاول أن يكيّف ذلك الجسد لمتطلبات وضعه الاجتماعي، وما يتلاءم مع أعرافه وعاداته وتقاليده، فنحن لنا السلطة في جعل الجسد مطواعًا لما يريده المجتمع،





فلا يمكن أن نجعل منه ندًّا لما يحيط بنا من بيئة اجتماعية، وأيضًا تبرز سلطتنا على أجسادنا في إرغام الجسد على قبول كل ما يدور في دواخلنا، وجعله الوسط الذي يترجم هذه الأفكار إلى واقع نتصرف به.

إن الشخص يبقى طول حياته ساعيًا للمحافظة على جسده من كل ما يصيبه أو يؤثر عليه، وتأتي قضية المحافظة هذه من خلال ما نعوّد الجسد عليه من أوضاع وسلوكيات ومواقف تطور منه ولا تلحق الضرر به، لذلك فالإنسان أبعد من أن يعرّض جسده للأضرار، وما يتعرض له يأتي رغمًا عنه ولا رغبة له في ذلك، على غرار ما يتعرض له جسد الإنسان من حوادث تؤثر بشكلٍ كبير عليه، وتضر بأعضاء ربما متعددة في الجسد.

ولعل الشخص يمارس سلطاته على جسدهِ من باب أنه مالك لهذا الجسد، لذلك نراه يسبغ عليه عدة أوامر تُترجم بأفعال ومظاهر يمكن أن يظهر عليها الجسد، فالشخص هو من يُسير الجسد وينتقل به من مكانٍ لآخر، وهو من يشبع جوعه وعطشه وغرائزه أو يمتنع عن ذلك، كذلك هو من يحميه من المخاطر ويحافظ عليه من الأمراض، وهو ربما من يدفع به إلى المهالك ومن لا يقيه شر الأمراض. كما إنه مسؤول عن اكتسابه بعض المهارات والتقنيات التي ربما تنفعه، وأيضًا كفيل بتقمصهِ لعدة سلوكيات قد تكون خارجة عن أصول الحياة والقانون.

إن الرياضي الذي يحاول أن يتمتع بمهارات رياضية معينة، يخضع جسده لعدة سلطات يصبح على أساسها متقبلاً لما يريد تحقيقه من أهداف، والجسد في هذه الحالة لا يستطيع أن يبدي أي ممانعة أو رفض؛ لأنه كيان خاضع للفرد ذاته، وله الحق في تسييره وفق ما يريد.

وباتت العناية بالجسد تكتسب محورًا مهمًّا في الحياة الخاصة أو الحميمية التي تطبع حياتنا الراهنة، فنحن نبحث عن لذة الاستحمام والإشباع النرجسي الذي نحصل عليه من خلال العناية بالنظافة، وكذلك تأمل أنفسنا في المرآة[1].

لذلك فنحن نتزين ونتجمل لإظهار أجسادنا أيضًا بأجمل الصور؛ مواكبة وملاءمة لما يدور في الجو الاجتماعي من أعرافٍ متعارف عليها. إننا من خلال

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 63.





سلطاتنا الواسعة هذه التي نمارسها على أجسادنا ليس بالضرورة أن تؤدي هذه السلطات إلى قهر الجسد وإنهاكه وتحميله ما لا يُطاق، وإنما قد تكون على الغالب أساسات في بناء ذلك الجسد، وجعله يأخذ الفضاء الخاص به من ناحية الوجود والتصرف، وفي ضوء هذا الخضوع من قبل الجسد للفرد قد يُستخدم الجسد بصورٍ إكراهية تؤذي الجسد وتحطم ما يتمتع به من فضاءٍ خاص به، إذ يقحم الفرد في كثير من الحالات جسده في مواقف وسلوكيات يتأثر بها ذلك الجسد، ويظهر ذلك واضحًا على الصورة الشكلية له، فقد يتعرض الجسد لحالاتٍ من العنف التي يدخل الفرد نفسه بها، أو يظهر ذلك الجسد بصورٍ لا تتلاءم مع العرف وأوضاع المجتمع، أي إنه يعمل ما يخالف أوضاع الظهور الجسدي في المجتمع.

لقد شكلت بدايات القرن العشرين بروز موجات جديدة ظهرت فيها المجلات النسائية، التي تروج للعناية بالمظهر الجسدي بالرياضة اليومية وتناول الوجبات الخفيفة، والتخلص من الدهون الزائدة للحصول على الجسد الممشوق[1]، والذي يواكب كل تطورات وموضات العصر. من ذلك بدأ الكثير ممن تعنيهم هذه المسائل بفرض سلطات فردية واضحة على أجسادهم، وقولبتها بالشكل الذي يتماشى مع أسس الحياة المعاصرة دون الخروج عنها، والذي يمثل الابتعاد عن روح العصر والتطورات التي تتوالى على كافة أنحاء العالم.

وتاريخيًّا كل الناس في الكثير من الثقافات الشرقية وغير الشرقية يستخدمون الدهون والملابس التجميلية وقصات الشعر المناسبة، وهي تمثل أفكارًا دقيقة لوصف الجمال في هذه الثقافات[2]، حيث لكل ثقافة مستوياتها الخاصة في النظر لجمال الجسد، وكيف يبدو عند تزيينه بهذه المستحضرات وتغيير صورته بالقصات والملابس، وكل ذلك يمثل مدى تخصيص الإنسان لفضاءٍ واسع لجسده والعناية به ليظهر بمظاهر لائقة أمام الآخرين.

---

(1) المصدر نفسه، ص 57-58.

(2) Victoria Pitts - Taylor, cultural Encyclopedia Of The Body, Green wood Press, Volume 1& 2, U.S.A. p.129.





ومن باب امتلاك الجسد قد يتصرف كثيرون بوحشية مع الجسد، فيقدمون على تعريضه لشتى أنواع المصاعب والأشياء غير المسموحة ربما، مثل ما يقوم به كثيرون من عمليات وشم للجسد، والتي تتمثل في وضع رسومات متعددة على الجسد، تشير إلى ما يدور في دواخلهم، فيقومون بمحاولة ترجمته على أجسادهم بطريقةٍ رمزية، وقد يلقى هذا التصرف استحسان البيئة التي تحيط بهؤلاء الأفراد الذين هم من نفس الصنف، وقد تلاقي استهجان كثيرين من الذين لا يريدون للجسد أن يشوه بهكذا طريقة.

وحقيقة الأمر أن المجتمعات المتعددة بثقافاتها قد استخدمت طريقة الوشم على الجسد لأغراضٍ كثيرة، منها ما يتعلق بالإشارة إلى القوة والتفاخر، ومنها ما يدل على صورة رمزية لأشياءٍ عدة تتراكم في ذهنياتهم، فيصوروها على أجسادهم. واستُخدم أيضًا بطرقٍ كثيرة للزينةِ والجمال، حيث استخدمته المرأة للدلالة على ما تتمتع به من أنوثة وزينة في المجتمعات القديمة وإلى مجتمعاتنا اليوم، إذ ما تزال هذه الظاهرة موجودة. وقد استحدثت طرق متنوعة فيها، إذ كانت المرأة توشم جسدها بصورٍ وزخارف في عدة مناطق منه لتعبر بذلك عما يدور في خاطرها وخاطر المجتمع.

وعلى العكس من ذلك، هناك من المجتمعات التي وضعت حدودًا للتصرف بالجسد، وقد عرَّفت هذه الحدود بكونها شرعية لا تبيح التعرض للجسد بمثل هكذا ممارسات لأسبابٍ فقهية متعددة، إلا أن شعوبًا أخرى عدَّت ذلك مباحًا وللفرد الحرية في التصرف بجسدهِ كيفما يشاء.

ويمكن القول إن الوشم كان ممارسة قديمة، إذ رجع تأريخها إلى ما قبل الإسلام، حيث وجدت عند القدماء من العرب، إذ نقشوا أجسادهم بأنواعٍ من النقوش التي تشير إلى صور الحيوانات وغيرها من الأشياء[1].

وقد كانت لهذه الصور التي يضعها إنسان ذلك الزمان مدلولات ثقافية معينة، يستهدفون من خلالها التعبير عن كثير من القضايا التي تخص حياتهم، وكذلك

(1) هيلين توماس وجميلة أحمد، مصدر سابق، ص 224.





استخدامها للزينة والظهور بمظهرٍ غريب أمام الآخرين. ويختلف الوشم في ثقافةٍ عن أخرى من الثقافات القديمة، وكذا الحال تختلف عند الرجال والنساء؛ فالرجال يوشمون ما يناسب رجولتهم والأشياء التي يريدون عرضها في حياتهم، وكذا النساء توشم ما تريده من زينة، ولدفع العين والشعوذات وما إلى ذلك، أيضًا للأطفال وشوم خاصة بهم يضعها أهلهم على أجسادهم لغايات تتناسب وثقافة المجتمع الذي يعيشون فيه.

ولقد جيء بممارسة الوشم إلى أوروبا في القرن الثامن عشر، حيث التقى المستكشفون الأوروبيون بالثقافات الواشمة في جنوب الباسيفيك وبولينيزيا، ووفق رحلات القبطان "جيمس كوك" أعطت اللغة الإنجليزية كلمة (Tattoo) الوشم، حيث إن اللفظ منحوت من الكلمة البولينيزية (Tatu) أو (Tatau)، التي تعني علَّم أو ضرب[1].

فالوشم ليس ممارسة حديثة جاءت مع تطور الحياة، وانبثقت من عصر التعقيد في الحياة وازدياد سرعتها، وإنما جاءت بصورٍ مختلفة منذ القديم وتعددت فنونها، وهي اليوم تعود بصورتها الأولى والمسماة بـ "التاتو" وفق الأطر الحديثة والمعاصرة.

كما إنه يمكن القول إن الغايات من الوشم اختلفت في زمانها ومكانها وبحسب ما يبتغيه الإنسان آنذاك، ووفق ما اتُبع وتم السير عليه في الثقافة المجتمعية، حيث لا تتشابه الغاية والمقصد من الوشم في الفترات الزمنية، إذ تختلف من طورٍ إلى آخر وبحسب رغبة ومعتقد وإيمان ذلك الإنسان.

فالمسيحيون الأوائل في الأقاليم الرومانية كانوا ينقشون على أجسادهم تعبيرًا عن عبودية المخلصين للمسيح، كما إنه هناك صلة بين الحج والوشم، حيث إن أوائل الحجاج إلى فلسطين كانوا يوشمون أجسادهم برموز مسيحية متاحة في أورشليم، كدليل لأسفارهم المقدسة وزيارتهم هذه المناطق عند عودتهم لأوطانهم[2].

وفي ذلك إشارة إلى العلاقة الوطيدة والمباشرة بين الأسفار والوشم الذي قد يكتسب من ثقافة البلد المُسافر إليه، وكتعبير أو دليل على زيارة ذلك البلد هو الوشم بعدة أشكال والتي يكون متعارفًا عليها فيه.

---

(1) المصدر نفسه، ص 58.

(2) المصدر نفسه، ص 58-59.





لقد أظهر الوشم على السطح التضاريسي للجسد صورًا وأشكالاً هندسية معينة ومختلفة، ورموزًا كتابية متنوعة ذات معنى وعدة دلالات، فهناك من الثقافات التي عدَّت الوشم كتعويذة سحرية، وأخرى عدَّتها تعبيرات ودلالات روحية ونفسية ودينية، وشعوب غيرها تعد الوشم عند الرجال زيادة لقوتهِ، وعند المرأة طردًا للسحر والشعوذة والأرواح الشريرة وخصوصًا عند الحمل والولادة. وهناك اعتقادات عند شعوب أخرى بأن للوشم علاقة برضا الآلهة وغضبها، وأن من لا يوشم يذهب إلى الجحيم ويتقرب للآلهة كل من يوشم. وأثر الوشم أيضًا في بلوغ الفتيان سن الرشد والنضوج الجنسي. كذلك له أهميته في إظهار مفاتن المرأة بصورة أجمل وزيادة الشهوة الجنسية عند رؤية الوشم عليها[1].

وقد لا تقتصر مدلولات الوشم وضرورة أهميته عند هذه الصور، فقد يستخدم بسبب الظروف العصيبة التي يمر بها الأفراد؛ فيستغلون أجسادهم للتفريغ بالوشم عليها والتنفيس عن مكنونات كانت تأخذ مكانًا واسعًا في دواخلهم. ولعل المبتغيات تختلف من ثقافةٍ لأخرى، فمن يعد الوشم ربما للزينة قد يعدّه آخر للقوة، ومن يعدّه لدفع المرض فهناك آخر قد يعدّه مجلبة لرضا الآخر من الناس. وهذا الاختلاف يأتي بحسب الموضوع الذي يريد أن يعبر عنه الإنسان بالوشم، وباختلاف بيئة ذلك الإنسان، والفترة الزمنية التي يعيش فيها وما يطغى عليها آنذاك.

إن الوشم ربما يحول الجسد إلى نص ويجعل منه جسدًا مُعبّرًا، جسد ذاكرة وهوية تقرأ عليه كافة العادات والتقاليد، حيث أشارت الوشوم إلى انتماءات جغرافية واجتماعية متعددة، وعرفت شعوب وقبائل من خلال وشومها الخاصة بها[2].

ولما كان الوشم هو سلطة فردية يمارسها الفرد على جسده، إلا أنها في كثير من الثقافات تشير إلى امتدادات عرفية وعقائدية وغيبية ومجتمعية متفق عليها، فالفرد قد يوشم آنذاك لا لرغبة منه فقط دون الآخرين، وإنما بسبب ما يحيط به من ثقافة تفرض عليه وجوب الوشم، إما للتقرب أو التزين لملاءمة ما يناسب المجتمع، أو

---

(1) منير الحافظ، مصدر سابق، 141.

(2) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 227.





الظهور بمظاهر تشير إلى القوة والرجولة وغيرها؛ فالسلطة في الوشم قبل أن تكون فردية فهي تأتي من سلطة المجتمع الأكبر في الفترات القديمة.

كما إن مسألة السحر وارتباطه بالوشم لا تتوقف فقط على الوشوم بحد ذاتها، وإنما في إسالة الدم، حيث عُد الدم منذ القدم حاملاً للقوى الغيبية، وعن طريق الوشم يمكن التخلص من هذه القوى والشعوذات[1].

وكثيرًا ما كان الإنسان يوشم للاعتقاد بأنه يحمل مسًّا من سحرٍ أو شعوذة، والاعتقاد بأن هذا الوشم من الممكن أن يزيل هذا السحر، بوضع رمز يطرد كل قوى غيبية ممكن أن تكون قد جعلت من جسد الإنسان مكانًا لها.

لذلك فالوشم سلطة يمارسها الفرد على جسده لأغراضٍ يبتغيها في حياته، إما للزينة أو التباهي أو للخوف من عين وحسد وأرواح خفية، أو جعله تميمة، أو للخلاص وفق الاعتقادات من أمراض معينة يستطيع الوشم أن يزيلها، أو للتقرب من غيبيات معينة وفق الثقافات التي يعيش فيها الإنسان، وصور الوشم التي تختلف عنده.

وللوشم عند المرأة مكانة وصور مختلفة في القديم عنه في الحديث، إذ كان الوشم يُنقش في السابق ليلائم جسد المرأة من باب الزينة، ولإظهار جمال مفاتنها عند الرقص والمناسبات، لأغراض التعرف على جمالها والزواج منها، وقد يستخدم في أوقات الحمل والولادة ومعالجة بعض الأمراض.

واليوم يظهر بصورهِ الجديدة والمتمثلة باسمهِ القديم والمعروف باسم الوشم أو التاتو، حيث يوشم كل جزء من جسد المرأة سواء في الوجه أو الصدر والبطن وكافة الأجزاء الأخرى، ملائمة على الأغلب موضات العصر والزينة التي تحيل مظهر المرأة إلى صورٍ أخرى تختلف عن السابق.

إن التاتو يمثل حفرًا على الجسد، وينظر له على أنه يقوم بنحت الجسد، ويتم هذا النحت وفق تصورات الأفراد وأفكارهم حول ما يريدون أن يوشموه على أجسادهم[2].

---

(1) المصدر نفسه، ص 226.

(2) Clinton R. Sanders with D. Angus Vail, Customizing The Body: the Art and Culture of Tattooing, temple University press, U.S.A, 2008, p. 2.





ويمكن القول إن سلطة المجتمع في نقش الوشوم قد تقلَّصت اليوم بشكلٍ كبير، فلم يعد المجتمع يفرض على الأفراد الوشم لغايات قد تتعلق بالتقرب من الإله، أو لدفع الضرر ولإظهار القوة والبأس أو الزينة، وإنما انحصرت السلطة اليوم بالسلطة الفردية التي يمارسها الشخص على جسدهِ دون تدخل من أحد.

إلا أن ذلك لا يعني أن قوانين المجتمع قد لا توجد لها وجهة نظر بالجسد الموشوم، ففي الاعراف الاجتماعية قد يرتبط الموشوم من الرجال اليوم بالانحراف اجتماعيًّا، أو التسيب ورفقة السوء في نظرها. والشرائع الدينية تنظر للوشم بأنه تغيير في صورة الجسد دون حاجة لذلك. أما القوانين الوضعية لا تضع على الأغلب ما يحد الوشم، لكنها لا تجيزه عندما يتعارض مع فقراتها. وعلى مستوى النساء فالمجتمع بأعرافه قد يعد وشمهن اليوم زينة، رغم التحفظات الكثيرة على طريقة الوشم وبأي المناطق، وما هي الرمزيات التي يحملها للمرأة التي توشم بأكثر من مكان، لذلك فهو سائد بطرقه الحديثة التي باتت تشكل صيحات ضرورية لعالم الجمال بالنسبة لكثير من النساء اليوم.

**شكل (6) يوضح ممارسات وشم الجسد**







## تزيين الجسد

وقد لا يقتصر الأمر على الوشم، فهناك أنواع لزينة الجسد الأخرى، إذ إن هناك من يقوم بوضع الحلي والأقراط في عدة مناطق من الجسد، منها ما يكون للزينة وذلك ما عُرفت به كثير من النساء، ومنها ما يكون مواكبة للموضة وللصيحات الجديدة المتنوعة. ولنا أن نرى أن كل ذلك ممكن أن يُجمّل ويُظهر الجسد بصورٍ مختلفة قد يرضى بها أصحابها والمجتمعات التي يعيشون بها، إلا أنها قد تشكل أنماطًا غريبة ومستهجنة عند ثقافات أخرى، ولا تتماشى مع موروثهم وما تعودوا عليه.

ولقد جاءت التحولات الحداثية المعاصرة وأدخلت صورًا جديدة فيما يتعلق بالعناية وتزيين الجسد، حيث سارت باتجاه التركيز على المظهر الخارجي، إذ أصبح هو المعطى الذي يتم التركيز عليه ويحمل في بواطنهِ الكثير من المعاني والدلالات[1].

وفي العقود الأخيرة الماضية، فإن الوجه اللامعبر قد حصل على إمكانية عالية في الوصول للغاية، بسبب أولاً أن الصورة النمطية الاجتماعية تتوسل لتصبح أصغر سنًّا (مع الجلد المشدود والشفتين والخدين الممتلئين، الخ)، وأيضًا بسبب التطورات الأخيرة في الحقل التكنولوجي والطبي (التي جلبت التدخل وتعديل أجسادنا والوصول للجميع)[2].

حيث أُعطي للمظهر أهمية خاصة تتمثل بالقابلية الكبيرة لدى الإنسان في محاولة تجميل مظهرهِ الخارجي، وإعطائهِ صورة المقبولية الواضحة، حتى يعكس بذلك انطباعًا وبناءً جيدًا عند الآخر، الذي يبني هو الآخر صورًا على وفق المظهر الخارجي للشخص الذي يراه ويتعامل معه في أطر الحياة المختلفة.

وتعد وسائل الزينة نوعًا من أنواع الاتصال المختلفة شديدة الارتباط بسياقٍ ثقافي واجتماعي، وهي تعبير يحمل في ذاته عدة معان يحاول الإنسان الإشارة لها من خلال ارتدائها[3].

---

(1) خلود السباعي، مصدر سابق، ص 46-47.

(2) **Alina Maria** Hrişcă, **op cit**.

(3) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 233.





فالحلي والأقراط والمصوغات التي تستخدم في أنحاء مختلفة من الجسد تحمل مدلولات رمزية، تشير إلى غاياتٍ معينة يريد من يرتديها إيصالها للآخر الذي يرى، فقد يعد لبس القلادة نوعًا من أنواع الزينة التي تضيف الجمال، واعتبارات أخرى ترى أنها قد تكون لحمل أدعية وتعويذات، والتباهي وإشعار الآخر بالقدرة على موازاة الموضة وغير ذلك. وكذا الحال عند ارتداء الأقراط التي قد تكون في الأذنين أو الأنف عند بعض الثقافات، فلبسهما يحمل إشارة معينة تتوافق ورمزيات الثقافة التي ينحدر منها الشخص الذي يرتديها. وهناك من يضع الحلق والأطواق في أماكن غريبة وغير متعارف ومتفق عليها، من قبيل مثلاً وضع الحلق في أصابع الأرجل، والأطواق في معاصم الرجال أو الأقراط في الأذن. وانجذابًا للموضات والعصرية في وسائل الزينة ابتكرت أشياء أخرى تحوّر من شكل الجسد، وتضيف له بعض البريق باعتقاد من يتعامل معها، من قبيل مثلاً ثقب أحد أطراف الأنف ووضع الحلق أو القرط فيه، حيث إن هذه الصورة كانت تعني أشياء أخرى عند السابقين، لكنها اليوم قد تعني العصرية واجترار الماضي بروحيةٍ وصورةٍ أخرى.

وكل هذه الزينة بتعدد وسائلها تتمحور حول سلطة واحدة هي سلطة الفرد على جسده، فهو القادر على تزيين جسده وإظهاره بصورٍ متعددة، والقادر أيضًا على عدم تزيينه نهائيًا والبقاء بشكل طبيعي دون تزيين، فالأمر بات خاضعًا لسلطة فردية، وإن كانت نابعة في بعض الأحيان من سلطة ثقافة مجتمع، من قبيل مثلاً ما يجب مراعاته في مجيء الموضات وآخر الصيحات.

## الانتحار والجسد

ومن ضمن الأشياء التي يُعرّض بها الإنسان جسده من خلال امتلاكه لذلك الجسد، وسلطته عليه في التصرف به وتسييره وإظهاره بالشكل الذي يريده، هو ما قد يستخدمه الإنسان من عنفٍ أشد تجاه جسده، وذلك عندما يقرر إنهاء حياته بمعاقبة جسده من خلال عمليات الانتحار التي قد يُقدم عليها، فالانتحار ظاهرة تفرَّعت وتنوعت أسبابها وتعددت صورها. ولا تقتصر على مجتمعٍ دون آخر إلا بالنسبة المتواجدة، فعندما يصل الإنسان إلى مرحلة القضاء على وجوده بإرادتهِ، لابد





عليه أن يبدأ بجسدهِ الذي يمثل الشيء المادي الملموس، فيعمد إلى تعريض ذلك الجسد إلى واحدة من صور الانتحار، التي تنتهي بتوقف عمل الجسد نهائيًّا كوسيط مهم للحياة، واندثار وجوده ككيان في المجتمع الذي ينتمي ويعيش فيه. ومن يقدم على الانتحار يكون قد استُنفدت أمامه خيارات الحياة كافة، فيصبح وضعه ميؤوسًا منه، وتتمالكه الرغبة الشديدة في مفارقة الحياة، والابتعاد عن المؤثر الذي دفعه على الانتحار، فالأمراض الاجتماعية والمؤثرات الأخرى، والضغوطات والإصابة بالكآبة والحالات النفسية، جميعها أشياء خطرة قد تدفع بكثيرين على السير في محاولة القضاء على الروح بمعاقبة الجسد، وإنهاء وجوده المادي.

وعندما يتعرض فرد ما لجسد فرد آخر، فذلك يُعد من التجاوزات المتمثلة بانتهاك حرمة وحرية ذلك الفرد، والتعرض له بالضرر الجسدي، لذلك شُرعت قوانين لمنع الإضرار بالآخرين جسديًّا، وحددت عقوبات لذلك، لكن الإنسان مادام يملك جسده فمن المفروض أن يكون هو الحارس الأمين عليه، وأن لا يعرضه لما يؤدي به إلى التهلكة، فبعض الناس من باب حريتهم في التصرف بأجسادهم، والتي هي في الحقيقة ليست مملوكة لنا وإنما مملوكة "لله" عز وجل، ونحن موظفون في استخدامها، يقبلون على التعدّي عليها وسلبها كيانها الخاص بها، والتعامل مع الجسد وكأنه شيء نريده أم لا، وله أن يستقبل أوامرنا فقط، لذلك الذين يقدمون على الانتحار لا يفكرون بأن أجسادهم هي ليست ملكهم، وإنما يعدّونها من ممتلكاتهم الخاصة التي لا يجوز التعدي عليها من أي شخص كان إلا من مالكها، إن أراد ذلك فله الحق، فيقررون التخلي عن الحياة ومعاقبة الجسد والقضاء عليه في حالات الانتحار.

إن ما يمكن تسميته بالانتحار هو كل حالة الموت الناجمة بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة عن فعل إيجابي أو سلبي تنفذه الضحية ذاتها، حيث إن الانتحار هو الفعل المحدد على هذا النحو، ولكنه المقرر قبل أن يصبح الموت عاقبة له(1).

ولا تتوقف ظاهرة قمع الجسد هذه المتمثلة بالانتحار على فئة دون أخرى، إذ قد يشترك بها الذكور والإناث الكبار والصغار بحسب قابليتهم واستعدادهم للتعامل

---

(1) إميل دوركايم، **الانتحار**، ترجمة: حسن عودة، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2011، ص 10.





مع الحياة والظروف المحيطة بهم، وسلوكياتهم وكيفية نظرتهم للحياة، وما موقفهم من ذواتهم وأجسادهم، وماذا تشكل بالنسبة لهم. وقد نجد هناك أشخاصًا يُدخلون أجسادهم في مراحلٍ متعددة من العذاب الجسدي؛ رغبة منهم في الانتحار والتخلص من الحياة. مثلاً يحرقون أجسادهم' وقد يبقون في حالة من الألم المتواصل إلى عدة أيام، وقد ينجون أو تنتهي القضية بالقضاء على الحياة وإنهاء الجسد، وربما ينتحر الشخص مباشرة دون تعدد المراحل، وغيرها من الأمور الأخرى.


**شكل (7) يوضح حالة من حالات الانتحار**



وكل هذه الحيثيات المتعلقة بالانتحار تجعل من الجسد في مخيلة ذلك المقدِم على الانتحار شيئًا لا قيمة له، وإلا لما أقدم على إفنائهِ، فنحن نعرف أن الحياة من الأشياء الثمينة في الوجود، وكل إنسان يحافظ قدر الإمكان على حياته، وعند هذه الحالة يحتفظ ذلك الإنسان بصورةٍ جميلة لحياته وجسده الذي يستمر في بنائه وتطويره وحمايته من كل مؤثر، لكن كيف يتحول إلى إنسان ينظر لذلك الكيان العزيز بنوع من عدم الاهتمام واللامبالية؟ ذلك بسبب ما يحيط بذلك الإنسان من مسببات قد





تدفعه لإزهاق روحه بتصفية الجسد، وكأنما يعد ذلك تمردًا على قوانين الحياة بالتجاوز عليها، والقيام بالانتحار وفق ما لحق به من جرائها.

لذا فبعد وصول الفرد إلى مراحلٍ متقدمة من النضج والوعي بكيانه وحياته، وقدرته على الاعتماد على نفسه بعد أن كان معتمدًا على أسرتهِ في كل شيء يخصه ويخص العناية بجسدهِ، لذلك يصبح الجسد مسؤولاً منه، وهو صاحب القرار في توجيه ذلك الجسد وفق أو عكس ما يريده المجتمع، إذ يستخدم سلطاته الفردية تجاهه نحو ما يحافظ على ديمومته، أو ما يؤدي إلى تقويضه أو إنهائه في الحياة.

كما إنه ينبغي التمييز بين الانتحار والاستشهاد، ففي الانتحار يلغي الإنسان ذاته، وكأنها لم تكن موجودة على الإطلاق. أما في الاستشهاد يبذل الإنسان حياته، وبهذا البذل يقدم الشهادة على وجوده[1].

ويتمثل الاستشهاد حالة من نذر الروح في سبيل الأرض أو الوطن أو المقدسات التي يدافع عنها الإنسان، أو أي معتقد يُتفق على أنه مقدَّس ويبتغى الدفاع عنه بالروح والجسد. وعلى أساس ذلك يقدّم الإنسان جسده لغاية الوصول للشهادة والدفاع عن مقدساتهِ، على عكس الانتحار الذي يمثل رغبة في داخل الفرد لإنهاء حياته، ليس للدفاع عن مقدس أو وطن أو معتقد، وإنما للهروب من ضغوط معينة تنتاب ذلك الفرد، وتجعله بدافع من استرخاص النفس إلى الإقدام على عدم تقدير قيمتها، واللجوء إلى محاولة إنهاء الوجود الجسدي بالتصرف تجاهها بعمل يؤدي إلى تصفية ذلك الجسد، وإنهاء الوجود في الحياة.

واختلفت حالات الانتحار بين مجتمعٍ وآخر بحسب طبيعة ما يتعرض له الفرد في تلك المجتمعات، ويعتقد الفرد أنه بانتحاره أن له السلطة على جسده في التصرف به كيفما يشاء، على اعتبار أنه من يتصرف، وله كيان ذلك الجسد والأقرب له، لذلك عندما يتعمد إنهاء حياته بأذى جسده يفعل ذلك، لكن ليس كل حالات الانتحار انتهت بموت المُقدم على الانتحار، حيث إن الروح تموت بأمر خالقها، وإن ظن المنتحر أن له القدرة والسلطة على جسده.

---

(1) د. حبيب الشاروني، مصدر سابق، ص 183.





ولنا في ثقافات المجتمعات أمثلة كثيرة على حالات انتحار ساهمت في القضاء على الجسد بسلطة الفرد ذاته، أي بإقدامه هو على تصفية الجسد وإنهاء الوجود في الحياة.

## سلطة المرض

كذلك يخضع الجسد إلى سلطةٍ أخرى ألا وهي سلطة المرض، فهو الذي عندما يصيد جسد الإنسان يحط من قوى ذلك الإنسان ولربما ينهيه، ويصبح الجسد يتصارع مع سلطة قد تكون أقوى منه، إلا أن يتغلب عليها بسلطةٍ أخرى ألا وهي سلطة الدواء، أو ما يطبب جسده به، وقد يتماثل للشفاء أو يقع صريعًا لسلطة المرض.

لقد شكل المرض هاجسًا مخيفًا للفرد، وخاصة في مراحل متأخرة من الحياة، عندما كانت هناك أمراض كثيرة وخطرة جدًّا تصيب الإنسان وتفتك به، ولم توجد عناية طبية وصحية متطورة ومتقدمة تستطيع أن تضع حدًّا للسلطة الجامحة هذه التي تحارب الجسد الإنساني وقد تقضي عليه نهائيًّا.

وقد تنامت الحياة واتسعت أفق التعاملات الطبية والعلاجية، إلا أن المرض بقي يشكل الحدث الأخطر في الحياة، والذي يتطلب إيجاد الحلول السريعة له.

وعلى الرغم من أن وقاية الإنسان لنفسهِ وجسدهِ من كثير من مسببات الأمراض قد تمنع إصابته بالمرض، إلا أنه عندما يصيب الفرد لا ينتظر منه أن يسمح له بانتهاك جسده أم لا، وإنما يمارس المرض سلطته الخاصة به والمتمثلة بتحطيم دفاعات الإنسان الجسدية والقضاء عليها. وقد يقع الجسد الإنساني فريسة سهلة لسلطة المرض التي تنهكه، وتصل به إلى مرحلة الاستسلام، إلا بتدخل سلطة أخرى متمثلة بسلطة التطبيب والعلاج الطبي والصحي.

ولعل ما ينتشر من فيروسات الأمراض هي الكفيلة بشكلٍ كبير في فرض سلطتها التي تمارسها في الانقضاض على دفاعات الجسد، ومحاولة القضاء عليها. وقد تنجح مثل هذه الهجمات أو تُصد عند التدخل العلاجي، ومدى مقاومة الجسد الإنساني لهذه الأمراض وبحسب نوعيتها.





وعلى الرغم من أن سلطة المرض لا تظهر للعيان، وإنما تكون خافية في جسد المريض، إلا أنها تفعل فعلها بشكلٍ نوعي، وقد يتمنى الإنسان لو كانت لديه القدرة للدفاع بيديه وبشكلٍ ملموس عن جسده ضد هذه الأمراض، التي تأتي للإنسان من حيث لا يشعر في أغلب الأحيان، وتنقض مباشرة على مناطق أساسية في الجسد، وتبدأ من هناك ممارسة سلطتها المتمثلة بمحاولات تحطيم ذلك الجسد، وجعله معلولاً، ومن ثم القضاء عليه.

## سلطة الدواء أو العلاج

وعندما تسيطر على الجسد الإنساني سلطة المرض، لابد من إيجاد حلول أو تدخّل سلطات أخرى تواجه سلطة المرض، وحقيقة قد دأبت المجتمعات وبشكلٍ جاد وكبير على تنمية التقدم في هذا المجال، أي كيفية مكافحة والقضاء على سلطة المرض، إذ أصبحت هناك مجالات خاصة ترعى أمور المرض وكيفية التصرف معه. وتتنوع السلطات العلاجية فلا تقتصر على سلطة واحدة في الاستخدام، وإنما هناك أنواع متعددة في العلاجات كل بحسب نوعية سلطة المرض التي تصيب الجسد. وقد نجحت كثير من هذه الدفاعات في صد هجومات المرض بأنواعهِ المختلفة، إلا أن ذلك لا يعني أن سلطة الدواء أو العلاج قد نجحت نهائيًا في القضاء على المرض، الأمر الذي يضع حياة الإنسان بجسدهِ في مأمن، وإنما قد سيطرت سيطرة كبيرة على الكثير من الأمراض، وأيضًا قد تضررت كثير من أجساد البشر بذلك، وهلكت كوجود وكيان في الحياة.

وقد تنوعت المجتمعات على اختلاف ثقافاتها في التعامل مع المرض وكيفية القضاء عليه، أو الحد من خطورته، أو اليأس من ذلك بحيث لا تنفع كل الطرق ويترك الأمر له لينهك الجسد ويقضي عليه، فما كان يصيب الأجساد في فترات تاريخية سابقة من أمراض، ربما قد لا تتواجد له وصفات علاجية وأمصال وأدوية آنذاك، إلا أن اليوم ربما نفس الأمراض قد طور العقل البشري لها العديد من وسائل المكافحة بالأدوية والطرق العلاجية المتنوعة، وذلك يتأتى من الحيز الواسع الذي شغله المرض، حيث عُدَّ كلازمة مع الحياة، الأمر الذي تطلب إيجاد لازمة أخرى للحياة تحارب اللازمة الأولى، ألا وهي السلطة العلاجية.





ولعل الاهتمام بالجسد يهدف إلى حمايته من كل أنواع الأمراض والآلام التي تلحق به، حيث تحاول كل الشعوب أن تُبدع بالتصدي للأمراض والآلام الإنسانية وفق إمكانياتها الفكرية اللازمة لذلك[1].

وليس بالغريب إن وجدنا أمراضًا تستفحل عند شعوب، وتخف وطأتها عند أخرى، فالأمر يتعلق بمقدرة من تخف عنده في التصدي لها، وإيجاد سلطات علاجية تُحجّم وتقضي على هذه الأمراض نهائيًا، وتحديد سبل الوقاية منها قدر الإمكان، في حين أن الشعوب الأخرى التي تفتك بها هذه الأمراض تكون سلطاتها العلاجية والدوائية ضعيفة أو مُعطَّلة، والمتأتية من عدم الإبداع الفكري في كيفية تطويق المرض وعلاجه، وكذلك السبل الاقتصادية والتمويلية اللازمة لمعالجتها.

وربما كثير من الأمراض التي تُعد بسيطة في ضررها قد أهلكت الكثير من الأجساد البشرية؛ بسبب ضعف السلطات العلاجية على بساطتها أو التهاون بها أو حتى انتفاء وجودها، في حين قد توجد الكثير من الأمراض الفتاكة قد تمت السيطرة عليها بسلطات طبية وعلاجية هائلة، تمكنت من تطويقها وامتصاص أخطارها.

ويصبح الجسد هنا تحت رحمة السلطة العلاجية في مواجهة سلطة الأمراض التي قد تتفوق على السلطة العلاجية، وتفتك بذلك الجسد أو تحقق العلاجات ما هو متوقع منها وفق ما خطط لها، وصممت بصورة تقضي على المرض وتقتلعه من جذوره، ويتعرض الإنسان في فترةٍ حياته لعدة أمراض وليس مرضًا واحدًا، منها ما يكون متعارفًا عليه وبسيطًا جدًّا وينتاب كل إنسان، وخصوصًا في حالات البرد الشديد أو الحرارة المرتفعة، لكن هنالك أفراد قد يتعرضون لأمراضٍ مزمنة وأخرى خطرة، قد يشفون منها ولكنها قد تعود مرة أخرى. وهناك آخرون قد انتهت حياتهم بسبب من هذه الأمراض الخطرة والمتنوعة، بسبب إما استفحال تلك الأمراض في جسد الإنسان بحيث تصبح سلطة العلاج غير نافعة، إما لأنها تأتي بوقتٍ متأخر يكون فيه المرض قد استفحل في الجسد، أو لأن العلاج غير فعال نهائيًّا لذلك لا ينفع مع حالة المريض هذه.

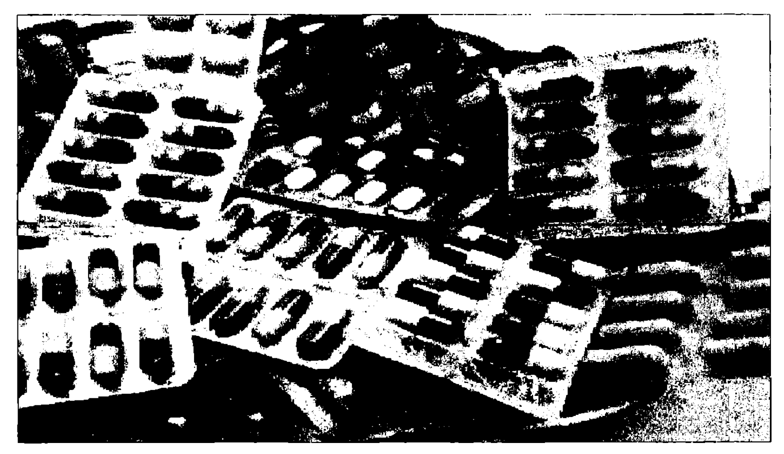
---

(1) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 237.





شكل (8) يوضح سلطة الدواء على الجسد



## سلطة ترويض الجسد

ولما كان الإنسان هو صاحب سلطة قوية في التصرف بجسدهِ، فذلك يؤدي به إلى محاولاتٍ لتطويع وترويض ذلك الجسد لما يريده ويبتغيه في الحياة، بحيث يُشكّل ذلك الجسد بعدة صور ملائمة لما خطط له ويراد تحقيقه.

إن الرياضي اليوم والمتخصص في رياضة ما لديه الرغبة في الشهرة وتعلم فنون الرياضة، لكن الأمر يتطلب جسدًا موهوبًا، لذلك يطلق سلطته بشكلٍ كبير على الجسد لتشرّب كل المواهب من خلال المران المستمر، وإدخال الجسد في أقسى الظروف التدريبية لغرض بناء ذلك الجسد بطريقةٍ تمكّنه من الوصول لغاياتهِ في تحقيق الشهرة الرياضية والانتفاع بها. ويختلف ترويض الجسد الرياضي وما يبتغيه الإنسان من صورة لجسدهِ بحسب طبيعة الرياضة التي يمارسها، وكيف يريد جسده أن يصبح وفقًا لها.

لقد أصبح الجسد مشروعًا في المجتمع المعاصر كما يقال في علم الاجتماع الحديث، من حيث الحمية والتدريب وأساليب الحياة، والجراحة التجميلية وغيرها[1].

---

(1) هيلين توماس وجميلة أحمد، مصدر سابق، ص 156.





ولعل عارضات الأزياء يخضعن أجسادهن لسلطةٍ وسيطرة كبيرتين جدًّا، فلا تسمى عارضة أزياء صاحبة الجسد الضخم والمترهل والوزن الزائد، لذلك يحاولن تخسيس ذلك الجسد وتدريبه وتعليمه حركات وإشارات تتلاءم مع مبتغاهن الذي يردنه، وبالتالي قد تتحقق عدة أغراض من ذلك، منها على سبيل المثال الترويج لبضاعة ما، وكذلك جني الأرباح وتحقيق الشهرة الإعلامية. ولم تتحقق هذه الغاية إلا عبر وسيلة واحدة فقط هي الجسد، الذي تم نحته من قبل الفرد ذاته. على أن هذه القدرة في ترويض الجسد ليس كل إنسان قادرًا على القيام بها، فمن يكون قادرًا على القيام ببعض السلطات قد لا يتمكن في بعضها، والعكس في ذلك.

وقد يروّض الإنسان جسده بطرقٍ أخرى، مثلاً إرغام الجسد وترويضه على ترك الانجرار وراء المعاصي، فقد يكون الشخص راغبًا للخوض في الفواحش، لكنه يحاول بجسدهِ ومن خلال تعليمه عدم الإتيان والدخول في ذلك الطريق مرة أخرى؛ فربما يشعر الشخص في داخله حيال شيء معين بكثير من الصور، إلا أنه يحاول أن يحيد بجسده وبصره وتصرفاته عن ذلك الشيء والاقتراب منه. أيضًا لا يقتصر الأمر على ذلك فقط، فنحن قد نروّض الجسد على التصرف بسلوكياتٍ معينة، أو نخضعه لبرنامجٍ خاص، وكل هذه الإرغامات تأتي من ناحية السيطرة على الجسد بترويضه وجعله أداة طيعة في يد الإنسان.

وليس في كل الأحوال يكون الإنسان قادرًا على ترويض الجسد وإخضاعه لما يريد، فمثلاً إصابة الجسد بالمرض، فالفرد قد لا يستطيع خلق قابلية عند الجسد لا تستقبل أو تصاب بالمرض، وقد لا يستطيع أيضًا من ترويضه في حالات معينة في تقبل العلاج أو التعاطي معه، فتلك الأمور قد تخرج في نصابها عن قابلية سلطة الإنسان في ترويض جسده، وقد يفشل أحيانًا في جعل الجسد يتلاءم مع ما يريد، مثلاً تخفيف الوزن، فليس كل من عمل برنامجًا لإزالة الدهون والشحوم من الجسد قد نجح في ذلك، فهو في مبتغاه يريد تحقيق ذلك، لكن الجسد ربما لا يتناغم ويتقبل ما يريده.

لقد عملت التكنولوجيا على تسهيل حياة الإنسان، وجعلت منه أسيرًا





لها تتدخل في الكثير من جوانب حياته، حيث إنه بفضل التقنية الطبية استطاع الإنسان من إجراء عدة تغييرات في جسده[1].

وفعلاً ساهمت التكنولوجيا بخلقِ صورٍ عديدة ممكن أن يظهر بها الجسد البشري، مرورًا بأبسط الاشياء وانتهاءً بالعمليات الجراحية والتجميلية التي غيَّرت بشكلٍ كبير جدًّا من أشكال الأجساد البشرية.

**شكل (9) يوضح أثر العمليات التجميلية في تغيير صورة الجسد**




فأي طموح جامح هذا الذي يدفع الكثير من علماء الهندسة الوراثية، ويجعلهم يتجرؤون بالتعامل مع الإنسان كما لو كان أداة، حيث إخضاع الجسد البشري للفحوصات المختبرية، والتي تعد تشييئًا وتنكّرًا لخصوصية الإنسان ذاته، وتحطيمًا لوحدة كيانه وفرادته وهويته وتميزه؟[2].

ولعل الإنسان بجسدهِ قد خضع للعديد من هذه السلطات المختبرية، التي تبغي ترويض ذلك الجسد وجعله يتلاءم وما تريد؛ فانبرت العمليات الجراحية التي ساهم الفكر الطبي والعلاجي فيها بشكلٍ كبير، فأصبحت هناك صور لأجساد أخرى تنعم

---

(1) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 33.

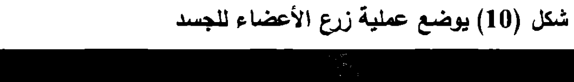
(2) د. عبد الرحمن التليلي، مصدر سابق، ص 158-159.





بزراعة أعضاء من أجساد لا تحتاجها لأجساد أكثر حاجة لها. وقد ذاع صيت هذه العمليات، وعملت على إحداث ثورة في عالم الطب والجراحة وعلاج الجسد البشري.

فلم تعد قضية حاجة الجسد المريض لبعض الأعضاء قضية صعبة، وإنما باتت من العمليات السهلة في الكثير من بلدان العالم، رغم كُلفها المادية الباهضة إلا أنها شكّلت تحولاً عميقًا في مسار الجسد الإنساني وحياة البشر بشكلٍ عام، وبذلك تم ترويض الجسد ليتقبل أعضاء أخرى، قد لا يتلاءم معها في بادئ الأمر، لكن بفضل التقنية العلمية والسلطة الطبية القوية والنوعية تم نجاح ذلك.



**شكل (10) يوضح عملية زرع الأعضاء للجسد**



هذا فضلاً عن كثير من الأمور المتعلقة بقضايا نقل الدم وزراعة الأنسجة والأسنان والعدسات وغير ذلك؛ مما خلق تحوّلاً في النظرة للصورة الجسدية القديمة ومقارنتها بالحديثة والعصرية.

ولا يمكن أن نغض النظر عن محاولات ترويض الجسد بتكثيف الدراسات للاستنساخ البشري، وهي محاولات وإن لم تصل إلى حدود الاستنساخ الذي يخلق نسخة بشرية، حيث تتدخل إرادة الخالق في ذلك، إلا أنها قد مُررت على الحيوانات وأظهرت نجاحات في بعض ذلك.





هذا فضلاً عن تقنيات أخرى كان الهدف منها الغور في بواطن تقنيات الجسد وتفكيكها، وقد نجحت في أغلبها حيث لا يمكن أن نغفل مسألة أطفال الأنابيب وما وصلت إليه من مراحل تطورية، قد روَّضت الجسد لتتحكم به وتجعله قادرًا على الإنجاب. كذلك مسألة استئجار الأرحام وكيفية النظر لها من زاوية تطورية، ساهمت في جعل الجسد فضلاً عن الأمور الأخرى وكأنه كتاب مفتوح مفهوم في أغلب صفحاته.

## السلطة الطبيعية

وليس دائمًا يملك الإنسان سلطة معينة على جسدهِ، أو حتى الآخرين ليسوا بالضرورة قادرين على أن يملكوا سلطة على أجساد غيرهم، فمن يولد قصيرًا أو طويلاً نحيفًا أو سمينًا، قد تفلح معه بعض السلطات في تغيير حجمه وطوله أو لا تنجح، وبالتالي يصبح الفرد غير قادر على الإتيان بسلطةٍ معينة تُخضع الجسد لسيطرتهِ، أو المحاولة في تقويمهِ وتشكيلهِ وفق ما يريد.

فنحن لا نتحكم بكثير من الأمور الجسدية، والتي لا تستوعب التغيير فيها، فلا نستطيع أن نجعل الإنسان إن كان قصيرًا مثلاً أن يتمتع بطولٍ فارهٍ، وإنما محاولات لزيادة طوله بالعلاجات والتمارين الرياضية الخاصة، وقد تنجح في إحراز بعض النتائج الإيجابية أو لا.

وفي الفترات الزمنية الماضية كانت هناك صور جسدية لا يستطيع معها الإنسان من التصرف في تغييرها، إلا أن تقدم الحياة ورغبة الإنسان في فرض سلطاته هو، قد استطاع من إحراز عدة نجاحات في تلك الصور، فلم تكن هناك على الأغلب مثلاً عمليات تجميل كالتي هي موجودة اليوم، وإعادة أو ترميم الصورة الجسدية من جديد، إلا أن الطب الحديث قد أوجدها. كما لم تكن هناك مثلاً زراعة بعض الأعضاء الجسدية المتضررة في الجسد، إلا أن اليوم يعج الميدان الطبي العلاجي بمثل هكذا صور، فما كان محسوبًا على أنه من الأشياء التي لا يمكن التلاعب بها بات في كثير من الحالات من الممكن الغور فيه، ومعرفة على ماذا يحوي، ووضع البدائل الممكنة له.





كما إن ذلك لا يعني أن الإنسان فرض سيطرته الواسعة في مجال كسر قانون السلطة الطبيعية، وقد استطاع من تغيير كل شيء وإيجاد البدائل في جسدِ الإنسان، فهناك أمور لم يستطع الإنسان إلى الآن إيجاد بدائل أو تحوير عليها. مثلاً أجريت محاولات كثيرة لزراعة القلب العضو الرئيس والمهم في جسد الإنسان، إلا أنها خطرة جدًّا ونادرة، ونادرة أيضًا في النجاح. كما لم تجر محاولات لزرع الرأس مثلاً، فلا أمل بالحياة بانقطاع أو تلف الرأس، وإنما محاولات طبية لتعويض أو علاج بعض أجزاء الرأس من قبيل علاج المخ والدماغ والأعصاب وغيرها. أيضًا لم يتوصل إلى طريقة يستطيع معها إعادة بناء العضو ذاتيًّا داخل الجسد الإنساني مثلاً، دون القيام بعمليات الزرع التي تأتي بأعضاء آخرين إلى الجسد المريض، إذ لم يتم التوصل إلى إيجاد حلول علاجية طبية لنمو الساق أو اليد المبتورة مثلاً، أو نمو الكلية أو الرئتين وغيرها، وعليه فلم تزل هناك الكثير من السلطات الطبيعية التي لا يمكن التدخل بها، أو اختراق منظوماتها والتحوير بها، رغم اختراق الطب الحديث لكثير من هذه السلطات ونجاحه في عمليات الزرع، والدخول في أعماق الأجساد البشرية، ونجاح ما لم يكن يتوقع أن ينجح في ترويض والسيطرة على الجسد.

لذا فالجسد محكوم بسلطاتِ صاحبه أو الفرد الذي يكون الجسد كيانه الخاص به، ويبقى الجسد تحت رحمة مالكه والعناية به، وإبعاده عن كل ما يضر به، أو تحطيمه وإذابته من الحياة.

لقد أصبح الجسد موضوعًا للسلطة تنقب فيه، وتعيد فتح مخابئه وتركيبه ومفاصله، أي إنها تقوم بما يسمى بـ "التشريح السياسي للجسد"، لغرض التوصل إلى ما تريد تحقيقه على الجسد وما هو مطلوب منه[1]. ولعل السلطات بأنواعها التي يخضع الجسد لها سواء أكانت لجانبه من ناحية تقويمه في الحياة، أو التي تضطهده وتقوض مساحته في الحياة، ومنها السلطة السياسية، هي أكثر التصاقًا بالجسد، وأكثر مشاهدة لما يمر على ذلك الجسد من خلال مؤثرات وطبيعة الحياة المختلفة، التي تمر عليه وتجعله خاضعًا ومُشكّلاً بالصور التي سُيّر لأجلها وأصبح مُنقادًا لها.

---

(1) ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة**، مصدر سابق، ص 159.





فالجسد بات لا يمكن الاعتراف به وبوجودهِ وبأهميتهِ وقيمتهِ إلا من خلال وجود سلطات تفرز ذلك الشيء وتؤيده وتمنحه شارات التواجد في الحياة(1)، فالذي يجعل الجسد مقبولاً لدى الأجساد الأخرى تقييمات السلطات التي خضع لها، والطريق الذي قد صاغوه من خلالها.

فالذات البشرية التي لا تخضع لسلطة التربية الصحية في الأسرة والمدرسة قد تشذ وتنحرف، وبالتالي ما هو موجود منها وملموس وهو الجسد لا يصبح مستساغًا ومقبولاً لدى الأوساط الاجتماعية والأعراف والقوانين؛ لأنه بات غير مُنظَّم ومهيأ كجسد خضع لسلطة التقويم والتعليم وإكساب المهارات والخبرات.

إذ إن ما أوصل الجسد إلى ما هو عليه من كونهِ كيانًا يخضع لعدة سلطات يفرضها الإنسان والمجتمع عليه، هو تنوع الحياة وأهدافها في العيش، ورغبة الإنسان ذاته ببلوغ التطور والتقدم، وتحصين الجسد وبنائه وتطويره إلى ما ينفع دون الإضرار على الأقل به، على أن لا ننسى تمظهرات المجتمع على ذلك الجسد، وما يريده منه للظهور به ملاءمة للعرف والعادات الاجتماعية، التي تُحتّم على الجسد أن يتصرف ويسير وفقًا لها ولمؤهلاتها وللبيئة التي وجدت فيها.

وكل ذلك من شأنه أن يُقولب الجسد ويهيئه بعدة أشكالٍ من ناحية التصرفات والحركات والدوافع والمظهر الذي يظهر به، فلا تتشابه الأجساد في كثير من دوافعها وتصرفاتها، وإنما تسير على ما وجدت ذاتها عليه، فلا تخرج عن أصول ومحيط مجتمعها الذي يعيش به مالك الجسد أو كيان الجسد وهو الفرد، وتظهر كل هذه الصور في سنوات عمر ذلك الجسد، وتتجسد في مخزونه الثقافي والفكري والعاطفي، وكيفية التناغم مع الحياة بهذه الشاكلة التي جعلت من جسده يتَّسق مع ما سنَّه المجتمع الذي يعيش ويحيا به.

ومع ذلك فالجسد الإنساني سواء حُكِم بسلطاتٍ مجتمعية معينة لصالحهِ أو لضررهِ، يبقى هو الكيان الـمُستقبِل فقط، والذي عليه أن يتشكَّل وفق هذه السلطات، أي بمعنى التمحور وفق سياسات السلطات التي يمنحها الإنسان على ذاته، وكذلك المجتمع الذي يُشكّل أجسادًا تابعة له من ناحية الإلمام بعادات وتقاليد وتمظهرات ما يريده ويبتغيه منها.

---

(1) ميشيل فوكو، **المعرفة والسلطة**، مصدر سابق، ص 90.





لقد بات الجسد بحاجةٍ إلى الحماية الكفيلة بجعله آمنًا، حيث إننا بحاجة إلى إتيقا للجسد البشري، التي تزيل عنه كل الانتهاكات الخفية باسم التقدم العلمي والتكنولوجي والطبي، إتيقا تضع حدودًا واضحة لما ينفع الجسد وما يضرّه بشكلٍ واضح[1].

نحن بحاجة لحماية أجسادنا من سلطاتنا التي تروّض الجسد بشكلٍ يضرّه دون أن تنفعه بشكلٍ يؤدي إلى ديمومة صحته، وبناء أعضائه بالشكل المطلوب. نحتاج إلى أن نتعامل مع الجسد ليس كآلة تحمل في بواطنها الكثير من الأعضاء المهمة، وإنما كذات تحتاج منا العناية كوحدة مكمّلة للوجود البشري.

إن الجسد بقدر ما كان وما زال وسيبقى محكومًا للإنسان وسلطاتهِ وسلطات المجتمع، إلا أن ذلك ساهم في تطور معرفة الجسد والنظر إليه على أنه الكيان الذي لابد من الاهتمام به ومعرفة كل ما يخفيه، وعلى كافة المستويات، دون النظر إليه على أنه ذلك الشيء المندمج مع ذات الإنسان، بل هو الإنسان نفسه ودون إعارته أي اهتمام، ومعرفة طبيعة العلاقة التفاعلية التي تربطه والإنسان ذاته والمجتمع الذي يعيش فيه.

---

(1) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 107.






مكتبة
التنوير

## الفصل السادس

# الجسد البالي والمرمم







عندما ننظر إلى هيئة الجسد فيزيولوجيًّا قد لا نعيرها أي أهمية، أو على الأقل قد لا نحسب لأهميتها حسابات كبيرة، لكن الواقع يقول إن هذا الجسد يفعل فعله في حياة الإنسان، وهو أحد أسرار وجوده وتمثله في الحياة.

إن الوظائف الحياتية التي يقوم بها الفرد، والتي تحرز له مركزًا كإنسان في المجتمع وتجعله يتقدم ويتطور، ويمارس عمله بانسيابية واضحة، متأتية من الاعتماد على جسدٍ لا يوجد فيه خلل كبير يؤدي إلى توقف نظام عمل ذلك الجسد، فالجسد الصحي والمعافى هو الجسد القادر على التركيز كثيرًا لتنفيذ رغبات وإدراكات صاحب الجسد، وترجمتها فعليًّا إلى أعمال وسلوكيات تتطلبها حياة الفرد صاحب الجسد. أما إذا كان ذلك الجسد يعتريه نوع من الأمراض والخلل، فمن المؤكد أن ما هو موجود في داخل الفرد وفي ذهنيته من أفكار وطموحات ومحاولات، قد لا تترجم بصورةٍ صحيحة إلى الواقع؛ بسبب خلل يعيق حركة جسده وقيامه بوظائفه بشكلٍ أمثل. فاليوم نلاحظ أن الشخص المريض يختلف عن الشخص المعافى بدنيًّا في تنفيذ أعماله ومشاركته بصورةٍ فاعلة في الحياة، أي إن تعثّر جسد الشخص قد يمنعه من الإتيان بأعماله على أحسنِ وجه، أو كما هو معهود إليه وبالمقارنة مع الشخص المعاق، أو على الأقل قليل الأمراض في بدنه.

## الجسد المريض واختلال المجتمع

لا يمكن لشيء أن يجعل الجسد باليًا وغير قادر على إتيان أعماله بصورة جدية إلا المرض الذي يصيب ذلك الجسد، فيحط من قدراتهِ ويؤدي إلى تأزمه، بحيث يصبح عالة على صاحبه بالذات، فالمرض يؤدي دورًا كبيرًا في الحد من تقدم الإنسان، ولا يظهر ذلك إلا بصورة واضحة على جسد ذلك الإنسان.

فالمرض هو من الأزمات الكبيرة التي يتعرض لها جسد الإنسان، ويتوقف الخلاص من تلك الأزمة أو عدمه بحسب التعامل مع ذلك المرض ونوعيته، من خلال إعداد العدة له من قبل العلاجات القادرة على وضع حدود للعديد من





الأمراض أو الفشل في ذلك، الأمر الذي يؤدي إلى استفحال الأمراض وتطورها لعدم وجود ما يؤدي إلى كبحها ومقاومتها.

يرى "مورفي" أن المرض والضعف وكل ما يتعرض له الجسد ويصيبه يشكل شروطًا اجتماعية ونفسية جديدة للشخص المصاب، وكأنه يعاني من مشاكل جسدية، حيث إن الأشخاص الأصحَّاء يتعاملون مع الصحة المتوافرة لديهم ومع أجسادهم وكأنها أشياء مكفولة لهم، إذ إنهم يقومون بكل الفعاليات الحياتية لأن لديهم ما يؤهلهم لذلك من خلال الصحة[1].

إن المرض بطبيعتهِ يقمع الفرد بجسدهِ من الاستمرار في حيويتهِ وحركته في الحياة، لذلك أعار الإنسان للمرض أهمية كبيرة. وعلى إثر ذلك تطورت التقنيات الطبية والعلاجية لعلاج ما يفتك بالجسد، وبالتالي الإنسان ذاته. وقد تدرَّجت الأمراض منذ قديم الزمان وإلى استمرار الحياة، فلم تظهر الأمراض التي تصيب الإنسان في فترة دون أخرى من مراحل حياته، وإنما كل المجتمعات وبمختلف المراحل الحياتية تعرضوا ومازالوا لشتى أنواع الأمراض التي تصيب الإنسان وتؤثر في جسده. وتختلف الأمراض فمنها البسيطة والتي تُعالج بعلاجاتٍ أبسط، ومنها المتوسطة والتي تحتاج إلى علاج متوسط نوعًا ما، وكذلك هناك الأمراض القوية جدًّا والخطرة، والتي تؤدي إلى إنهاك جسد الإنسان، وربما تقضي على حياتهِ إن لم يتم علاجها أو لم يتوصل إلى علاجٍ وافٍ لها.

لذا فالأمراض باتت ملاصقة للإنسان تصيب جسده وتقوّض حركته، ربما لمدةٍ بسيطة أو لفترات أطول، أو تحرمه نهائيًّا من الحياة. ولعل هناك أمراضًا قد لا تصيب الجسد وأعضاءه مباشرة، وإنما ناتجة عن أزمات نفسية تتعلق بحزمة الأفكار والهموم التي يحملها الإنسان، إلا أن المرض النفسي مثلاً قد يؤدي إلى عدة أمراض أخرى جسدية تلحق بالإنسان، ربما إن لم يعالج بصورةٍ مناسبة وصحيحة. كما إن الأمراض لا تقتصر في مهاجمتها لجسد الإنسان على فئةٍ دون أخرى، أو عمر معين دون آخر، وإنما تصاب كل الأعمار وكل الفئات بالأمراض، وبحسب طبيعة الجسد ومقاومته والبيئة الصحية أو عدمها التي يعيش فيها.

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 73.





ولما كان المرض يصيب الإنسان ذاته، فالمجتمع سيُعاني من ذلك كثيراً، على اعتبار أن الإنسان أو الفرد الواحد هو مكوّن من مكونات ذلك المجتمع، والذي يساهم في إعداده وبنائه.

لعل رؤية الجسد تنطلق من منطلقين أساسيين: أولهما المنطلق الديني اللاهوتي، الذي يعد الجسد وسطًا لأداء العبادات وإقامة الشعائر والطقوس، والثاني هو المنطلق الفلسفي الذي يعد الجسد مادة حيوية تحمل جميع الصفات الطبيعية للهيئات الحية[1]، وبذلك تختلف صورة الجسد حسب الاتجاهات التي تنظر إليه، وحسب ما يريده ذلك الاتجاه من الجسد ويوظّفه لأجلهِ في أمور الحياة المختلفة. وفي كلا الاتجاهين، فالمرض لا يستثني جسدًا دون آخر، وإنما يصيبهم سواسية دون معرفة آراء واتجاهات من يطرح قضايا مرض الجسد.

كما إن "ماري دوجلاس" ترى أن الجسد هو بمثابة تمثيل مجازي للمجتمع ككل، فكل ما يصيب الجسد من خللٍ واضطراب يعني ذلك إصابة المجتمع بخللٍ، وأيضًا سلامة الجسد واتزانه يؤثران على اتزان وسلامة المجتمع[2]. ومن الطبيعي أن المجتمع هو مجموع الأفراد الذين هم مجموع هذه الأجساد، فإن أي عاهة أو خلل يضرب ذلك الجسد معناه إعاقة المجتمع في أحد أركانه أو أطرافه، فمرض الفرد المؤثر في المجتمع يؤدي ذلك إلى تأخر وعدم نهوض المجتمع الذي يعتمد كليًّا على الأفراد الأصحَّاء في بنائهِ من خلال توظيف أفكارهم وأفعالهم لخدمتهِ وبنائهِ في الاتجاه الصحيح.

ولما كان المجتمع يحيا بمجموع الأفراد، فتعثّر جسد الفرد وتعرّضه للإنهاك من قبل إصابته بعدة أمراض، من المؤكد أن ذلك سيحرم الفرد ذاته من قابلياتهِ التي ممكن أن يستثمرها لو كان معافى، ومن ثم يُحرم من يحيط به سواء أكانت أسرته أم أقرانه من امتيازات وجوده ودوره كعنصر فاعل في إدامة الحياة. على أن لا ننسى أن الخاسر الأكبر من ذلك كله هو المجتمع برمّتهِ، الذي يفقد مؤهلات ذلك الفرد عند سيطرة

---

(1) د. سيار الجميل، "فلسفة الجسد والتفكير الإنساني: رؤية عربية"، مجلة **عالم الفكر**، المجلد 37، 2009، ص 135.

(2) حسني إبراهيم، "تطور الانشغال السوسيولوجي بالجسد"، ج3، مصدر سابق.





المرض عليه، والذي قد يقوم بإبادة جسده. إلا أن ذلك لا يعني أن كل من يتعرض للمرض سيُحرم المجتمع من خدماته، وإنما المقصود هو الجسد الذي يُصاب بمرض يمنعه من أداء أغلب واجباته بصورةٍ صحيحة، وربما يؤدي به إلى الهلاك، فهناك كثير من الأفراد مصابين ربما بعدة أمراض، لكنهم قد تكيَّفوا معها من خلال كبحها نوعًا ما بالأدوية، وهي ما تسمى "الأمراض المزمنة"؛ فنجدهم يقومون بعدة أعمال لصالحهم وصالح المجتمع، ولو تمتعوا بصحةٍ ممتازة دون أمراض لأنتجوا أكثر وبصورةٍ نوعية.

ولعلنا نلاحظ أن كثيرًا من المجتمعات التي تُظهر المؤشرات عندها ارتفاع نسب الأمراض لديها، وعند مختلف الفئات بسبب سوء العناية الصحية أو التلوث أو قلة الوعي بالوقاية من الأمراض، فإن هذه المجتمعات ممكن أن تُصاب بعدة أوبئة، وعلى أساس ذلك تُعد مجتمعات منكوبة، وتسمى منكوبة لأنها غير قادرة على النهوض بوجود أجساد مريضة، فالبشر فيها يُعاني سوءًا صحيًّا وطبيًّا كبيرًا، لذلك لا تتقدم ولا خطوة واحدة، وإنما ما بها من أزمة أمراض هو تأخر بحد ذاته.

وبذلك فتعرض الجسد الإنساني للمرض لا يُعد خسارة للفرد فحسب من خلال مساهمته في إرهاق الجسد، وبالتالي الإنسان وأدواره وتحركاته ومساهماته، وإنما يبرز المجتمع كمتضرر أوسع من مرض الفرد، لما لذلك الأمر من أهمية في انتكاس المجتمع الذي يكون جل اعتماده على الأفراد، الذين يشكّلون الوحدة الرئيسة لذلك البناء والنهوض به، والدفاع عنه في أوقات النكبات والأزمات.

## الطب والجسد

إن بروز الطب بصورةٍ ميدان له كثير من الأسس والقواعد قد جاء كلازمة لظهور المرض الذي يصيب الإنسان، فلم يكن هناك أي مبرر لنشوء الطب وميادينه، لولا وجود المرض الذي قد يفتك بالإنسان إذا ما عولج على نحوٍ صحيح، وبذلك فما استدعى وجود الطب وتطوره وانتقاله من مراحلٍ بسيطة إلى مراحلٍ متقدمة، هو قمع المرض للجسد الإنساني، وما قد يُلحقه به من مؤثراتٍ كبيرة على مستوى الحياة الفردية والمجتمع الأكبر.





لقد برزت ميادين الطب والعناية الصحية بشكلٍ كبير في الاهتمام بجسد الإنسان، واتضحت تحولات كبيرة في هذه الميادين، والتي ساعدت إلى حدّ أكبر في النظر في كثير من العوائق والأمراض التي تعترض صحة الإنسان، وبالتالي جسده[1]، إذ انتقلت العناية بصحة الإنسان وجسده، وتحولت وتدرجت من الأساليب البسيطة التقليدية، التي لم تكن مستندة إلى دقة وتكنولوجيا متطورة إلى الانفتاح الواسع في عالم الصحة والأمراض، وكيفية إيلاء جسد الإنسان وما يعتريه من اهتمامٍ كبير، ليس لسببٍ جاء من فراغ، وإنما لعلاقة ذلك بالجسد الذي على أساسهِ تتوقف حياة الإنسان، وبالتالي حياة المجتمع والنوع الإنساني.

فلم يكن الإنسان على درايةٍ تامة بضرورة العناية بالجسد والإنسان بشكلٍ عام من الأمراض، إذ شهدت المجتمعات القديمة قصورًا كبيرًا في الوعي بمسألة ضرورة تجنب الأمراض أو تفاديها. وعلى إثر ذلك تفشَّت الأمراض بشكلٍ واسع. ومما ساعد على انتشارها بساطة الحياة آنذاك، التي كانت تفتقد للتنظيم وعشوائية العيش، وعدم وجود جهات مختصة تطوق أطر المرض وتفتك هي به. هذا فضلاً عن عدم وجود ما يؤهل للعيش ببيئة صحية خالية من الأمراض، إذ إن الأمراض تكون ملاصقة للبيئة غير المنظمة، والتي تكون حاضنة لكثير من الملوثات والفيروسات.

وعلى أساس ذلك استمرت الحياة، وبدأت بمحاولاتٍ لكبح جماح ما يعيق الجسد ألا وهو المرض؛ فبدأ الإنسان يبتكر بعض ما يعالج به الأمراض من خلال دمج بعض الأعشاب بطرقٍ بدائية وتطبيب المرض بها. وقد نجحت بعضها وفشلت في كثير منها، وهناك حالات لم يستطع الإنسان في تلك الفترات إيجاد علاجات لها لمحدودية المعلومات، وقلة التراكم الإنساني المعرفي، لذلك لم تكن تلك المحاولات ذا أثر كبير للقضاء على سلطات المرض، وإنما كانت مُبشرة بمجيء ما هو أفضل في المستقبل، إلى أن تقادمت وتطورت وبدأ الإنسان شيئًا فشيئًا يراكم المعرفة الطبية لديه، فبرزت أهمية الميدان الطبي كضرورة ملازمة للقضاء على الأمراض التي تفتك بالإنسان. ومن ذلك الوقت بدأت طروحات الإنسان في هذا المجال تتوالد بشكلٍ

(1) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص 225.





كبير، وتوصل على أساسها للعديد من المخترعات الطبية والأدوية، التي باتت تضع حدًّا لكثير من الأمراض التي كانت سابقًا أمرًا ميؤوسًا منه.

كما إن الأمر لا يقتصر فقط على إيجاد الدواء النوعي الفعَّال، وإنما التطورات الطبية الأخرى شملت كيفية علاج الجسد جراحيًّا باستخدام أحدث الأجهزة التي ابتكرها العقل الإنساني، فبعد أن كانت هناك حالات يتعرض لها جسد الإنسان من كسور وجروح وتشوهات وغيرها، لا يستطيع الطب القديم والبسيط إيجاد حلول لها أو حتى لبعضها؛ بات اليوم هناك معالجات جراحية لكثير من هذه الحالات بعد أن كانت غير متوفرة أو ناجحة في السابق، إذ أصبح الطب يتعامل بأدق تفاصيل الجسد الإنساني ويغور فيه، ويحاول فك الالتباسات المرضية التي تمر عليه وتصيبه.

"لقد كشفت نظريات "فوكو" إلى أي حد قام الطب المؤسسي (Institutional) بموضعة الجسد (Body Objectification)، حيث تمت صياغته طبيًّا (Medicalized)، بحيث أصبح الجسد مجرد كيان طبيعي يُخلق ويعاد إنتاجه من خلال الخطاب. ويكشف "فوكو" كيف أضحت السلطة الطبية استراتيجية منظمة بسطت هيمنتها على أجساد الأفراد وسلوكياتهم"[(1)].

إن الجسد اليوم بات تحت رحمة السلطة الطبية التي طورت كثيرًا من قابلياتها لترتفع بذلك الجسد إلى مستويات خالية من الأمراض، والغرض منها هو إدامة الجسد بعيدًا عن الأمراض، وباتت السلطة الطبية والصحية تملك رؤية واسعة في ما يدور في ثنايا الجسد، وما يؤثر عليه وما ينفعه، وهي تحاول بمرور الوقت وعصرية الحياة التوصل إلى كل ما يساعد على القضاء نهائيًّا على عددٍ من الأمراض المزمنة والأوبئة التي تصيب جسد الإنسان، وبالتالي تعوّق حياته في المجتمع.

فاليوم المحاولات الطبية مستمرة للتعرف على ما يعيق صحة الجسد الإنساني وبالتالي المجتمع ككل، إذ تخرج بين فترة وأخرى عدة ابتكارات تتوصل إلى مضادات معينة لأمراض خطرة أو مزمنة، أو ابتكار طريقة لمعالجة حالة جراحية معينة، إذ إن

---

(1) حسني إبراهيم عبد العظيم، ميشيل فوكو وتأسيس سوسيولوجيا الجسد(2)، النظم الفاعلة في ترويض الجسد، انصهار السلطة والمعرفة، مقال منشور في موقع **الحوار المتمدن**: www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=263564.





هـذا السـعي الحثيـث لإدخـال العصـرية الممكنـة والمسـتمرة في ميـدان الطـب لم يكـن لذات الميدان نفسـه، وإنمـا لعلاقتـه بشـيء آخـر ضـروري العـلاج منـه ألا وهـو المـرض. وحقيقـة كلمـا زادت التطـورات، فـذلك يعـني تحجيمًـا أكثـر لعـدد مـن الأمـراض الـتي تكون قد قهرت الإنسان في كثير من الأزمنة، وحطّت من قدراته وحياته ومساهماته في المجتمع.

كمـا إن ذلـك لا يعـني أن هنـاك سـيطرة كاملـة علـى جميـع الأمـراض مـن قبـل ابتكـارات الميـدان الطبـي، فهنـاك أمـراض مـا زالـت تشـكّل إرهاقًـا كبـيرًا للمرضى والعـاملين في ميـدان الطـب، لصعوبتها وخطورتها وعـدم إيجـاد مـا يناسـب علاجهـا نهائيًّـا. وكـذلك تظهـر في الحيـاة أمـراض متعـددة لم يسـبق أن ظهـرت، وهـذه تحتـاج إلى إمعـان النظـر فيهـا كثـيرًا لاختيـار مـا يناسـبها مـن تلـك العلاجـات والأدوية.

لقد باتت الرعاية الطبية اليوم تشمل كل مرافق الحياة، بدءًا من الأسرة وانتهاء بالمجتمع الأكبر، إذ إن هناك ما يهدد حياة الإنسان وقد يقضي عليه ألا وهو المرض، لذلك ترصد المجتمعات حيزًا واسعًا للاهتمام بقضايا المرض والعناية الطبية والصحية، وتؤسس لذلك الغرض المستشفيات والمؤسسات الصحية التي تقدّم العلاجات اللازمة للإنسان، وتقوم بحملات وقائية مستمرة ضد عدد من الأمراض، وتبث حملات توعية لمخاطر الأمراض وكيفية الحفاظ على الجسد الإنساني منها.

## التعامل مع تطبيب الجسد ككيان منفصل عن الفرد

حتى إن قضية التعامل مع الجسد الإنساني قد تحوّلت بحكم التطور ودخول الحياة مجالات العصرية والتقدم إلى شأنٍ آخر، فبعد أن كان ينظر إلى الجسد الإنساني في علاجه على أنه شيء منفصل عن اسم الإنسان وتأريخه الشخصي، باتت اليوم العمليات الطبية تأخذ ذلك بعين الاعتبار، ولا يتم التعامل مع الجسد بكونه شيئًا أصم، وإنما يتم علاجه على أنه وحدة فاعلة مؤثرة في المجتمع، بحيث لم يتم التعامل معه على أنه ذلك الشيء الذي لا يملك في دواخله مخزونًا اجتماعيًّا يخص الإنسان ذاته، وإنما علاجه كوسط مؤثر بشكلٍ كبير جدًّا في الحياة ولا يمكن الاستغناء عنه.





فالطب التقليدي مثلاً كان قد جعل من الجسد "أنا آخر" للإنسان، إذ يبعد ذلك الطب من دائرة اهتماماته الأهمية بالإنسان ذاته وبتاريخهِ الشخصي، وعلاقاته وما قد يحدث في عمليات حياته[1]، أي التعامل مع الجسد وكأنه منعزل عن ذات الإنسان، أو كجزء تابع للإنسان ويحتاج إلى الإدامة أو تصليح الأعطاب التي تنتابه. فالجسد هو الإنسان نفسه، ولا يمكن التعامل معه على أنه شيء يختلف عن أحاسيس وأذواق ومخيلة ذلك الإنسان، أو حياته الخاصة والعامة في المجتمع.

ولعل للعلوم الطبية العربية الكثير من المساهمات في العناية بالجسد الإنساني، إلا أنها كانت تفصل على الأغلب الإنسان عن المرض الذي يعاني منه، حيث إن الطبيب لا يعالج إنسانًا مريضًا، وإنما ما يصاب به ذلك الإنسان من مرض[2].

فذلك هو تصوير على أن المرض لا علاقة له بكيان الإنسان وظروفه وحياته، وما قد ينجم عنها من ملابسات تؤدي إلى مرض الإنسان.

إن قضايا الصحة والمرض ظلت لفتراتٍ طويلة يُنظر لها على أنها موضوعات طبية بامتياز، ولم يكن بمقدور علماء الاجتماع الخوض والكلام عنها، للاعتقاد الراسخ منهم بأنها موضوعات بيوطبية، ولا يمكن للتعريف السوسيولوجي أن يشمل حياة الجسد الفيزيقي (نموه، اضطراباته، أمراضه، شيخوخته وغيرها)، وكانت تلك نظرة السوسيولوجيا الكلاسيكية، إلا أن الأمر لم يبق على حاله؛ إذ شُملت هذه الموضوعات بالرؤية السوسيولوجية المتخصصة، بفضل تقدّم الأفكار وتطورها واتخاذها أشكالاً مختلفة[3].

فمن كان يتقصى أحوال الجسد طبيًّا لا يربط ربطًا نوعيًّا بين فيزيولوجية الجسد وبنائه الاجتماعي، وإنما الأمر كان يتم خالصًا بالنظرةِ إلى الجسد من الوجهة التشريحية الدقيقة فحسب، إلى أن تم إدخال هذا الربط بالسوسيولوجيا، والنظر إلى الجسد ككيان لا يتعلق بالناحية البيولوجية فقط، وإنما يتمثل بصورِ الحياة التي

---

(1) دافيد لو بروتون، مصدر سابق، ص 8.

(2) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 294.

(3) عصام العدواني، الصحة والمرض: رؤية سوسيو أنثروبولوجية، مجلة **إضافات**، العدد التاسع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، ص 99.





رسَّخها به ذلك المجتمع الذي يعيش فيه، وما نحتته عليه التجارب والأفكار والمبتغيات. وظهرت بعدة أشكال وصور، فالجسد لم يكن يُشعر به على أنه وسط مهم لغايات أخرى، وإنما تم الاهتمام به ككيان لديه ضرورة في الحياة بقليلٍ من الأهمية.

لذلك فإن الكلام عن كون الاهتمام بالجسد من ناحية السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا جاء متأخرًا لم يكن اعتباطًا، وإنما بسبب هذه الاعتقادات التي جعلت من المجالات الطبية والصحية بمثابة تابوهات لا يمكن الاقتراب منها، والانشغال بتطوراتها وثناياها التي تؤثر بشكلٍ مباشر على جسد الإنسان.

لذلك يمكن القول إنه لابد للطبيب أن يأخذ بعين الاعتبار عند علاجه جسد الإنسان المريض بيئة ذلك الإنسان وتأريخه الشخصي، حيث لا تمثل حرقة المعدة مثلاً مجرد مرض عضوي، بل لها تداخلات في سيرة حياة وبيئة ذلك الإنسان وما يدور في حياته[1].

فقد تساهم أحوال وظروف الإنسان بشكلٍ كبير في إصابته بالأمراض، وعليه لا يمكن عزل التشخيص العضوي عن واقع حياة ذلك الجسد والصور التي كان عليها، وكيفية انتظامه وسلوكياته والمؤثرات التي يتعرض لها. بمعنى آخر يجب أن تشخص حياة الإنسان من كل الجوانب للوصول إلى العلل التي تصيب جسده.

## الجسد المريض والموقع الاجتماعي

وقد برزت هناك محاولات كبيرة لعلماء الاجتماع وعلماء الأوبئة لمعرفة طبيعة العلاقة التي تربط الصحة من جهةٍ، وعدد من المتغيرات الاجتماعية من جهةٍ أخرى، مثل الطبقة الاجتماعية والجنس والعرق والعمر والمستوى المعاشي وغيرها[2]. ولعل إسهامات السوسيولوجيين قد أوضحت بشكلٍ كبير أثر الصحة والمرض في تكييف حياة الإنسان في المجتمع، وما تتركه مؤثرات المرض على مقدّرات وتناغم الجسد مع الحياة، فالمجتمعات بُنيت على أساس أفرادها، والتي تساعدهم على الإتيان بأعمالهم

(1) د. عز العرب لحكيم بناني، مصدر سابق، ص 116.

(2) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص 226-227.





وتنفيذها بشكلٍ دقيق على الأقل وكما هو مطلوب، إلا أن إصابة الجسد بالمرض يعيق الإنسان عن القيام بوظائفهِ. ولا يشمل إصابة الجسد الشكل الخارجي الذي قد يتعرض إلى عطبٍ أو خلل، وإنما خلل البنية الداخلية للإنسان وأعضائه وتفكيره وسلوكياته، وبشيءٍ أكثر دقة توجد علاقات مباشرة بين صحة الجسد الإنساني وبناء حياته في المجتمع. إذ قد يرتبط المستوى المعاشي الخاص بالإنسان بصحتهِ، فالفرد الصحيح بدنيًّا وعقليًّا بدءًا من الفكر وانتهاءً بقواه العضلية والعضوية، هو القادر على العمل وتحسين مستواه المعاشي. أما المريض والذي يعاني خللاً ما في جسده وبنيته الصحية، فلا يستطيع الانتظام في ما يؤمّن مستواه المعاشي، وبالتالي يؤثر ذلك على منسوبِ قوته ومستوى رفاهيته وموقعه في السلَّم الطبقي. ومن المؤكد أن يؤثر مرضه على ما يحصل عليه من المجتمع من صورٍ من خلال انخفاض مستواه المعاشي في الطبقة الاجتماعية التي يحيا فيها.

كما إن المراكز الاجتماعية المتميزة لا يمكن أن يحتلها أصحاب العاهات وذوي الأمراض؛ لأن هذه المواقع تحتاج إلى عمل وتفكير متقن، وليس بمقدور المريض القيام بذلك، فتلقائيًّا ينصرف الأمر إلى من هم بدرجة من الصحة التي تمكّنهم من المطاولة وإدارة الأعمال بشكلٍ يؤدي إلى تقدم المجتمع وبلوغ الازدهار.

ولا يمكن لمجتمعٍ أن يتقدَّم ويصل إلى تحقيق أهدافه بأجسادٍ معتلة مريضة، وإنما بالأجساد القوية يمكن بناء المجتمع، أو بمعنى آخر بالصحة التي يتمتع بها الأفراد يصبح المجتمع قويًّا بقوةِ أفراده، وقدرتهم على تحقيق ما يريدونه من طموحات.

إلا أن كل ذلك لا يمكن القول معه إن كل مريض سيندمج وينخرط ضمن المواقع والطبقات الاجتماعية المنحدرة، وإنما المقصود من ذلك هو أن الجسد المريض والمنتكس صحيًّا لا يستطيع تحسين وضع الشخص، ويبلغ به أعلى درجات الحياة من التطور والحصول على الأهداف المرجوة، إلا بالعمل في أعمال قد تتناسب والمرض المصاب به الإنسان، والتي لا تتطلب جهدًا كبيرًا منه وذلك على الأغلب نادر.

وعلى العكس من ذلك، فالجسد الصحي يستطيع الفرد به أن يمضي في تحسين أوضاع حياته وتحقيق طموحات مستقبله، وذلك بطبيعة الحال سيكون مدعاة للوصول إلى مراتب متقدمة سواءً في المركز أو الترتيب الطبقي.





كما إن الجسد المريض بطبيعتهِ يؤثر على مجمل الأفكار ونوعيتها التي يتحرك وفقًا لها الفرد، وما يحاول أن يوصله إلى الجسد للترجمة عن طريقهِ في الحياة.

ولعل لكل مجتمع التصور الخاص به للمرض والذي يميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى، حيث إن الجسد المريض يتم تمييزه وفق علامات ورموز متفق عليها في البيئة التي يعيش فيها المريض[1]، بحيث تتم الإشارة إلى المرض وفق الثقافة المتعارف عليها، والتي أصبحت تميز الكثير من الأشياء وبضمنها الصورة التي يكون عليها الجسد المريض وكيفية التعامل معه، وموقعه ومركزه في المجتمع.

أيضًا إن النظرة للمرض تختلف باختلاف الثقافات مرة أخرى، فقد قام "مارك زبورفسكي" بدراسة لسلوكيات التعبير عن الألم لمرضى في إحدى المستشفيات الأمريكية، ومن ثم أعاد التجربة على مرضى إيطاليين ويهود؛ فوجد أن تعبيراتهم عن الألم والمرض تختلف باختلاف تنشئتهم والثقافة التي انحدروا منها[2].

"طرح زعيم المدرسة الوظيفية "تالكوت بارسونز" فكرة "دور المريض" لتفسير أنماط السلوك التي يسلكها المريض لتخفيف الآثار الضارة المربكة التي يخلّفها المرض، ويرى الوظيفيون عمومًا أن المجتمع في العادة يعمل بطريقةٍ سلسلة وشبه اجتماعية، ومن هنا فإن المرض يمثل نوعًا من الخلل الذي يؤدي إلى اضطراب انسياب هذه الحالة الاجتماعية الاعتيادية"[3].

ومن المؤكد أن المريض يختلف دوره وسلوكياته خلال المرض عن الشخص المعافى، لما يحدثه المرض من تغيير وعدم قدرة على تصوير السلوكيات بصورةٍ متقنة ودقيقة، ويتعلم الفرد وفق تربيته وتنشئته أدوار المريض التي يتخذها عند إصابته بالمرض، أي السلوكيات التي ينبغي عليه تقمصها لأخذ دور المريض والتصرف وفقًا لها، حيث يرى "بارسونز" أن هذا الدور الذي يتعلمه المريض هو دور مكتسب من تنشئة المريض الاجتماعية الأولى، ثم يمارسه بمساعدة الناس عندما يُصاب بالمرض[4].

---

(1) صوفية السحيري بن حتيرة، مصدر سابق، ص 286.

(2) المصدر نفسه، ص 237.

(3) أنتوني غدنز، مصدر سابق، ص 240.

(4) المصدر نفسه، ص 241.





إن ما هو متوقع من سلوكيات وأفعال من الشخص المعافى يختلف عن المتوقع من الشخص المريض، فالنظرة لكل واحد منهم مختلفة، فالمجتمع يطالب الشخص صحيح الجسد والبنية بأن يقوم بأعمالهِ، ويحدد مركزه وما هو مطلوب منه على أتم صورة، لكنه يتوقع أشياء أخرى من الشخص المريض، ويلغي أو تسقط عنه أشياء مراعاة لصورة وحالة المرض التي هو فيها، إذن المجتمع قد اشتق حالة خاصة للمريض يسير وفق مساحاتها تختلف عن مساحات الشخص غير المريض.

فنحن لا ننتظر من مريض أن يؤدي أعمالاً والتزامات وواجبات هي ممكن أن تؤدى في الظروف الاعتيادية، وإنما يدخل المريض وجسده في حالة استثناء من كل ذلك، فهو قد لا يُحاسب على أشياء تعد مخلة بعض الشيء بقواعد وسنن المجتمع والقانون لكونه مريضًا، إذ إنه يملك عذره الذي يجعله لا يتساوى في تحمل المسؤولية مع الشخص غير المريض.

وكل المجتمعات وباختلاف ثقافاتها عدّت المرض وإصابة الشخص به حالة استثنائية يصبح فيها المريض في صورةٍ أخرى تختلف عن الشخص المعافى. وقد تدرجت هذه الأعراف في التعامل مع المريض من مجتمعٍ وثقافة إلى أخرى، فلا يوجد مجتمع يُعنّف مرضاه سواء في الأسرة أو في المجتمع إلا ما شذ وندر، وتلك القيمة التي تمنح للمريض قد تعلَّمها الأفراد من أطوار التنشئة الأسرية والاجتماعية، باعتبار أن المريض ليس متساويًا مع المعافى في قدرته على إتمام أعماله على أتم وجه، لذلك يتم التساهل معه وما متوقع منه لا يكون بمقدار ما متوقع من الشخص السليم.

إن طبيعة الأدوار التي يكون عليها المريض لا يمكن أن تكون غير واقعية، وإنما تعكس الحالة المرضية التي يكون عليها، فهو وفقًا لطبيعة مرضه يتصرف وبطبيعة الحال قد لا تكون تصرفاته هذه هي لجلب العطف من الناس، وإنما سلوكيات حياته تختلف نوعًا ما، ويبدأ بالنظر للمجتمع والناس بأطوار تنسحب من واقع مرضه.

## عزلة الجسد المريض وخوفه

حقيقة الأمر أن للمرض بعدين أساسيين: أولهما شخصي والآخر اجتماعي، فالشخصي يتمثل بما يشعره المريض تجاه نفسه من شعورٍ بالألم والخوف والارتباك،





تجاه ما يواجهه من مرضٍ وألم على جسدهِ وذاته، والآخر اجتماعي، وهو ما يشعر به الآخرون تجاه الشخص المريض، وكيف يتعاملون بلطفٍ ورفق وتعاطف معه، أو مد يد المساعدة التي قد يحتاجها منهم[1].

ولما كان المرض لا يمكن الشعور به إلا من خلال الشخص المبتلى به، فالآخرون لا يشعرون بمرض وألم الشخص، وإنما هو من يعيش هذه الحالة ويشعر بخوفها وألمها، فالمريض قد يعيش حالة أخرى غير حالة الألم وهي ابتعاده وخوفه من التهميش في حياته، فالمرض قد يبعد الشخص عن القيام بأدوارهِ التي يتطلبها منه المجتمع وموقعه ومكانته، ويجعله غير قادر على مسايرة الحياة بشكلٍ طبيعي. ويشعر المريض أن جسده بات عالة أو معيقًا لكيانه وكيان أسرته، الذي انتظم وسار وفق صورة جسده الذي كان معافى في السابق، وبدوره المجتمع يحاول أن يسبغ مشاعر التعاطف مع المريض، ولا يمكن أن يقوم المجتمع الذي يبغى التقدُّم بتكليف المريض في أمور تتعلق ببنائهِ وتقدّمه؛ لأن المريض سيكون غير قادر على القيام بذلك، أي إن المجتمع قد حدَّد مؤهلات ومكانة وممارسات أخرى للمريض تتناسب ووضعيته وحالته التي يعاني منها.

إن الحياة التي يحياها المريض وهو يعاني آلام مرضه الجسدية والنفسية تختلف عن حياتهِ لو كان في صحته، إذ يدخل في وضعية مختلفة تكاد تكون قاصرة عن حياة الأصحاء، لذلك قد يشعر المريض بأنه ربما يكون قد انسلخ بمرضهِ عن عالم الأصحاء، ويخشى كثيرًا من موقعه الجديد الذي ترتب عليه من جراء مرضه؛ فقد يشعر بأنه معزول وغير قادر على الانضمام مرة أخرى للأصحاء، ويتملكه الخوف من فقدان حياته جراء ذلك المرض. كذلك قد يتألم المريض نفسيًّا مما أصبح عليه، وكيف تغيرت أوضاعه وأدواره، وكيف أصبح يُنظر إليه على أنه عاجز ويستحق المساعدة. وقد يتألم من طريقة إعالته ومساعدته والحمل الذي يضعه على كاهل المقربين منه.

وخوف المريض وانكماشه قد يسبب له الإصابة بأمراض نفسية تزيد من وطأة ما هو مصاب به، ولا يحل ذلك المشكلة وإنما يفاقمها نحو الخطر، لذلك قد ينعزل

---

(1) المصدر نفسه، ص 240.





المريض كثيرًا وينطوي على ذاتهِ؛ لشعورهِ بأنه أصبح عالة على الكل، ويشعر بأنه مختلف كثير بسبب عجزه وإصابته بالمرض.

في حين يكون البعد الآخر الذي ينتج عن المرض هو ما يشعره أفراد المجتمع تجاه المريض، فنحن على يقين بأن المجتمعات تنظر للمريض على أنه الشخص الذي يحتاج إلى المساعدة والاهتمام والعناية الفائقة، لذلك هم يتصرفون وفقًا لذلك مع المريض ليس كشخص عاجز، وإنما كشخص فقد شيئًا من صحتهِ وهو يحتاج المساعدة لاستعادة هذه الصحة، والاندماج في المجتمع مرة أخرى.

من ذلك نرى أن النظرة للمريض تختلف كثيرًا عن النظرة للشخص المعاق، بحيث تكون نظرة تألم على المريض، والرغبة في مساعدته وإخراجه من الحالة التي يعيشها إلى أن يسترجع عافيته من جديد.

إن اضطراب الجسد قد يلحق آثارًا كثيرة على الفرد والمجتمع، إذ إن حياة الفرد المريض تضطرب وتدخل في دوامة الصراع مع المرض ومواجهة الأدوار الجديدة وكيفية التناغم معها، والمجتمع بدوره يصبح مكلَّفًا بإعالة هذا المريض ربما، ويفقد أيضًا طاقة أو قوة قد تنفعه في البناء والتقدم، إذ إن المجتمع مسؤول بشكلٍ مباشر عن صحة الأفراد، وحمايتهم من الإصابات بأي أمراض ممكن أن تؤزم المجتمع، على اعتبار أن بناء ذلك المجتمع يتوقف على أفرادهِ وصحتهم.

## وصم الجسد المريض

وليس دائمًا يتعامل المجتمع، ومن هم حول المريض معه على أنه شخص يستحق العون والاهتمام للخروج من محنتهِ، وإنما قد يواجه المريض أشخاصًا ينظرون له على أنه الشخص المُعاق الذي أصبح عالة وليس ذا فائدة، حتى إن البعض يقوم باحتقار من يعاني من مرضٍ معين، ويشعره بأنه شخص عديم الجدوى. وبطبيعة الحال مثل هكذا أشياء وسلوكيات يخشى منها المريض فيشعر بالخوف، وقد ينحرف ويعزل نفسه، وقد ينعزل بسبب مؤثرات من حوله أو مجتمعه بالنظر له بمثل هكذا نظرة.

كما إن المريض قد يُوصم بأنه العاجز وغير القادر على القيام بأدوارهِ، وهو الشخص الذي لا يُرتجى منه خير؛ لأنهُ لم يعد ذا فائدة، وإنما هو من يحتاج إلى





معونةٍ، خاصة في حالات الأشخاص المصابين بأمراض تعزلهم نهائيًّا عن المجتمع، وبالتالي يفقد ذلك الشخص مكانته ومركزه والنظر له على أنه إنسان مُعال، لا يمكن الاعتماد عليه كثيرًا، حتى من ناحية اعتبارية تقديرية قد يُهمَّش المريض ويصبح غير مرغوب به في وضعيات وأحوال اجتماعية مختلفة، فما قد يريده المجتمع اليوم هو صورة جسد صحيحة غير بالية أو مريضة، لغرض اتساقها مع ما يطمح إليه ويرغب في أمورِ الحياة المتعددة.

وفي النظرة الاجتماعية للمريض أو المصاب بخللٍ في جسدهِ وبنيتهِ تختلف هذه النظرة بين متعاطف مع المرض والمريض، ويحاول أن يقدّم له المساعدات في حدود، لكن لا تعطيه التمييز في تصدر أمور أخرى، مثل تولي المهمات والمسؤوليات، وبين من ينظر نظرة دونية له على أنه غير نافع في كل الأحوال. واليوم ينظر المجتمع إلى المريض في زاوية مقارنته مع الشخص المعافى على أنه فاقد لما يؤهله الدوام في الحياة، لذلك يتساهل معه، ولكنه قد يحرمه ويظلمه دون أن يعلم بما يفعله تجاه هذا المريض.

إذ قد توجد أحوال ينظر فيها الأفراد للمريض على أنه لا يستحق مراكز متقدمة في الحياة، لذلك لا يحاولون أن يمنحوها له، فهم قد ينظرون إلى المرض والمريض نظرة إنسانية، ويكون كلامهم هو العناية بالمريض وتكليل الجهود لمعالجة الأمراض، لكن عندما يصطدمون بمساعدة مريض أو منحه مركزًا أو إعطائه قيمة قد يتوقفون عند هذا الحد، ويبررون أن من يحاولون أن يمنحوه قيمة من عندهم هو مريض، وقد يعد ذلك لديهم عيبًا وفق عاداتهم وتقاليدهم. مثلاً لدى كثير من الأفراد نظرة إنسانية للمرض والأمراض، لكن عندما يحاول مريض ما التقرب منهم. على سبيل المثال طلب الزواج والمصاهرة معهم، يرفضون ذلك ويوصم ذلك الإنسان المريض بأنه عاجز، وكيف لهم بأن يزوجوا بناتهم لأفراد عاجزين، وبذلك لا تتسق عاداتهم ونظرتهم التعصبية مع ما يتكلمون ويتشدَّقون به حول المريض. وبالمقابل قد يشعر المريض بأنه ارتكب جريمة ما بمرضه، وأصبح موصومًا ليس بما يخل الشرف ويخرج عن الأعراف، وإنما بسبب مرضه الذي حال بينه وبين تصرفات وسلوكيات الناس المختلفة ونظرتهم له.





وحقيقة عند بعض الشعوب بات يمثل المرض وجسد الإنسان المريض وصمة عار لا يمكن التخلّص منها، فقد يوصم الإنسان لأتفه الاسباب بأنه مريض، ولا يحق له التصرف والكلام وفق الناس الأصحاء. ولما كانت هناك تصورات ترى المرض بأنه وصمة، فذلك يولّد لدى المريض شعورًا بالاغتراب وبالدونية، التي قد تؤثر بشكلٍ كبير على المستوى العام لصحتهِ، وقد ترافق وصمة المرض المريض ذاته حتى لو شفي من مرضهِ. وقد يخشى الناس من عودة مرضه مرة أخرى، فهناك من يعتقد أن المريض قد يكون خطرًا عليه وعلى من حوله، لذلك يحاولون عدم التعامل معه إلا بتقديرٍ قليل ووفق النظرة المتدنية له.

ولنا أن نتصور كيف تكون حالة المريض عندما يُواجه بمثل هكذا تصرفات ومحاولات تهميش وإقصاء من الحياة، فالمريض ليس له يد في تسلط سلطة المرض عليه وما فعلته به، وما قد جلبته له من خلال تصرفات وتعاملات بعض الأفراد معه.

وعلى أساس اعتلال الجسد تنشأ علاقات وسلوكيات ومهن أخرى للمرضى تدخلهم في الجو الذي يتعايشون فيه، ويكرّسون الكثير من مشاعرهم وأفكارهم للنظر في حالهم. إلا أن هذه الحال في التصرف والنظرة للمريض من قبل المجتمع، وما قد يصبح عليه من عزلةٍ وانسحاب، قد تكون في الكثير من الأحوال دائمة وحتمية على كل من يصاب بمرضٍ، وتصبح كلازمة وهي أن كل مريض سيعامله ويهمّشه المجتمع وينظر له بمثل هذه الصورة؛ تتوقف على اختلاف الثقافات ومنظوراتها للمرض والجسد المريض، إذ إن هناك شعوبًا تعتني عناية كبيرة بمرضاها، وتزيد من قيمتهم ولا تحاول تهميشهم، وإنما إشعارهم بأنهم من ضمن الأصحَّاء ولا فرق بينهم على الأطلاق. وقطعًا ذلك يتوقف على التنشئة والقيم الروحية والتربية التي انحدرت منها هذه الثقافات. وعلى العكس من ذلك تعمد أيضًا كثير من الثقافات إلى التعامل بدونية مع المرض والمرضى، وأنهم كائنات باتت لا فائدة مرجوة منها، فالذي يعمل وينتج هو من له مكان في البقاء بينهم، وخلاف ذلك لا سبيل لمعيشته بصورةٍ مقبولة، ولا سبيل لقيامه بأدوار في الحياة تؤهله للعيش بنعيم.

ولعل وصم الجسد المريض بأنه مُعاق أو حامل لعاهة سيولّد لدى ذلك المعاق أو المريض أحقادًا تنمو داخله تجاه ما يحيط به من أفراد، ونحو ثقافة المجتمع ذاته،





الذي بات يحتقره ويقلل من شأنهِ كونه أصيب بعاهةٍ في جسدهِ، فيصبح في وضعيةِ المقارن بين وضعه القديم، وكيف أصبح بمرضهِ يتعامل معه المجتمع إن كان من المجتمعات التي تحقّر من مرضاها وتهمّشهم لمجرد إصابتهم بالمرضِ، وعدم قدرتهم على القيام بأدوارهم بشكل مطلوب، الأمر الذي يزداد في حقدهِ على مجتمعه، مما قد ينحو به إلى القيام بعدةِ أمورٍ قد تكون الانتحار أو التصرف بسادية تجاه الآخرين والجنوح، أو ارتكاب الجرائم، أو الرضا بحالهِ، وقد يؤدي ذلك إلى إصابتهِ بأمراضٍ أخرى تنجم بسبب التجاهل والتعامل الدوني معه.

## تغيير خريطة الجسد

ومن ذلك كله فالجسد في حالة المرض يصبح جسدًا باليًا يحتاج إلى علاجات أو ترميمات تعيد له بشكلٍ أو بآخر نضارته، وعلى الأقل ليسمح للشخص بالاندماج مرة أخرى في المجتمع، إذ يتعرض كثير من البشر إلى من يجبرهم على فقدان أعضاء من أجسادهم مثلاً؛ الأمر الذي يجعلهم يدخلون في دوامة مواءمة حالتهم الجديدة مع الجو الاجتماعي السائد، وعدم الإحساس بالتهميش والإقصاء والدونية. وقد يلجأ البعض لتحسين صورتهم أمام الناس إلى ما يسمى بترقيع وترميم الجسد، مثل عمليات التجميل التي يكون الغرض منها إعادة الأفراد بأجسادهم إلى الصف الاجتماعي بعاداتهِ ومظاهرهِ وتقاليدهِ.

وقد يُصاب الإنسان في جسدهِ فيصبح ذا جسد مُعاق أو منقوص لعدم وجود أو تلف أحد أو بعض أعضائه، التي قد لا تنهي الحياة عند عدم وجودها. وليس بالضرورة أن يفقد الإنسان جزءًا من أعضائه، أو يتعرض للتشويه الجسدي بسبب تعرضه لحادث أيًّا كان نوعه، سواء أكان بإرادة أم بغير قصد، وإنما قد يولد الإنسان وفي جسده بعض التشوهات الجسدية الولادية، أو فاقدًا لعضوٍ من أعضائه مثلاً. وهنا قد يدخل المتعرّض لمثل هكذا نوع من الحوادث إلى محاولاتٍ كبيرة منه لتغيير وضعه الجسدي للاندماج مع المجتمع، وخاصة إن كان يعيش في مجتمعٍ ينتقص كثيراً من أصحاب التشوهات وفاقدي أعضائهم، فقد يلجأ إلى بعض ما يعيد له نضارة جسده إن كان ذلك ممكنًا، على أن لا تكون كل الحالات هي قابلة للتغيير والترميم،





فهناك حالات لا ينفع معها شيء ولا يمكن إجراء تدخلات جراحية معها، كما إنه ليس كل من يجد نفسه وقد ولد أو تعرض لمثل هكذا وضع سيكون قادرًا على التغيير الجراحي لجسده، إذ قد لا تنفعه أي عمليات، كما إن هذه العمليات تتطلب أموالاً طائلة قد لا يستطيع الكثير توفيرها لإتمامها.

وقد يكون هناك من هم مصابون بمثل هكذا حالات، لكن ليست لديهم رغبة لإعادة النضارة لأجسادهم رغبةً في الصورة الجميلة كعامل رئيس، وإنما للإحساس بالعودة إلى المجتمع، على اعتبار أن ذلك الشخص يشعر أن المجتمع ينظر له نظرة تختلف عن الشخص العادي. وقد يوصم بأنه صاحب عاهة ويُنبذ ربما من كثير من الأمور الاجتماعية، لذلك قد يسعى لترميم ما يقدر عليه في جسدهِ ووفق ما هو مستطاع وبحسب الإمكانيات المادية المتوفرة له.

ووفقًا لذلك فقد تطورت التقنيات الطبية العاملة على التشريح الجسدي، وفي ما يعتري ذلك الجسد من إصابات أو محاولات لإعادة تشكيل صورته من جديد، ووفق ما تم التوصل إليه من ابتكارات في المجال الطبي الخاص به.

على أن لا ننسى أن مثل هذه العمليات اليوم لا تُقام فقط عند تأثر الجسد بعاهةٍ معينة، وإنما أيضًا من قبل من يحاولون تغيير خريطة جسدهم، وكما هو متعارف عليه في الأشياء التي تُحسّن صورة الجسد، وتضفي عليه نوعًا من النضارةِ والجمال، لشعور هؤلاء بأن للشكلِ دورًا كبيرًا في دمجهم بالمجتمع وبالحصول على المقبولية وعلى كل المستويات، والعكس من ذلك عند حدوث نقص أو خلل في أجسادهم، وما قد يؤدي إليه من نبذهم وشعورهم بالنقص والحرمان.

يمكن القول إن العمليات الجراحية التجميلية هي ليست حديثة العهد، حيث عُرفت بدايات الجراحة التجميلية في مدينة بومبي (Pompei) في حالات فقدان أجزاء من الجلد، مثلاً تهتّك جزء من الشفة السفلى، إذ كان الطبيب (celse) يقوم بعمل شقين أفقيين أسفل الشفة، ولا تزال هذه التقنية مستخدمة إلى الآن في الوقت الحاضر[1].

---

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 135.





وقد برزت فئات كثيرة من الأفراد في كثير من المجتمعات وبفعل تطور الطب التجميلي، تحاول الغور عميقًا في ما يسمى طب التجميل، الذي يتمثل بأجراء عمليات جراحية قد لا تكون ضرورية نوعًا ما، كما يحدث عند إجرائها لأفراد يحتاجونها فعلاً لتعلقها بحياتهم، أو لجعلهم بشكلٍ أفضل في الحياة، وإنما برز من يقوم بها لأغراض الزينة، ربما من قبيل مثلاً تجميل الوجه، فقد تكون هناك صور وجوه جميلة، لكن أصحابها يحاولون أن يجمّلوا منها أكثر عبر هذهِ العمليات، مثلاً تجميل الأنف والفم، وشد الوجه وعمليات الشفتين والعيون، وشفط الدهون وغيرها من العمليات التجميلية، التي ظهرت ملائمة في كثير من الأحيان للموضة ومتطلبات العصرية.

**شكل(11) يوضح دور العمليات التجميلية في تغيير الجسد**



إن الطب التجميلي بات له رواج كبير جدًّا في شتى أنحاء العالم، ولا يقتصر على فئةٍ من البشرِ دون أخرى، إذ يشترك بها كلا الجنسين وبحسب ما يرونه مناسبًا لهم. كما تطور أطباء التجميل وذاعت أسماؤهم في هذا الشأن، وكل ذلك رغبة من الشخص في التلاعب بصورةِ جسده كيفما يريد، ووفق ما يراه مناسبًا لوضعهِ ومركزه ودرجة انجذاب الناس له.





**شكل (12) يوضح عملية شفط الدهون من جسد الإنسان**



ويمكن أن يظهر ذلك واضحًا من خلال القول إن الكل أصبح سيدًا لجسدهِ، وعبر ما يقوم به البشر من عمليات تجميلية من خلال التغذية والرياضة وغيرها[1]. ولنا أن نرى ذلك واضحًا من خلال ما يفعله الأفراد بأجسادهم إضافةً لعمليات التجميل، ألا وهو كيفية منح الجسد صورة أخرى، كأن تكون متناسبة مع البدن الرياضي، أو متناسبة مع مجال يحاول الظهور به ذلك الشخص، كأن يجعل جسده ضخمًا أو رياضيًّا، رشيقًا أو قويًّا ذا مطاولة كبيرة، وكل هذه محاولات لتغيير وتحسين وإعادة تشكيل صورة الجسد من جديد، لوظيفةٍ ما تتلاءم وطموحات وأفكار ومشروعات وطقوس الفرد والمجتمع الذي يحيا فيه.

لقد تم تثوير منظور الإنسان لجسدهِ، وقناعاته بمعالمهِ الخلقية، وبخاصةٍ إذا كانت مشوهة نوعًا ما، إذ يكون السعي جادًّا لتغيير الملامح السمجة بأخرى أكثر جماليةً منها أو مقبولة على الأقل، وقد يحدث ذلك لضروراتٍ لا مناص منها. مثلاً تعديل الأعضاء الجنسية المطمورة الذكورة أو الأنوثة، أو تحسين نبرة الصوت، أو إزالة الشعر الزائد وغيرها من الأمثلة[2].

---

(1) د. يوسف تيبس، مصدر سابق، ص 36.

(2) الزهرة إبراهيم، مصدر سابق، ص 88.





وفعلاً إن طب التجميل قد جعل من الأجساد مادة مرنة ممكن التصرف في بعض ملامحها بشكلٍ يعيد رونق ذلك الجسد، وينتج صورة أخرى تختلف عن سابقتها، في حين أن مثل هكذا إجراءات طبية حديثة لم تكن معروفة في الأزمنة السحيقة إلا بأساليبها البدائية ربما، وإنما تراكم المعرفة العلمية والطبية جعلت منها أكثر اتساعًا في تناول الجسد كمادة للتحوير والترميم والترقيع. وعلى إثر ذلك أبدع الطب التجميلي في إيجاد حلول كثيرة لأفراد متضررين جسديًّا، بسبب تشوهات أو إصابات لحقت بأجسادهم، وتمكنوا من إعادة صورتهم الجميلة للحياة. وأيضًا تفوقت عمليات التجميل في التفنن في ترميم الجسد، وابتكار أساليب أخرى أكثر تقنية تساعد الجسد على الاحتفاظ بصورتِهِ النضرة، أو الحصول على صورٍ أكثر إشراقًا من سابقتها.

على أن العمليات التجميلية تلك كانت ولا تزال لها الدور الأكبر في إعادة النضارة للأجساد الخارجة من عمليات جراحية، قد تكون على إثر حوادث معينة مثلاً، حيث يتطلب الأمر إعادة ترميم ذلك الجسد بعد إتمام العملية الداخلية عليه إلى إجراء واحدة أو بعض العمليات التجميلية على الأقل، لإعادة الجسد إلى ما كان عليه، وبحسب قدرة المريض على ذلك، وأيضًا وفق قدرة الطب على القيام بالأمر وملاءمته.

كما إن هذه العمليات الجراحية قد تعني أمرين، هما: أزمة هوية بمعانيها الشاملة من ناحية، والبحث عن النضارة والجمال الدائم والخوف من الموت من ناحية أخرى، إذ وفر الطب الجراحي التجميلي الحديث طرقًا ملائمة للجسد الإنساني ليبحث عن أنا جديدة يحبها تتلاءم مع ما يريد وما يبتغي[1].

فربما يحاول الإنسان سعيًا منه بتغيير ملامح جسده للوصول إلى أبهى صورة، من الممكن أن تجعله يدرك مساحات واسعة كان عصيًّا عليه أن يدركها بشكله السابق، وذلك يكون وفق مخيلات ذلك الإنسان واعتقاداته التي تحتم عليه ملاءمة شكله للواقع الذي يطمح الخوض فيه، ليحصل بعد ذلك على قالبٍ جسدي أو ملامح تمثل هوية جديدة له، ممكن أن يتنافس من خلالها مع معطيات العالم

(1) منى فياض، مصدر سابق، ص 137.





وتطوراته، حيث يمثل ذلك شأنًا كبيرًا بالنسبة لذلك الإنسان، ويمثل منعطف طرق بالنسبة لحياتهِ ومستقبلهِ وعيشهِ في الحياة.

وعلى أساس ذلك لم يعد الجسد بمأمن من أساليب تغيير حيثيات ذلك الجسد، فهو إضافة لما ذكر سابقًا من سلطات تفرض نفسها عليه، بات يتحوَّر ويتشكل وفق عدة صور تجميلية مُعدة طبيًّا يتحكم بها الإنسان، الغرض منها الارتقاء بالجسد إلى أعلى مراحل السمو والتطبيب النوعي.

## فعل الشيخوخة على الجسد

"إن عمل التقدم في السن هو المُذكِّر بموت يتقدم في سيرهِ عبر صمت الخلايا، ومن دون أن تكون هناك إمكانية لإيقافهِ، فالشخص المسن يتقدم نحو الموت ويجسد في نفسه الأمرين اللذين لا يسميان في العصر الحديث: التقدم في السن والموت. إن الشيخوخة والموت لهما بالفعل من المحرّمات (Des tabous) كما يقال غالبًا، فالمحرم ما زال له معنى في النسيج الاجتماعي، وهو يميل إلى حدود تبنى حولها هوية مشتركة للمجموعة، إلا أن الشيخوخة والموت لا يقومان بهذا الدور، إنهما مكانان للشذوذ، ويقعان اليوم خارج الميدان الرمزي الذي يعطي معاني وقيمًا للأعمال الاجتماعية: إنهما يُجسدان عدم قابلية الجسد للاختزال"[1].

وعندما يمر جسد الإنسان بمرحلة الشيخوخة والتقادم في السن، يصبح لذلك انعكاس في المجتمع بكافة عملياته وأنماطه التي يشارك فيها ذلك الإنسان، إذ إن عطاء وقابلية الجسد عندما كان في مقتبل العمر يختلف عن قابليتهِ وعطائهِ عند التقدّم في السن، ومنها يبدأ صاحب الجسد بالتفكير بكيفية أن حياته قد دخلت في بداية النهاية، وما قد يفعله ذلك من انتكاس للشخص، وشعور بالعزلة والغربة والخوف، وبالتالي قصور في إمكانيات ذلك الشخص.

ولا يعترف تقدّم السن أو الكهولة أو الشيخوخة بشيءٍ اسمه الفرق بين الرجال والإناث، فكلا الجنسين يمرَّان بهذهِ المرحلة الحتمية إن طال به العمر. وبمعنى آخر إن الإنسان آخر مراحل حياته هي وصوله إلى مرحلة الشيخوخة، وهي المرحلة التي تُعد

---

(1) دافيد لو بروتون، مصدر سابق، ص 141.





من المراحل الأكثر أهمية في حياة الإنسان، إذ يبدأ الإنسان الكهل بالشعور بأنه في خريفِ عمرِه، وبأنه قد دخل مرحلة جديدة من الحياة، وأنه وفقًا لهذه المرحلة يجب أن يتعامل مع ذاتهِ والآخرين بنوعٍ من التحفّظ حول موقعه الجديد، وكيفية شعوره حيال تقبل المجتمع له، وماذا عليه أن يفعل في مواجهة وضعهِ الجديد الذي أصبح عليه.

ولعل التقدّم في السن ووصول مراحل الشيخوخة هو سيرورة غير محسوسة، فالإنسان ينزلق من يوم لآخر بمرونةٍ دون أن يشعر، ويبرز ذلك في وجه الإنسان وجسده، فتضعف عضلاته وتقل الطاقة، وتحدث عدة تغيرات في جسده[1]، إذ يمكن القول إن الجسد الإنساني لا ينصاع لصاحبه من ناحية تقدم السن، فلا يستطيع الإنسان إيقاف التقدم في السن، فدخوله الشيخوخة إن طال عمره هو أمر حتمي ولا يمكن الخلاص منه، وبذلك تظهر الصورة وكأنما جسده يهرب منه أو يتحطم أمامه بفعل مؤثرات الأيام وما نحتتها عليه.

وهنا تتحطم كل سلطات الإنسان تجاه جسده في قابليته على التحكم به والعودة به إلى مراحل الشباب، فالجسد وفقًا لقوانين الطبيعة يصل إلى مرحلة أخيرة من مراحل وجوده في الحياة، لذلك يبدأ ذلك الجسد بالضعف والتراجع صحيًّا، وفقدان القدرة على المقاومة التي كان يتمتع بها عندما كان في أولى مراحل حياتهِ، ومن هنا يبدأ الفرد الشعور بأن جسده الذي لطالما كان يخضعه لعددٍ من سلطاتهِ اليوم، بات خارجًا عن نطاق السيطرة عليه عندما يصل إلى مرحلةِ الشيخوخة، التي تفرض عليه شكلاً وصورةً تختلف عن سابقتها من الصور.

ولعل الحالة التي يدخلها الشخص الهرم أو الذي وصل إلى مرحلة الشيخوخة هي حالة لا يُحسد عليها، إذ يبدأ بالشعور أنه تارك الحياة ومفارقها في أي لحظة، ويشعر أن أهليته وأهميته في الحياة قد تناقصت بفعل تناقص واضمحلال جسده شيئًا فشيئًا، والدليل على ذلك عدم قدرتهِ على إتمام ممارساته وأعماله بشكلٍ يناسب قوة جسده وعطائه، فربما يكون صاحب جسد منهك معلول قد استهلك كثيرًا بفعل صور الحياة المختلفة؛ الأمر الذي قد يدفع ببعض الأفراد المسنين إلى الشعور بأنهم

---

(1) المصدر نفسه، ص 144.





أصبحوا ثقلاً أو عالة على أنفسهم ذاتها وعلى ذويهم، فباتوا مع هذه المرحلة خاليي الوفاض في القدرةِ على تشكيل أو إعادة الجسد لرونقهِ من جديد، فقد يُحسّن الشخص الهرم من جسدهِ بعض الشيء ببعض المواد الطبية والتجميلية، لكن تقدّم العمر لا يعترف بذلك، ولا يترك له مجالاً للمساومة.

ولعل هذا الشعور الذي قد ينتاب الشخص المسن ربما يبدأ بتحطيم ذلك الشخص، ويجعله فعلاً يعيش حالة من اليأس التي قد تجعله حاضنة لكثير من الأمراض التي تؤثر عليه، فقد يشعر بأنه بات لا نفع منه، وبأن أدواره بدأت تُهمش شيئًا فشيئًا بسبب تناقص قدرته على العمل، وعدم امتلاكه الطاقة المناسبة التي تجعله يعيد أيام شبابهِ، وربما يؤمن بأن هذه هي سنّة الحياة ويجب عليه تقبلها.

إن وصول الجسد لمرحلة يصبح فيها باليًا يقلّص دور وفعالية ذلك الجسد الذي عقد الإنسان عليه الآمال الكثيرة لإدامة الحياة، فشيخوخة الجسد تُترجم اجتماعيًّا بنقص القدرة وعدم المواكبة والفناء، وتناقص الفاعلية والانسلاخ من الوسط الاجتماعي بصورة لا يدركها الإنسان الهرم ذاته، وإنما مجريات الأيام حتّمت عليه ذلك وأبعدته تلقائيًّا عن لب العمل الاجتماعي ومساهمات الحياة.

فالتقدّم في السن هو انتكاسة حقيقية للجسد الإنساني، إذ تعمل الشيخوخة عمل القاتل الصامت الذي يوصل الجسد إلى مرحلة لا يستطيع معها التجاوب بشكلٍ كبير مع الحياة، لضعف ونقص قابلية الجسد على العمل الجدي، بسبب انهاك الجسد بمؤثرات وتقلبات حياة الإنسان.

وتعمل الشيخوخة عملها في إرهاق الجسد وإلباسه لباس الضعف وعدم القدرة على المواصلة في ميدان الحياة، وهي بذلك تمثل القدر الحتمي الذي لا ينفذ منه أي جسد قد طال به العمر، وعنها يبدأ الإنسان برؤية جسده كيف يذوب وكيف يصبح مُنهكًا ضعيفًا وصريعًا لمؤثرات المرض، وصور الوضع الجديد الذي يكون عليه.

ومن المؤكد أن الشخص المُسن ينظر له الناس نظرة تختلف عن غيره من الآخرين، إذ قد يُنظر له على أنه صاحب الخبرات والإرث والمعرفة، وقد وصل إلى مرحلة الراحة التي لا يجب معها إرهاقه بأي شيء، وذلك بحد ذاتهِ سلخه من ميدان العمل في الحياة، وذلك نتيجة طبيعية لأن الجسد المتقدم في السن لا يتشابه مع





الصغير في السن، وذلك من ناحية القدرات والقابليات والقوة والتحمل، وذلك الجسد الهرم قد نفدت طاقته بسبب مؤثرات الحياة وطبيعتها، والفترة الزمنية التي مرَّت على ذلك الجسد، وهي كفيلة بشكلٍ واسع بجعلهِ مُتعبًا غير قادر على المداومة بصورةٍ طبيعية في الحياة، نتيجة استهلاك جسدهِ بصورِ الحياة المختلفة.

وقد برزت عدة تسميات تصف المرحلة التي يصل بها الإنسان إلى عمر متقدم، منها الشيخوخة، أو التقدم في السن، أو الكهولة، أو سن اليأس، على اعتبار أن الشخص في هذا العمر يبدأ بالشعور باليأس الذي يُخيّم عليه بسبب انتهاء دوره في الحياة، وبدء مرحلة أخيرة من حياتهِ متمثلة بالشيخوخة.

فليس وحده المرض من يجعل الجسد باليًا، وإنما الشيخوخة أيضًا تفرض على الجسد صورة بالية لا تشير إلى جسدٍ حيوي قادر على أداء جميع أدواره بالشكل المطلوب منه وبكل قوة، وإنما جسد قد وصل إلى مرحلة البؤس والضعف والذي قد أنهكته الحياة ولا جدوى منه، وبذلك تتمثل كل تجارب الحياة في ذلك الجسد المسن، وبات يمثل خريطة لكل الأحداث التي مرَّت عليه وشهدها جسده.

**شكل (13) يوضح مراحل الحياة التي يمر بها جسد الإنسان**



ومن ذلك نصل إلى حقيقة مهمة، وهي أن الجسد هو المُستقبل لما يفرضه عليه المجتمع، وهو الذي يتحمل المرض والترميم والترقيع، ويصبح باليًا بالشيخوخة والهرم، مع بقاء الإصرار والطموح في داخل الذات التي يحتضنها الجسد نفسه،





وبذلك يكون الجسد عبارة عن سيرة حياة كل شخص يجسّدها ذلك الجسد الذي يمتلكه والتجارب المنحوتة عليها، والتي تحمّلها الجسد وخارت قواه على أساسها، ويضم في أعماقهِ الكثير من الخبرات التي انتابته والتي مرَّت عليه.





الفصل السابع

# الجسد المهزوم والمقموع اجتماعيًّا






مكتبة
التنوير

عندما يتعرض جسد الإنسان لانتكاساتٍ عدة، منها المرض وعدم قدرته على مواكبة الحياة الطبيعية، وآخرها الموت الذي يلغي الوجود الجسدي الإنساني، عند ذلك يُهزم الجسد ونذهب إلى نتيجةٍ منطقية، وهي أن الجسد ينشأ ويبلغ شاء أم أبى، حتى وإن كان صحيحًا خاليًا من العلل، سيصل إلى الموت الذي يعد خاتمة كل إنسان، وبالتالي فالجسد الإنساني سيتعرّض إلى الانهزام الذي يُكتب على يد الموت، ويفنيه من الحياة بصورةٍ مادية توضّح انهيار الجسد، وانتهاء حياة الإنسان، وبالتالي تخرج الروح عن ذلك الجسد فيبقى كيانًا هامدًا يتعرّض لكل التحولات الطبيعية التي يتعرَّض لها أي كيان بعد موته.

إن كل ما تعرّض له لجسد خلال سنوات حياته يمثل أحداثًا نُقشت عليه، وقد مر عليه خلال هذه الفترات ما قوَّم ذلك الجسد وما هدَّم بناءه، أي بمعنى آخر تعرّض الجسد إلى القمع عند تعرضه لكثيرٍ من الأحداث في حياتهِ، وبان ذلك واضحًا على جسده والصور التي يظهر بها، إذ إن هناك ما يهزم الجسد وهناك ما يقمعه، وفي كلا الحالتين يتعرض الجسد إلى صورٍ لا يُحسد عليها.

إن الأمر بات لا يقتصر على بعض الأحداث التي تهزم الجسد إما بحالةٍ دائمية أو وقتية، مثل تعرض الجسد للمرض، وإنما هناك حالات أخرى تفني ذلك الجسد وتقوّض وجوده بشكلٍ كبير. إن تعرّض الجسد للمرض يدخله في دوامة القمع والانهزام، إذ يتمثل القمع بالمرض ذاته وكيف يمارس سلطاته على قهر الجسد وإضعافه، ويتمثل الانهزام بالحالات التي ينهزم الجسد فيها أمام المرض، من خلال عدم نفع العلاج الذي من المؤمل أن يكبح المرض ويوقف تقدمه، وعند هذه الحالة قد ينهزم الجسد نهائيًا عند وصوله إلى مرحلةٍ نهائية وحتمية للانهزام وهي مرحلة الموت، ولا يمكن أن توجد مرحلة قاهرة للجسد ومُنهية له مثل مرحلة الموت التي يمر بها.





## موت الجسد

لا يمكن لأي مجتمع من المجتمعات بأفراده أن ينكر مرور الموت به في أي لحظة، وفي كل الفترات الزمنية وما زال مستمرًّا، فمن ضمن مراحل دورة حياة الإنسان هي وصوله إلى مرحلةٍ أخيرة، وهي مرحلة الفناء التي على أساسها تتوقف كل عمليات الإنسان الحياتية ونشاطاته واهتماماته وحركاته، ويموت جسده ليختفي بعد ذلك ماديًّا عن الحياة.

وقد اختلفت النظرة إلى الموت من ثقافةٍ إلى أخرى ومن فترةٍ زمنية إلى أخرى، واختلفت معها الطرق التي يموت بها الجسد الإنساني، وبالتالي الإنسان ككيان مساهم في حياته في المجتمع، فالموت ليس بمجيئه أو وقوعه كفيلاً بتجاوز الفرد لمراحل حياته المتعددة، ووصوله إلى مرحلة الشيخوخة ومن ثم إلى النهاية المتمثلة بالموت، وإنما قد يموت الإنسان وبالتالي جسده الإنساني في أي مرحلة عمرية معينة، سواء بعارضٍ معين أو مرض أو ما إلى ذلك. لكن دورة حياة الإنسان الاعتيادية تنتقل من مرحلة عمرية لأخرى، إلى أن يصل إلى مرحلة تقدم السن التي لا يأتي بعدها إلا الموت، حيث يضعف الجسد الإنساني كثيرًا في مرحلة الشيخوخة، ويصاب بالضمور في كثير من قابلياته وقدراته الذكائية والمعرفية وتعاملات الحياة، ويصبح لا يقوى على الاتساق بشكلٍ منتظم في الحياة، إلى أن يبلى بشكلٍ أكبر فيجد أمامه الموت الذي هو نتيجة حتمية له ولوضعهِ.

كما اختلفت الثقافات أيضًا في طريقة تقبّلها للموت وفي عدّهِ أمرًا حتميًّا أم لا، وطُرحت كثير من الأمور بهذا الشأن، وظهرت عدة صور للمجتمعات في طرقِ التعامل مع الأموات من خلال إيداعهم العالم الآخر، وكيفية التصرف بالجسد. فهناك شعوب تقوم مثلاً بتحنيط الأجساد بعد خروج الروح منها وموتها، وتستخدم لذلك عدة مواد تصنعها بنفسها، وكان ذلك شائعًا في فتراتٍ زمنية قديمة؛ اعتزازًا منهم ببقاء الجسد دون مفارقته أو إلحاق الأذى به أو اضمحلاله.

وأخرى تقوم بالتعامل مع الجسد من خلال حرقه بعد موته، في عدةِ أنواع من الطقوس الخاصة؛ إيمانًا منهم بإرضاء الجسد والروح، وبالتالي الإنسان الذي مات، ثم يقومون بنثر رماد جسده في مكانٍ معين متفق عليه بشكلٍ طقسي من قبلهم.





وهناك من يقوم -وهذا هو الغالب- بدفن الجسد بعد خروج الروح عنها وبعدة طرق في الدفن، تنوعت على أساسها الشعوب في ذلك، وما زالت هذه الطرق معمولاً بها إلى أيامنا هذه وستستمر.

أيضًا ليس كل جسد بشري يموت يدفن أو يتم التمكن من دفنه، فليس كل حالات الموت تسمح بدفن الجسد، فقد تؤدي حوادث معينة مثل الحروب، أو حوادث حياتية خاصة أو غيرها، إلى تمزق الجسد واختفائه أو تناثره، وبالتالي فهو قد مات لكن لم يعثر له على شيء جسدي مادي ليدفن.

"فالموت حادث من نوع مختلف تمامًا، إنه حادث الحوادث، ليس مثلها جميعًا، إنه بالنسبة لنا أو لغيرنا حادث عنيف يكسر إيقاع الحياة الرتيب نسبيًّا، وليس هذا فقط، بل إنه يوقف دورتها، ويجعلها تقف عند تأريخ يستحيل أن تتحرك بعده، ولا تتقدم قيد أنملة عنه، فإذا كانت في الحياة الدنيا للإنسان حوادث مهمة، فإن الموت آخرها وأهمها ومنهيها"[1].

ويمكن أن يكون الموت الحد الفاصل الذي يوقف كل توقعات وحركات الحياة الفردية، ونهاية لكل طموحها في البقاء؛ فالموت يهزم الجسد بقطع علاقته بالروح ويفنيه من الحياة، التي تقوم بدورها بممارسة كل التحولات التي تقام على الجسد.

ولما كان الموت يضع حدًّا نهائيًّا لكيان اسمه الإنسان، بما يشتمل عليه ذلك الكيان من تجارب حياتية وعلاقات وتفاعلات، وتاريخ يُنحت على جسد ذلك الإنسان، لذلك فإن حدوثه للإنسان يشكل أهم وأعنف حدث يقع عليه أو يصاب به الآخرين من جنسهِ، إذ إن موت الإنسان هو ليس مجرد اختفاء ذلك الإنسان بجسدهِ، إذ قد تبقى ذكراه وتبقى كل منجزاته وأعماله، ولكن الأمر له أبعاد معنوية تتعلق بعواطف الإنسان ذاته، فاختفاء الإنسان وفناؤه يشكّل فراغًا لأسرتهِ وتوقف أنماط حياته في المركز الذي يشغله في داره وعمله والوسط الذي يعيش فيه.

---

(1) د. أحمد محمد عبد الخالق، **قلق الموت**، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 111، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987، ص 16.

كما إنه يمثل انتهاء عطاء ذلك الإنسان إن كان له عطاء، وتوقفه عند حدود بقائه ووجوده في الحياة فقط.

وهناك من اعتقد أن الموت هو وزر ورحمة في آن واحد، فهذا "هانس جوناس" قد اعتبره بهذه الصورة، حيث إنه وزر لأنه ممكن أن ينهي الجسد بأي وقت، ويذهب بسلامٍ إلى العالم الآخر، ورحمة للإنسان لأنه بحاجة للموت في يومٍ ما[1].

وربما يكون هذا التصور هو لدى الكثير في رؤية الموت وتصويره، فالموت يأتي مفاجئًا ويحط من آمال الناس، ولا توجد هناك إشارات مسبقة لمجيئه، فتلك أمور غيبية لا يعلمها إلا "الله" تعالى، وعندها تنتهي حياة الإنسان دون أن يمهله فترة لإتمام أو القيام بما خطط أو يريد القيام به مثلاً. وهو رحمة؛ فهو يجعل ذلك الجسد يحصل على الراحة الأبدية، والروح تعرج إلى الأعلى لتلقى مصيرها هناك. إذ إنه يمثل الصورة الأبشع التي تواجه كل ما هو جميل في الحياة، إذ على أساسه ينتهي عمل الإنسان في تلك الحياة، وبذلك فهو يمثل صدمة ونقيضًا لقوانين الوجود، وربما يُعد الموت القاهر الأكبر للإنسان، والذي لا يستطيع معه من الوقوف ضده أو الدفاع عن نفسهِ من سلطتهِ؛ لأنه حينها يكون قد انتهت حياته وقضى عليها الموت، وبقي جسده خاليًا من أي روح وحركة تُقام على أساسها، ليذهب إلى مصيرهِ المحتوم وهو الاندماج على شكلِ ذرَّات في الأرضِ إن دُفن.

ولعل الموت ما هو إلا احتكام الجسد وخضوعه مرة أخرى لقوانين الطبيعة من خلال تحلله ودخوله طور الفناء[2]، إذ إن بقاء الجسد دون إدخاله الأرض ودفنه فيها بعد الموت أو خروج الروح منه، يجعل منه عرضة للتعفن والتحلل؛ لأن الجسد في هذه الحالة قد توقفت كل العمليات التي كانت تحافظ على بنائهِ ونموه واستمراره في الحياة، وعندما يُدفن الجسد ويختفي شكله عن الحياة أيضًا يخضع داخل الأرض إلى عمليات التحلل، ويذوب الجسد ليندمج بدقائق الأرض مرة أخرى.

---

(1) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 39-40.

(2) د. عز العرب لحكيم بناني، مصدر سابق، ص 97.





ولعل هناك ثلاث مراحل للموت تتمثل بـ[1]:

أولاً: الموت الظاهري: وفيه يتوقف تنفس جسد الإنسان، ويصاحبه تقلص ملحوظ في نبضات القلب حتى تصبح خفية وغير محسوسة.

ثانيًا: الموت النسبي: حيث تتوقف الدورة الدموية فيه.

ثالثًا: الموت النهائي: حيث يموت المخ عند هذه المرحلة، وتبعًا لذلك يموت الشخص نهائيًا.

فبعد أن كان الجسد في حياتهِ يخضع لسلطات وقوانين الحياة، أيضًا بعد مماته يبقى خاضعًا لقوانين طبيعية لا قوة له على ردها؛ فهذه القوانين تتحكم أيضًا في شكلهِ وصورتهِ بعد الموت، ولا نقصد بذلك أن تتكون له صورة جديدة بعد انتهاء الحياة الخاصة به، أي يخرج بشكلٍ آخر، وإنما يتحول الجسد إلى صورةٍ أخرى متمثلة بتحللهِ وذوبانهِ وتفسّخهِ، دون أن يكون للجسد أي سلطة خاصة به للحفاظ على شكلهِ المعهود؛ لأنه لم تعد لديه أي قدرة على ذلك.

ولو أجرينا مقارنة بين مرض الجسد وموته، لوجدنا رغم أن المرض الذي يُصيب الجسد وخاصة الأمراض الخطرة جدًّا، والتي قد تنهك الجسد وتجعله معلولاً ومنتكسًا ليس له أي دور في الحياة بتوقعاتها المعروفة، فإن لم يؤد ذلك المرض إلى الموت، يبقى الجسد يحمل هذا المرض لكنه على قيد الحياة، إلا أنه يختلف عن الموت الذي يُعد صدمة أكبر من المرض؛ لأنه سلخ الإنسان بكل كيانه وجسده بصورةٍ أخص، لأنه هو الذي يكون ظاهرًا ومتعاملاً معه، سلخه من أساس الوجود وهو الحياة، وبالتالي تموت الروح ويموت البشر معها، ويختفي الوجود الإنساني فيزيقيًّا وصوريًّا، ويبقى تاريخ وذكريات ذلك الإنسان فقط، ولا تبقى هذه الصور التي تُذكر بها الأجساد الفانية إلا عند الأجساد الأخرى التي ما زالت حية.

وأيضًا عندما تموت هذه الأجساد تبقى صورها عند أجساد أخرى وهكذا، أي التذكّر على أساس الوجود المادي للجسد وكيف كان، وأصبح ليس بإمكان أي فرد أن يرى صورة أخرى لجسدٍ بعد انتهاء الروح منها وتفسخها وانتهائها، إذ تصبح دون وجود مادي ملموس.

---

(1) سمية بيدوع، مصدر سابق، ص 38-39.





## الموت وانسلاخ الأدوار الاجتماعية

إن موت الإنسان وبالمحصلة الأخيرة موت جسده وفنائه في الحياة لا يُمثل حدثًا عابرًا، على الرغم من أن تلك الواقعة هي المصير الحتمي والنهائي لكل إنسان، إلا أنه يمثل وقعًا شديدًا بالنسبة لحياة الذين بقوا على قيد الحياة، فالموت يترك من ورائه علاقات وتفاعلات قد أنشأها الإنسان في حياتِه، وبنى لنفسهِ حدودًا يتحرك وفقها، وبالتالي قد أنشأ عالمه الخاص به، والذي يرتبط مع الكثير ممن حوله، لذا فموت الإنسان واختفاء جسده يعد خللاً في أساسات حياته وحياة من حوله، حيث يجب عليهم التكيف لسد فراغ انتهاء وجوده.

فنحن نعلم أن المجتمعات بُنيت على أساس أفرادها، وموت هؤلاء الأفراد يُعد خسارة كبيرة لهذهِ المجتمعات، فلا يمكن تعويض وجودهم إلا بإعداد أفراد آخرين يتناسبون مع معطياتهم ومقدراتهم، هذا من زاوية المجتمع. أما من ناحية بيئة الفرد الذي يتعرض للموت، أي أسرته وأقرانه، فحقيقة أن الاسرة التي يموت الوالد فيها لا يمكن تعويض دوره ومكانته داخل هيكل الاسرة، وليس المقصود عدم القدرة على التعويض هي العجز عن تأدية كثير من أدوار الأب، إذ قد تؤدي كثيرًا من أدواره، لكن هناك أدوار لا يمكن لأحد أن يؤديها أي أحد في الأسرة دون الأب ذاته، ولا يمكن تعويض درجة القرابة ذاتها والإحساس بالأبوّة أو الأمومة أيضًا.

هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر فقدان أحد الوالدين قد يؤدي إلى فقدان العلاقة التي على أساسها قد أسَّسوا أسرة، ولا يمكن لأب مثلاً أن يُعوّض فقدان زوجته بموتها إلا بالزواج الآخر مثلاً، والذي قد لا يُعوّض مكانة الزوجة الأولى وبالخصوص لأبنائها. وكذا الحال بالنسبة للأم، إذ لا يمكن لها تعويض غياب زوجها عنها، والإحساس بمكانتهِ وخاصةً عندما لا ترغب بالزواج مرة أخرى؛ فتبقى تشعر بالفراغ الذي ولَّده موت الزوج.

وينطبق الأمر أيضًا على موت أحد أفراد الأسرة أيضًا، فلا يمكن أن يُمارس دور أي فرد في الأسرة من قبل فردٍ آخر، كأن يُمارس دور الأب المتوفى مثلاً من قبل الأم، وإن نجحت في كثير من الحالات إلا أن هناك محاور تتوقف عندها الأم، ولا تستطيع معها أداءها، وهي متعلقة بالأب ذاته وليس لأحد القدرة على أدائها، أو ممارسة دور





الأم المتوفية وغيرها من الأدوار؛ مما يعني أن للمتوفى مكانة وموضعًا قد لا يُعوّض في كثيرٍ من الحالات، لبناء الحياة على أساس أدواره سواء أكانت حياته أم حياة أسرته أم المكان الذي يعمل فيه، إذ إن موت الفرد يترك فراغًا يحتاج معه الأفراد الآخرون المحيطون به والمتعاملون معه أن يتكيَّفوا مرة أخرى مع الوضع الجديد الذي يكون بدونه، وكيف يتأقلمون مع الأدوار التي تركها المتوفى.

ويفترض بيتر بيرجر (Peter Berger) أن الموت هو سمة أساسية للظرف الجسدي، حيث يتطلب من الناس تطوير آليات من أجل التكيّف معها، حيث إن التغاضي عن الموت يشبه كأنما التغاضي عن مسلَّمة أساسية في دورة حياة جسد الإنسان[1].

وذلك إشارة إلى أن الإنسان يُفترض أن يعي وعيًا جادًّا بالموت، وأن يعلم أن نهايته الحتمية تكون به، لذا يُفترض أن يُكيّف حاله على أنهُ سيموت يومًا ما، وأنه ليس باقيًا بقاء أبديًّا، حيث يخل ذلك بالممارسات الاجتماعية والشرائع وقوانينها التي تسبغ شيئًا متعارفًا عليه، وهو أن الموت حليف كل إنسان.

وقد يعتقد البعض أن موت الفرد يعني خسارته هو وبعض من يحيط به فقط، وإنما الخسارة تكون عامة وخاصة، إذ كان الفرد الذي فقد حياته يُشكّل عمودًا مهمًّا في الحياة. على سبيل المثال إن موت المخترعين والمبتكرين والعلماء والمُنظرين والناس الأفاضل، يُشكّل صاعقة كبيرة من ناحية صعوبة تعويض الأدوار التي كانوا يقومون بها، أو الأمور التي صاغوا على أساسها الحياة.

لذلك عندما يحدث الموت فإن أهميته تكمن في تمزق الجسد الاجتماعي أكثر من كمونها في رحيل جسد الفرد، فالهوية أكثر تجذّرًا في الجماعة منها في الفرد، فالموت هو لا يُهدد الفرد بالقدر الذي يُهدد فيه المجتمع، حيث إنه يعني أن المجتمع فقد جزءًا منه أكثر مما يعني أن الفرد ذاته قد فقد المجتمع بذاته[2].

فالفرد هو جزء من كل اسمه المجتمع، بما يتضمنه ويحويه من علاقات وتفاعلات وأدوار وثقافة وتوطن وانتقال وعاطفة وسلوكيات وغيرها، ورحيله ككيان لا يتمثل بتفتت واختفاء جسده فحسب، وإنما اقتطاع جزء من ذلك المجتمع، والذي قد

---

(1) كرس شلنج، مصدر سابق، ص 229 - 230.

(2) المصدر نفسه، ص 245.





بعوّضه في القادم من البشر أم لا، وذلك يتوقف على نوعية ذلك الإنسان الذي قد مات وموقعه في المجتمع وأهميته.

لكن ذلك لا يعني أن الإنسان الذي يموت قد لا يمثل خسارة لقيمتهِ ومكانتهِ هو، فالموت يمثل توقفًا وانتهاءً لعطائهِ وتفاعلهِ وامتدادات حياته مع الآخرين، لذلك هو يخسر ذلك الجانب، لكن قياسًا بمن يضمّه وهو المجتمع، فالأمر يمثل خسارة أكبر يترتب عليها بحث المجتمع عن كيان إنساني آخر يعوّض الذي غيَّبه الموت.

ويقينًا لا يعني أن انتهاء الأدوار رهن فقط بموت الجسد، فقد يتعرض الجسد للمرض الذي قد يُنهي أو يُقلّص أدواره أو قد يمارسها كما كان، إلا أن الموت يقضي نهائيًا على كل دور كان يقوم به الفرد، وهو في المحصلة الأخيرة يقصي الفرد عن كل أدواره، ثم ما يلبث بأن يقوم بإقصاء الجسد عن صورته وطبيعته التي اكتسبها من الحياة، والفترات العمرية التي عاشها فينهيه وفق القوانين الطبيعية الخاضع لها، وبذلك يبقى الجسد خاضعًا لأصول الحياة بسلطاتها وسلطات الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه، وكذلك لا يخرج عن طواعية الحياة إلى آخر مراحل حياته عندما يقبضه الموت، وإنما تتصرف به حسبما تريد.

## مقارنة موت الجسد بالروح

وفي ما يتعلق بالتصاق الروح بالجسد وأهمية كل منهما للآخر، فقد اختلفت وجهات النظر حول ذلك، فهناك من اعتقد أن السمو يكمن في الروح ولا قيمة للجسد، إلا في التواجد الفعلي في الحياة المادية، إذ أُعيرت الروح وبقاؤها أهمية كبيرة عند كثير من الشعوب، لذلك عند انتهاء الجسد أو موت الإنسان يظنون أن الروح باقية، ولم تنته بموتِ الجسد أو فنائه، وهذه تصورات مرتبطة بالشرائع الدينية وتفسيرات كيفية ذهاب الروح بعد فناء الجسد.

إلا أن ذلك لا يعني أن الجسد لا يحظى بأهمية كبيرة في احتضان الروح، فهناك من يعتقد أن الجسد هو أساس وجود الروح في الحياة، ولا يمكن للروح أن تسمو بدون الجسد وتفاعلات الحياة عليه، وما قد يصل إليه الجسد الإنساني عبر المراحل العمرية المختلفة التي يمر بها.





وقد يذكر بعض المعاصرين من أن الإنسان يواصل الحياة بعد الموت، إذ تكون روحه على هيئة شبح تستمر في الحياة، لذا فأبناء "تاسمانيا" و"ساموا" وقبائل الأينوس (Ainus) في شمال اليابان، يعتقدون بأن هناك حياة أخرى بعد الموت، يتكفل بها روح الإنسان وتستمر[1].

فمن جانب أن التركيز في اعتقادات هؤلاء على الروح يفضي إلى أن الجسد باعتقادهم مجرد واسطة لنقل أوامر الروح وما تريده، لذلك هم يؤمنون ببقاء الروح مع انتفاء الجسد عنها، إلا أن الجانب الآخر يؤكد أهمية الجسد في الوجود الإنساني، فالروح وحدها لا يمكن أن نثبت لها وجودًا ماديًّا في الحياة الإنسانية إلا من خلال الجسد، وهلاك الجسد يؤدي إلى تدمير أهم واسطة لتلك الحياة.

وقد تنوعت التوصيفات للروح، فهناك من عدَّها بأنها تبقى بصورة الشبح، وخاصة عند الذين لا يعتقدون بوجود الحياة الآخرة وما الذي يدور فيها هل هي الأجساد ذاتها أم الأرواح. وهناك من اعتبرها ذا قيمة وهي رأس مال الإنسان، وخصوصًا عند الشعوب التي تعتقد بوجود الحياة الآخرة، وكيف تتصرف بها الروح دون الجسد، أي إنها تنظر إلى الجسد بأنه الواسطة المهمة للروح في سريانها إلى الحياة الأخيرة.

وفي الحياة الإنسانية بوجودها المادي قد لا يُعير الفرد أهمية لبقاء الروح بعد الموت، بقدر ما يعترف بوجود وأهمية الجسد، فالإنسان حتى يعتقد أن الإنسان على قيد الحياة يفترض به أن يشاهده بجسدهِ وليس بروحهِ. وتلك هي أصول الوجود الإنساني وكيفية الحياة فيه، فمسيرة حياة ذلك الإنسان قد تنوعت ووصلت إلى ما هي عليه من خلال الوجود الجسدي الذي يحضن الروح في الحياة، فلا يمكن للإنسان أن يوجد بروح فقط في الحياة دون جسد، إذ تنتفي عند ذلك عنه صفة النوع الإنساني، الذي اقترن بالوجود الجسدي الذي تُقام الحياة على أساسهِ.

وحقيقة قد لا يموت الجسد الإنساني ومعه الروح في الحياة لمجرد بلوغ الإنسان مرحلة الشيخوخة، ويصبح الجسد باليًا ضعيفًا غير قادر على القيام بوظائفهِ بصورةٍ

---

(1) جاك شورون، **الموت في الفكر الغربي**، ترجمة: عادل يوسف حسين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 76، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984، ص 23.





دقيقة، أو يموت الجسد الإنساني نتيجة إصابته بأحد الأمراض التي تنهي حياته، وإنما قد يموت الإنسان ويموت جسده بالتالي حتى وان كان صغيرًا أو متوسطًا في العمر، وحتى أيضًا الأصحّاء يتعرضون إلى الموت، وعليه فالموت لا يتوقف عند سن معينة أو يأتي نتيجة سبب مرضي معين، وإنما هناك أجلٍ مسمى لكل إنسان يتحدد وفقه موته وانتهاء حياته وفناء جسده، وبالتالي صورته كوجود في الحياة.

ولما كان الموت يُحطّم أواصر كان قد أسس لها الإنسان الذي تعرّض له، ويقطع علاقات كانت قد نشأت وتأسست على أساسها نظم واتجاهات متعددة، إلا أنه في صورة أخرى يُعد الهازم الأكبر للجسد وللوجود الإنساني، فالحياة مرتبطة ببقاء الجسد الإنساني المتمثل بحياة الإنسان، لذلك فموت الإنسانية أجمع معناه نهاية الحياة والوجود الإنساني، ومهما فعل الجسد الإنساني وأسَّس ونظّم سينهزم أخيرًا بمحصلةٍ نهائية حتمية، ألا وهي الموت الذي ينهي وجوده ككيان مادي، ولا يعد له أي وجود يُذكر وفق التصورات والأشكال الإنسانية.

فالموت يقمع ويهزم النوع الإنساني، وحتى إن الإنسان قبل وصولهِ إلى مرحلةِ الموت يكون قد قُمع فكره، واقتنع بذلك سواء بتبريراتٍ دينية أو باعتبارهِ شرًّا لا بد منه، إذ إنه سيكون قد رصد في مخيلتهِ ومن ضمن ثقافته التي يعيش فيها بأنه سيصل عاجلاً أو آجلاً إلى الهازم الأكبر، ألا وهو الموت الذي سيوقف كل زحف الإنسان في الحياة، وسيضع حدًّا لكل أفكارهِ وتصوراته وأدواره من أن تتقدم، ولا يقتصر قمعه ذلك على تجريد الإنسان من حياتهِ، وإنما قمع الجسد وإلحاق الانهزام بهِ عندما يذوّبه ويُنهيه وفق قوانين الحياة.

## ما يقمع الجسد اجتماعيًّا

ولا يتعرض الجسد للانهزام الذي يلحقه به الموت فقط، وإنما قد يُقمع اجتماعيًّا في كثير من الحالات والأوضاع والسلطات، التي تُجبر وتُرغم ذلك الجسد على المثول لما يراد منه ووفق المصلحة المحدَّدة. وإن كنا قد تكلمنا عن الموت الذي يُعد القامع والهازم الأكبر للجسد الإنساني، فهناك أيضًا حالات عدة تعرّض على أساسها الجسد للقمع والانهزام، من خلال ما مورس عليه من قبل الفرد ذاته أو أسرته، أو





المجتمع بأعرافهِ وتقاليده وقوانينه من سلطاتٍ هزمت وأجبرت ذلك الجسد على المثول لما تريده، ووفق ما تجده ملائمًا لها.

إن الإنسان يجد جسده خاضعًا لكثير من الأمور التي لا يستطيع الخروج أو التغاضي عنها منذ ولادته وحتى مماته، أو وصوله إلى مرحلةٍ متقدمة من العمر، إذ يجد سلطات أسرته المشتملة على تربيتهِ وتنشئتهِ وتقويمهِ ليصبح فردًا ناضجًا في الحياة. ومن المؤكد سيكون للجسد نصيب كبير من هذه السلطات الأسرية، إلا أن ينتقل إلى سلطاتٍ أخرى تُمارس عليه في الحياة، يتمفصل على أساسها جسده وفق ما هو موجود ومنحوت في بيئتهِ التي يعيش فيها.

وكل تلك السلطات تُساهم بشكلٍ أو بآخر في قمع الجسد سواء من ناحية بنائهِ أو الإضرار به، فكلا الحالتين تتصرف خارج إرادة الجسد وما يبتغيه، إلى أن يصل إلى الموت الذي ينهي وجوده في الحياة التي كان يحيا فيها، باعتبارهِ آخر المراحل القامعة والهازمة للإنسان، والتي كان يعلم عنها مسبقًا من خلال ما تم ترسيبه في ثقافتهِ، وما وجد البشر أنهم مجبولون عليه في الموت الذي يمثل النهاية الحتمية لكل إنسان.

لذلك فالجسد الإنساني يحيا في حياةٍ اجتماعية تُمارس القمع عليه سواء كان هذا القمع لفائدتهِ، أي إنه يُضيّق الخناق عليه بالتربية والتعب والإجهاد للوصول إلى الطموحات التي تؤدي لبناء مستقبل الإنسان، أو القمع الذي يحطم ذلك الإنسان بالإضرار بجسدهِ بطريقةٍ أو بأخرى، تؤدي إلى شلّ كل مكونات حياته، وتحطيم مستقبله الذي يحاول البقاء والاستمرار في الحياة على أساسهِ.

## جسد المرأة المقموع اجتماعيًا

تختلف نظرة المجتمعات للمرأة وفق الثقافات التي نشأت عليها تلك المجتمعات، فمنذ القديم كان هناك جدل واسع حول المرأة ومكانتها وجسدها في المجتمع، فلم يكن يُنظر لها على أنها متساوية في كل شيء مع الرجل، بل فُرضت دونية المرأة بسبب طبيعتها البيولوجية وقوتها البدنية، التي غالبًا ما تكون أضعف من قوة الرجل. وعلى هذا الأساس بنت المجتمعات لها أساليب خاصة في التعامل مع المرأة، وربما جعلتها تحتل المرتبة الثانية بعد الرجل الذي وضعت له الصدارة في كل شيء.





إلا أن الوضع لم يبق على هذه الشاكلة؛ فبعد ظهور الأديان في العالم والتي اشتملت في كثير منها على عرض صورة المرأة، والكلام عن موقعها في المجتمع ومكانتها، ودرجة مساواتها مع الرجل، مع تحسين النظرة لها دون النظر لها نظرة تنقص من كيانها كإنسان، ومن ذلك بدأت الحياة تتغير وفقًا لتغير النظرة للمرأة، وإعادة النظر في موقعها وأدوارها، فبعد أن كانت لا تُمثّل إلا شيئًا ثانويًّا في الحياة، تم التركيز بشكلٍ كبير على أهمية المرأة، ليس لإدامة الحياة فقط والمحافظة عليها من أن لا تنقرض من خلال رفد المجتمع بأفرادهِ اللازمين له، وإنما ما تساهم به المرأة ككيان في إدامة وبناء المجتمع، حالها في ذلك حال الرجل.

إلا أن ذلك لا يعني أن قهر المرأة وقمعها قد انتهى بعد انتهاء عصور الظلم والحيف بمجيء الأديان السماوية، فما زالت هناك مجتمعات حتى الآن تُحيط المرأة بهالةٍ من الممنوعات، التي لا يتّسق معها الدين الذي تتبعه تلك المجتمعات، وعدّها بمنزلةٍ أدنى من الرجل، لذلك ينبغي عليها توقع واكتساب كل هذه الأدوار التي يفرضها عليها المجتمع؛ للحيلولة دون الخروج عن مُبتغيات المجتمع وثقافته التي نمَّط حياته على أساسها.

ومن ذلك برزت الصور الحقيقية التي تُظهر اضطهاد المرأة، واحتكار جسدها لأغراضٍ حياتية تروم المنفعة الذاتية فقط. وأخذت حالات التعرض لحرمة كيان المرأة بالسوء تنتشر بشكلٍ كبير مع تدني نظرة احترام الآخر المختلف جنسيًّا، والذي له دور كبير في استمرارية الحياة وبقائها.

فمن وأد الجنس الأنثوي في عصورٍ ما قبل الإسلام والجاهلية، إلى وأدها بطرقٍ متعددة من خلال تضييق حرياتها، والانتقاص الدائم منها وزجّها في كل ما يشير إلى النقص والرذيلة، وغيرها من الوضعيات التي همَّشت المرأة في كثيرٍ من المجتمعات.

ولعل جسد المرأة قد أخذ نصيبه الواسع من هذا التمييز الذي جعل المرأة قاب قوسين أو أدنى من الحصول على الحريات المفروضة، فهذا الجسد قد اختلفت النظرة إليه من ثقافة لأخرى، وتنوعت الآراء حوله، وكيفية الحفاظ عليه، أو ماذا يمكن أن يُعد ككيان يختلف عن الرجل.





لقد بات جسد المرأة يُستثمر بقوةٍ في مجالات الموضة والإشهار والإعلانات والملابس والاكسسوارات، ومعاهد التغذية والتجميل والنحافة وغيرها من الأمور الأخرى[1].

ففي كثير من الموارد والحالات استُخدم جسد المرأة للتعبير عن مقصدٍ معين، وذلك المقصد دائمًا ما يكون هو تحقيق المكاسب الشخصية، على حساب المتاجرة بجسد المرأة، وإظهارها بشكل لا يتلاءم مع كثير من الأعراف والقوانين الاجتماعية. ولما كان ذلك الهدف منه هو الحصول على الأرباح الطائلة من خلال استخدام جسد المرأة، إلا أنه في الجانب الآخر قد مثَّل قمعًا اجتماعيًّا لجسد المرأة، فبدلاً من أن يُصان هذا الجسد وتكون له منزلته الخاصة به، أصبح مُروَّجًا به للحصول على منافعٍ وأموالٍ كثيرة، أي إنه استُخدِم كوسيلة لتحقيق غاياتهم الربحية، دون الإحساس بهذا الكيان الذي يستحق احترامًا أكثر.

كما إن التركيبة البيولوجية لجسد المرأة حتَّمت عليها الالتزام بأعراف وعادات وقوانين اجتماعية، ولا يمكن لها الخروج عنها، إذ إنها بتركيبتها تخالف الرجل في تركيبته ببعض الأعضاء. وعلى هذا الأساس قد بنت كثير من المجتمعات وبطريقةٍ جاهلة تصورات عن عدم أهلية جسد المرأة، وانتقاصه بالقياس إلى جسدِ الرجل، الأمر الذي جعل جسد المرأة مقموعًا أكثر من ناحية حدود حركة ذلك الجسد وتصرفاته وتفاعله وعلاقاته، ومدى تواجده في الوسط الإنساني.

فالهيمنة الذكورية التي تنظر إلى المرأة نظرة خاصة، وذات اعتبارات معينة ورمزية، جعلت منها في حالة دائمة من عدم الأمان الجسدي والتبعية الرمزية[2]، وذلك واضح في امتهان جسد المرأة، وجعله في المرتبة الثانية بعد الرجل؛ الأمر الذي جعل المرأة كيانًا ذا جسد أضعف وأقل قابلية وأقل مطاولة وتحمل من الرجل، لذا لا توكل لها كثير من الأمور وتترك للرجل، ليس فقط لعدم قابلية المرأة على القيام بها مثلاً، وإنما لقمع المرأة المستمر في الحياة.

---

(1) بحاج عسو، الجسد بين اللغة وآليات الضبط والإخضاع، مقال منشور على شبكة الإنترنت: *www.aljabriabed.net/n83_03assou.(1).htm.*

(2) بيير بورديو، مصدر سابق، ص 103.





وكذلك تبرز المقارنة بين الذكورة والأنوثة في أشكالِ استخدام الجسد، فالرجل له الصدارة دائمًا في المشي مستقيمًا رافعًا رأسه، والمرأة تفرض عليها الحشمة أن تمشي منخفضة الرأس، وغيرها من الأمور[1]. وكثير من المجتمعات تعد جسد المرأة حرمة لا يجب تدنيسها. وقد كانت هناك تصورات بحرمة الجسد الأنثوي، إلا أن ذلك لا يتطابق مع التقدير والمنزلة التي تحصل عليها المرأة، فالحرمة قد تأتي لأن الإشارة لجسد المرأة يُعد عيبًا، وليس مثلاً لسموهِ ومكانتهِ في الحياة، وكأنما المرأة بجسدها مروَّضة على الحياة، ولا تريد تلك المجتمعات بثقافاتها حتى الكلام أو التفاخر به، وانما يُستهجن الكلام عنها في كثير من أعراف المجتمعات، لعدّها هي عيبًا بذاتهِ، ولا يمكن إقران المجتمع بذلك العيب.

فكثير من الأعراف حتَّمت على المجتمعات أن تتعامل مع جسد المرأة على أنه مجرد وعاء للإنجاب، لذلك لا تعترف بهذا الكيان بأن له حقوقًا ومساواة مع الفرد الآخر، ألا وهو الذكر أو الرجل، لذلك كثيرًا ما نلحظ أن هناك أفرادًا يعاملون المرأة وكأنها شر لا بد منه. ومن صور النظرة القاصرة لها أن كلامها أو صوتها غير مسموع عندهم، وإن مشت مع الرجال فيجب أن تتأخر القافلة لأن الرجل حسب اعتقاداتهم أفضل نوعًا منها، وليس لها الحق بأن تتصرف وفق الشرع الديني، وإنما وفق العرف العشائري الاجتماعي في كثيرٍ من الأمور التي تخصّها.

فاليوم في مجتمعاتنا توجد سلوكيات وأفعال ورياضات يمارسها الذكور، لكنها لا تتلاءم مع جسد الإناث، ليس فقط من الناحية البدنية وقوة العضلات، بل حتى من الناحية العرفية والشرعية التي تمنع الجسد الأنثوي من القيام بذلك، إذ قد تملك المرأة قدرة على ممارسة بعض الأفعال ولا يحرّمها الشرع، إلا أن القمع الاجتماعي المتأتي من الأعراف المنغلقة والتقاليد البالية، هي ما منع المرأة من الظهور والمساهمة في الحياة حالها بذلك حال الرجل.

ومن صور قمع جسد المرأة اجتماعيًّا ما تتعرض له من حالات اغتصاب يُراد منها إشباع الغرائز، بعدّ الجسد الانثوي وسيلة لذلك، دون اعتبار لذات المرأة نفسها ومشاعرها، إذ شهدت المجتمعات وعلى اختلاف مراحلها العمرية حالات

---

(1) د. زينب المعادي، مصدر سابق، ص 28.





كثيرة لاغتصاب كيان المرأة بالتعدي على جسدها، امتهانًا لها ولحريتها في العيش بأمانٍ في الحياة. وتختلف هذه الحالات من مجتمعٍ لآخر بحسب النظرة المنطوية عليها للمرأة، وبحسب قوة الالتزام الديني والعرفي في تلك المجتمعات. ويمثل اغتصاب المرأة بعد أن يكون انتهاكًا للعرف والقانون، انتهاكًا لحرمة المرأة والتجاوز على كيانها والانتقاص منها، وباعتبارها الجنس الذي يُباح التعدي عليه وفق تصوراتهم.

وقد لا يتوقف في اغتصاب المرأة الأمر على ذلك، فهناك عصابات الجريمة المنظمة التي استباحت جسد المرأة، وجعلت منه سلعة رائجة جدًّا للمتاجرةِ به عبر الأوطان والدول، إذ تقوم تلك المنظمات بتصدير ما يسمى بالرقيق الناعم إلى شتى أنحاء العالم للأغراض الجنسية، والذي يمثل بحد ذاته قمعًا واضحًا لكيان وجسد المرأة. هذا فضلاً عن المتاجرة بأجساد النساء لأغراض متعددة، وبحسب ما تحتاجه تلك المجتمعات كأغراض شخصية منها، فضلاً عما تفرضه بعض المجتمعات المنغلقة على أجساد الإناث من قيود وأعراف تشعر المرأة بدونيتها ودونية جسدها، وتغذي مشاعر الهيمنة الذكورية بالتفاخر والاعتزاز.

ومن صور قمع الجسد الأنثوي الأخرى ما تتعرض له المرأة بجسدها وكيانها من عنفٍ بشتى صوره، فذلك العنف الجسدي الذي يستبيح جسد المرأة، ويجعله عرضة للضرب من قبل الآخرين سواء الزوج أو إنسان آخر، الأمر الذي يحمّل المرأة تبعات نفسية وصورية واضحة، منها ما يظهر على جسدها نتيجة العنف الممارس تجاهها، ومنها ما يندرج ويصبح أزمات نفسية تظل المرأة تعاني منها.

وتختلف صور العنف الجسدي الذي تتعرض له المرأة من ثقافةٍ لأخرى، وبحسب طريقة العيش مع المرأة والتعامل معها، هذا فضلاً عما يُعنّف المرأة من عنف لفظي وجنسي واقتصادي، والذي من المؤكد أيضًا يلحق الأذى بصورة جسد تلك المرأة، ويخلق لديها عدة أنواع من التأزّمات النفسية، التي قد تفتح المجال أمام التعرض لعدة أمراضٍ أخرى.





## قمع الجسد بالقتل والتشويه والانتحار

ولما كان للفرد عدة سلطات يُمارسها على جسدهِ، فله أيضًا القدرة على فرض سلطته وسيطرته على أجساد الآخرين في كثير من الأحيان، فمن باب سلطة الفرد على جسدهِ قد يُعرّضه لشتى أنواع الأضرار التي تؤذي الجسد بتهورٍ منه، أو لتحقيق غاية قاصرة في ذاتهِ. وبالمقابل قد يستخدم الفرد سلطاتهِ ضد الآخرين فيُعرّض الفرد الآخر مثلاً لضررٍ معين يلحق جسده. مثلاً يقتل شخصًا آخر، وذلك الفعل بصورتهِ الخارجية هو تصفية الجسد وموت الروح، وبالتالي قمع الجسد والقضاء على حياة ذلك الشخص.

ولعل من صور قمع الجسد الأخرى ما يتعرض له الإنسان بجسدهِ من تشويه وتعذيب، إذ تستخدم كثير من المجتمعات عدة أنواع لإخضاع الأجساد سواء بالتعذيب أو التشويه. وعلى أساس ذلك تُنتهك حرمة ذلك الجسد والمقصود منه هو مالك الجسد ذاته، إذ إن تصفية الجسد تُلحق الأذى بروح الإنسان، التي لا يعد لها وجود في الحياة بعد ذلك. أيضًا لا يمكن أن تختلف صور الانتحار عن سابقتها من خلال أنها تُعرّض الجسد الإنساني للانهزام وتقمعه اجتماعيًّا، وما ذلك إلا دليل على أن الإنسان يعد جسده مملوكًا بشكلٍ يمنحه الحرية، حتى في تصفيتهِ والقضاء على حياتهِ، وبالتالي تجريد وجوده من الحياة.

من ذلك كله يمكن القول إن الجسد الإنساني مع رحلة حياته الإنسانية التي طالت أم قصرت، ستهزمهُ عدة حوادث منها المرض الذي قد يُشفى منه، أو الانتكاسات والأزمات وما ينحته الزمن عليه، لكنه يتعرض لهزيمةٍ كُبرى وهي الأخيرة والشديدة له، ألا وهي الموت الذي ينفي ذلك الجسد ويذوّبه من أصل الوجود في الحياة، وكل ذلك معناه أن سيرة حياة الجسد تبدأ بخضوعها لعدة سلطات، التي تبني الجسد وتقمعهُ في أحيانٍ أخرى، فضلاً عن سلطات المجتمع التي لطالما تضع الجسد على الطريق الممنهج، الذي يروم المجتمع السير فيه، لكنها في الجانب الآخر تقمع الجسد الإنساني ولا تتركه للخروج أو الحياد عنها؛ لأن ذلك يُعرض الجسد للعقاب والازدراء اجتماعيًّا، وبذلك فالجسد الإنساني مُعرَّض وبشكلٍ دائم لكل ما يقمعه ويهزمه، سواء أكان المرض الذي ربما يهزمه نهائيًّا بالقضاء عليه أو يشفى منه، أم





الموت الذي يُعد الهازم الأقوى والأعنف، والصدمة الكبرى التي تقوّض وجود الإنسان في الحياة، وتقطع دابر كل أدواره ومكاناتهِ وسلوكياتهِ التي كان يعيش فيها ولأجلها في المجتمع.

وعليه فما جسد الإنسان إلا عبارة عن رواسب المجتمع بصورتهِ التي يظهر بها، إذ إن عمر الإنسان قد تجسَّد في جسده بحوادثهِ وأزماتهِ وأمراضهِ وتطوراتهِ وتنظيماتهِ، ولا يظهر الجسد إلا انعكاسًا لما مر به الإنسان خلال مراحل حياته العمرية، ومع ذلك كلّه يخرج الجسد على أنهُ ذلك الكيان الذي ليس له سلطة الدفاع حتى عن نفسهِ تجاه سلطات الفرد ذاته، وسلطات المجتمع والمرض والموت، وإنما يبقى ذلك الكيان الصامت أو الأصم الذي يُنتظر الاهتمام به بشكلٍ يُعوّض عليه كل معاناته في القمع والتعرض للهزيمة.







# خاتمة

لا يمكن لنا أن نسدل الستار على الجسد بهذه السهولة؛ فالجسد هذا الكيان الصامت يملك الكثير من المتضمنات التي قد لا يفقهها صاحب الجسد ذاته. وإن كانت الكثير من الأضواء قد سُلطت على ماهية الجسد في الأطروحات النظرية، فلا يعني ذلك أنه تم سبر غور هذا الكيان بكل ما فيه من تناقضات وأسرار، وإنما قد تفصح الحياة عن وجود أعماق كبيرة أيضًا تختبئ بها، مما لم تتوصل له الدراسات. فبعد أن كان الجسد غير محسوس به ككيان يمثل الشيء الكبير بالنسبة لحياة الإنسان، بات اليوم على الأقل لا ينظر له على أنه ذلك الآخر الذي لا نفهم منه أي شيء، وإنما نحن نمثل أجسادنا بذاتها، وليست هي منفصلة عنا بتفكيرنا ومشاعرنا وبتصرفاتنا وسلوكياتنا.

وقد لا نبالغ إن قلنا إن النظر إلى الجسد في وضعنا الحالي ما زال مجهولاً تنتابه الكثير من علامات الاستفهام، فلم يفهم الجسد رغم ما قيل عنه إلا بنزرٍ يسير جدًّا، فهو أعمق من أن ينظر له على أنه أشبه بالآلة أو الوعاء الحافظ لأعضائنا. إنه ذلك الكيان الذي يضم بين ثناياه تركيبات لا تتعلق بالجانب البيولوجي فحسب، وإنما تضم تواشجات كبيرة بينه وبين البيئات التي يعيش ويحيا بها ذلك الجسد. فبعد أن كان الجسد ينظر له بمعزل عن مكانة الإنسان وحياته ومشاعره، بات اليوم يُحسب لذلك حساب وإن كان لا يرضي الطموح. ولم يعد ذلك الشيء الخافي نوعًا ما، والذي لا نستطيع أن نتحكم به لشح معرفتنا بأغواره، وإنما بات يستخدم لأغراض تستوجبها الحياة وتنادي بها، من قبيل مثلاً ملاءمة العصرية والتقدم، ومراعاة الموضة ومواكبة الحياة، أو استخدامه كوسيط لأغراض تمتهن الجسد وتحط من كرامته.

لقد وجدنا أجسادنا مجبولة على السير وفق عدة سلطات فرضتها سنن الحياة والثقافات المجتمعية، من تنشئة وما تنطوي عليها من سياقات، تخضع الجسد إلى





قوانين تتحكم بسير وحياة ذلك الجسد مفروضة من قبل المجتمع، إلى سلطات يفرضها الإنسان ذاته على جسده من تحكم به، وإخضاعه لآليات متعددة، كأن تكون خاصة بالجمال أو الرياضة أو غيرها. وأيضًا الاحتكام إلى سلطات المرض والعلاج، وما تفرضه على الجسد من تغييرات تكون خارجة عن إرادته، والتي إما أن تنهي وجوده، أو تنقذه سلطة العلاج للبقاء على قيد الحياة.

ولا يمكن أن نغفل سلطات الشيخوخة والتقدم في السن، وما تفرضه من تقلبات واضحة على الجسد، وفق ما يتلاءم والوضع الذي يعيش فيه الإنسان صاحب ذلك الجسد، والصورة التي يظهر بها كجسد بال يحتاج إلى ترميم وترقيع. كذلك سلطة الموت التي تقضي على الوجود المادي للجسد، وتقطع عملية وجوده في الحياة كجسد ملموس.

ولما كان الجسد يحوي كل هذه التركيبات والتناقضات، وما يمكن أن يفرضه على الحياة كوسيط لإدامتها وسيرها بشكل يلائم الإنسان، لذلك يعد وسطًا مهمًّا جدًّا قد أُغفل نوعًا ما من قبل الكثير من الدراسات، أو قُرئ من زاوية أنه كيان حاوٍ فقط للأعضاء وانتهى الأمر، دون الغوص بدقة في أهمية هذا الكيان، وما يمكن أن يفعله اجتماعيًّا وثقافيًّا، وكيف قُمِع وأُجبِر على تحمل كل تغيرات الظروف في الحياة الإنسانية، والتي بات على أساسها عبارة عن خريطة تتمظهر عليها تضاريس الحياة في كل وقفة من وقفاتها.

إن توصيفًا دقيقًا لما آل إليه وضع الجسد، يظهر لنا أنه رغم كل ما قدَّمه الجسد للإنسان من منافع، إلا أنه ذلك الكيان الذي قُهِر وقُمِع من قبل قوانين ونظم وحياة المجتمعات التي يعيش بها البشر. إنه منصاع بشكلٍ أو بآخر لكل مقدَّرات الإنسان، وما تفرضه عليه بيئته وكل سلطات الحياة الأخرى. فبعد أن كان الجسد ذلك الكيان المهمل المجهول، بات يُتصرف به وفق ما يريد الإنسان من خلال إخضاعه للتطبيب والتزيين والتمرين؛ لإحداث تغييرات به تتلاءم وما يريد عصر ذلك الإنسان.

وعلى الرغم من دخول الجسد كوسيط في كل ميادين الحياة، إلا أننا مازلنا نجهل الكثير من أسرار هذا الكيان، بما يحويه من تركيبات تشكل حياة الإنسان ووجوده على قيد هذه الحياة.





إن الجسد يحوينا ونحن نحويه، نجهل الكثير عن دواخله وربما نخشاها، لكنها تمثل أسرارًا من أسرار الوجود التي إن تمكنا من الإحاطة بها إحاطة دقيقة، ربما قد توصلنا إلى مسارات أخرى تفصح لنا عن رؤية تشريحية مهمة لصورة هذا الكيان، وتخلق لنا صورة أخرى غير التي تصوره على أنه كيان صامت، عبارة عن تآلف لمجموعة من الأعضاء والأعصاب والعظام والدم وعدد من السوائل، إلى صورةٍ تظهره بأنه الكيان الذي يشكل وجودنا، والذي يرتبط بمشاعرنا وسلوكياتنا ومواجهتنا لظروف الحياة، مواجهة نتطلع بها لتحرير أنفسنا من كل قوانين القهر والجبروت، والخروج من أقبية التحجر إلى الميادين التي لا تزدري الجسد، وإنما تقدّسه لأهميته في صون الحياة دون امتهان ذلك الجسد، وتشييئه وجعله وسيطًا قذرًا لا تُعار له أي أهمية، وفك قيود القهر والقمع التي تحيط به، والتي تجبره على الإضرار بتركيباته إلا ما كان خارجًا عن السيطرة، والتي ينبغي مواجهتها بكل الوسائل التي تقوّم الجسد ولا تضعفه.







# المصادر







## المصادر العربية

1. د. أحمد سليمان الزغاليل، الاتجار بالنساء والأطفال، ندوة علمية عقدت في تونس، الظواهر الإجرامية المستحدثة وسبل مواجهتها، الرياض، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، 1999.
2. أحمد ماجد، الأسطورة والجسد، مجلة المحجة، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011.
3. د. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 111، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987.
4. الزهرة إبراهيم، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية: وجوه الجسد، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2009.
5. إميل دوركايم، الانتحار، ترجمة: حسن عودة، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2011.
6. أنتوني غدنز، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)، ترجمة وتقديم: فايز الصياغ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، ط4، 2005.
7. بحاج عسو، الجسد بين اللغة وآليات الضبط والإخضاع، مقال منشور على شبكة الإنترنت:

www.aljabriabed.net/n83_03assou.(1).htm.

8. بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة: د. سلمان قعفراني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009.
9. جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة: عادل يوسف حسين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 76، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984.
10. جوزيف معلوف، مفهوم الجسد في فكر موريس ميرلوبونتي، مجلة المحجة، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011.





11. د. حبيب الشاروني، فكرة الجسم في الفلسفة الوجودية، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009.
12. حسني إبراهيم عبد العظيم، الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة في سوسيولوجيا بيير بورديو، مجلة إضافات، العدد الخامس عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011.
13. حسني إبراهيم عبد العظيم، ميشيل فوكو وتأسيس سوسيولوجيا الجسد، مقال منشور في موقع الحوار المتمدن، على شبكة الإنترنت:
www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=257661
14. حسني إبراهيم عبد العظيم، ميشيل فوكو وتأسيس سوسيولوجيا الجسد (2)، النظم الفاعلة في ترويض الجسد، انصهار السلطة والمعرفة، مقال منشور في موقع الحوار المتمدن على شبكة الإنترنت:
www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=263564.
15. حسني إبراهيم عبد العظيم، تطور الانشغال السوسيولوجي بالجسد ج2، مقال منشور في موقع الحوار المتمدن على شبكة الإنترنت:
www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=256632
16. حسني إبراهيم عبد العظيم، تطور الانشغال السوسيولوجي بالجسد ج3، مقال منشور في موقع الحوار المتمدن على شبكة الإنترنت:
www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=256629.
17. حسن بدران، ازدراء الجسد في النصوص والتعاليم الإسلامية، مجلة المحجة، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011.
18. خلود السباعي، الجسد الأنثوي وهوية الجندر، بيروت، جداول للنشر والتوزيع، ط1، 2011.
19. دافيد لوبروتون، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1993.





20. ر.د.ج. سيمونز، لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية، ترجمة: علي عزت الأنصاري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2009.
21. د. زينب المعادي، الجسد الأنثوي وحلم التنمية: قراءة في التصورات عن الجسد الأنثوي بمنطقة الشاوية، 2004.
22. سمية بيدوع، فلسفة الجسد، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009.
23. د. سيار الجميل، فلسفة الجسد والتفكير الإنساني (رؤية عربية)، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009.
24. صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع: دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، بيروت، دار الانتشار العربي، 2008.
25. د. عبد الرحمن التليلي، عنف على الجسد، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009.
26. د. عز العرب لحكيم بناني، الجسم والجسد والهوية الذاتية، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009.
27. عصام العدواني، الصحة والمرض: رؤية سوسيو أنثروبولوجية، مجلة إضافات، العدد التاسع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010.
28. فضيل ناصري، قراءة في كتاب: الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، مجلة إضافات، العدد السادس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.
29. فؤاد إسحق الخوري، أيديولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة، بيروت، دار الساقي، ط1، 1997.
30. فؤاد إسحق الخوري، لغة الجسد: أنا عنترة وهي تحبني، بيروت، دار الساقي، ط1، 2000.
31. كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة: د. منى البحر ونجيب الحصادي، القاهرة، دار العين للنشر، ط1، 2009.





32. د. محمد حسام الدين إسماعيل، الصورة والجسد: دراسات نقدية في الإعلام المعاصر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2008.
33. محمد يحيى مطر وآخرون، الجهود الدولية في مكافحة الاتجار بالبشر، الرياض، ج1، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2010.
34. معزوز عبد العالي، فوكو وميكروفيزياء السلطة، مقال منشور في مجلة مدارات فلسفية، العدد 13، على شبكة الإنترنت:
www.alfalsafa.com/**foucault**%20wa%20microfizia%20assoulta.html.
35. منى فياض، فخ الجسد: تجليات نزوات وأسرار، بيروت، رياض الريس للنشر، 2000.
36. منير الحافظ، الوعي الجسدي: الإشارات الجمالية في طقوس الخلاص الجسدي، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2012.
37. ميشيلا مارزانو، فلسفة الجسد، ترجمة: نبيل أبو صعب، بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2011.
38. ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة – ولادة السجن، ترجمة: د. علي مقلد، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990.
39. ميشيل فوكو، المعرفة والسلطة، ترجمة: عبد العزيز العيادي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1994.
40. ميشيل فوكو، تأريخ الجنسانية: إرادة العرفان، ترجمة: محمد هشام، المغرب، أفريقيا الشرق، 2004.
41. هيلين توماس وجميلة أحمد، الأجساد الثقافية الإثنوغرافيا والنظرية، ترجمة: أسامة الغزولي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2010.
42. وجيه قانصو، الجسد في الفلسفة الوجودية، مجلة المحجة، العدد الثالث والعشرون، معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)، بيروت، 2011.
43. د. يوسف تبس، تطور مفهوم الجسد: من التأمل الفلسفي إلى التصور العلمي، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009.





44. Alina Maria Hrişcă, "The Silent Language" of an Artificial Body, Acta Universitatis Danubius. Communicatio, Vol 6, No 1 (2012):
journals.univ-danubius.ro/index.php/.../article/.../1366.
45. Allan Pease, Body Language: How to read others thoughts by their gestures, Sheldon press, London, 1981.
46. Allan & Barbara Pease, The Definitive Book Of Body Language, McPherson's Printing Group, Australia, 2004.
47. Bryan S. Tumer, The Cambridge Dictionary Of Sociology, Cambridge University Press, USA, 1ed, 2006.
48. Clinton R. Sanders with D. Angus Vail, Customizing The Body: the Art and Culture of Tattooing, temple University press, U.S.A, 2008.
49. Nicholas Abercrombie and others, The penguin Dictionary Of Sociology, Penguin Books Ltd, London, 5th ed, 2006.
50. Philip Hancock and others, The Body, culture and Society: An Introduction, Open University Press, Bidd / es Ltd, British, 2000.
51. Pierre Bourdieu "LA domination Masculine" Seuil, 1998.
52. Steve Bruce and Steven Yearley, The Sage Dictionary Of Sociology, Sage publications Ltd, London, 2006.
53. Victoria Pitts - Taylor, cultural Encyclopedia Of The Body, Green wood Press, Volume 1& 2, U.S.A.







# حفريات في الجسد المقموع

## مقاربة سوسيولوجية ثقافية


د. مازن مرسول محمد

• كاتب من العراق.


لم يحظى الجسد الانساني بالاهتمام الكافي الذي يعرضه كمحرّك اجتماعي اساس وليس الاقتصار على النظر اليه من الناحية البايوطبية ، فقد دعت الحاجة لإدامة الحياة بتكثيف الجهود ولتطبيب الجسد ومحاولات ترميمه وترقيعه ، الا ان الاهتمام بالجسد ككيان له تمظهرات ينحتها عليه المجتمع ويظهره بصورٍ متعددة ، لم يأتي الا في الفترات الاخيرة الماضية .

فالجسد ذلك الكيان الذي نُظر له على انه جامداً ، لم يعد ولم يكن كذلك يوما، فجميع تمحورات الحياة وصورها يؤديها الجسد ويقوم بها بكل دقة وفق سلوكيات وافعال الافراد ، فهو سر وجود الحياة بواقعها المادي وهو مترجم لكل الافكار والطموحات والمشاعر التي يمتلكها الانسان لتخرج بتصرف الجسد الذي يقوم بها وفق ما يريد ذلك الجسد .

ان المجتمع الذي يحيا فيه الانسان يسطّر وينحت ما يريده على ذلك الجسد، فالإنسان يتعلم قيم وعادات وتقاليد مجتمعه الذي يعيش فيه ، وعلى اساس ذلك يكيّف جسده ويظهر به بصور تلائم ذلك السقف الثقافي الذي يسود في المجتمع ، وتمر الفترات الزمنية والجسد يتلقى كل انواع الازمات والتقلبات والتطورات ، الامر الذي يجعل منه خارطة لكل هذه الاشياء التي مرّت عليه .

ويتعرض الجسد فضلاً عن ذلك لتمظهرات السلطة عليه ، اذ تُمارس عليه من قبل الفرد نفسه او من اسرته او من افراد المجتمع عدة سلطات اما لتقويمه وبالتالي تطوير وبناء الجسد او عقابه والحاق الضرر به ، وهو في كل هذه الاحوال يظهر بوضعيات تلائم كل ما اجبر او اريد منه القيام به .

ولعل هذا الكيان الذي يمثل الواسطة لترجمة تفكيرنا وادراكنا قد تُفرض عليه سلطة اخرى تحط منه وتعيقه بعض الشيء او تنهيه قطعاً الا وهي سلطة المرض التي تجعل منه جسداً بالياً قد يخضع الى الترميم والترقيع ان نفع ذلك .







منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com




منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com